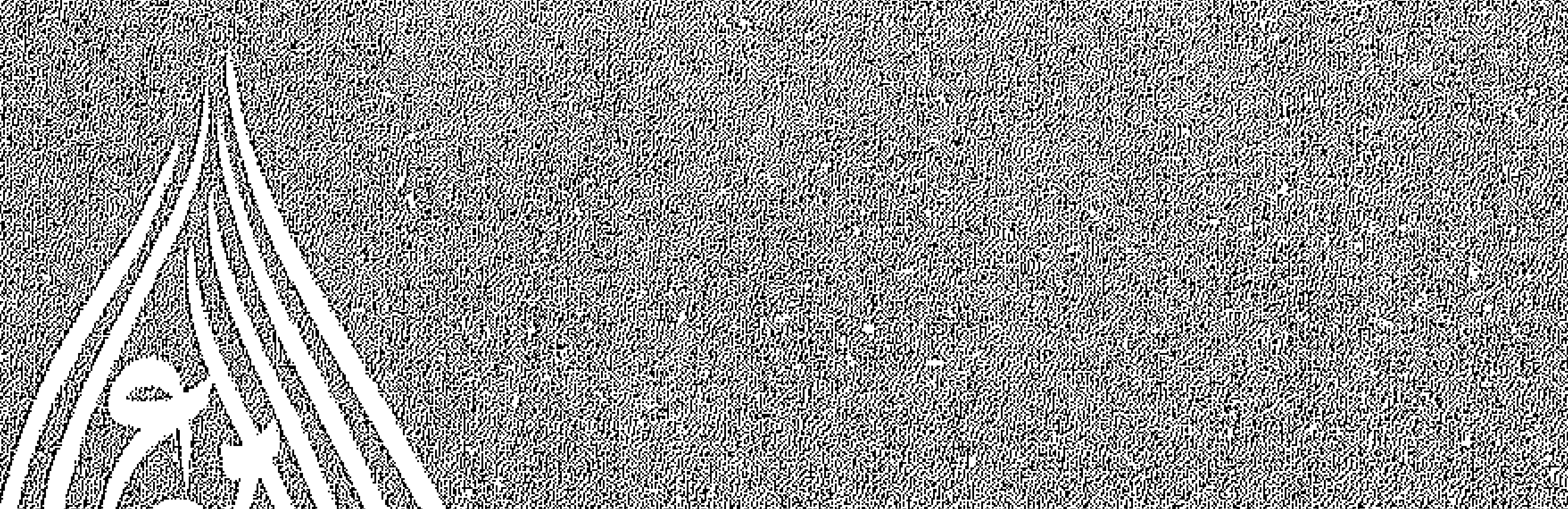
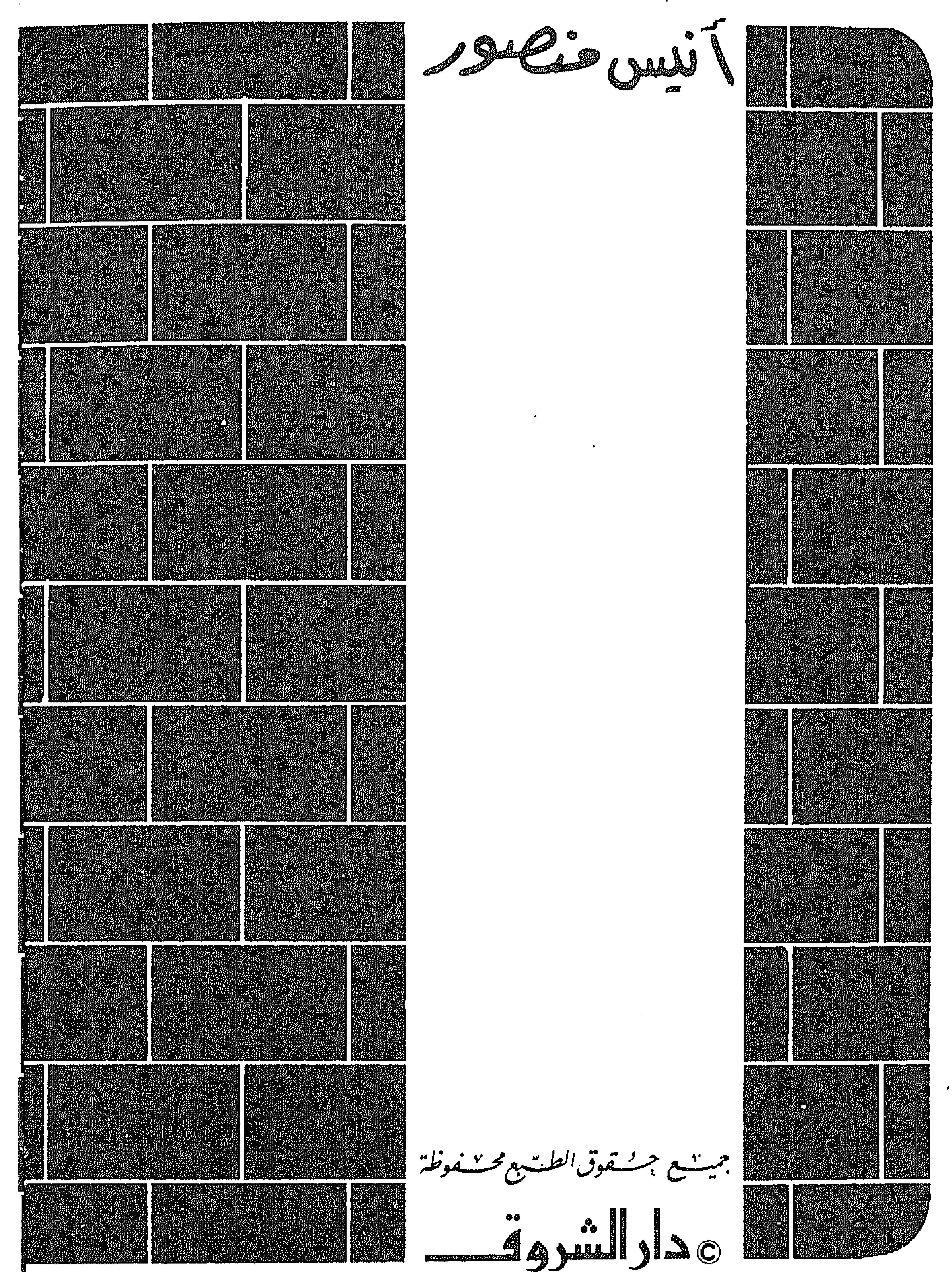
أنيس منصور

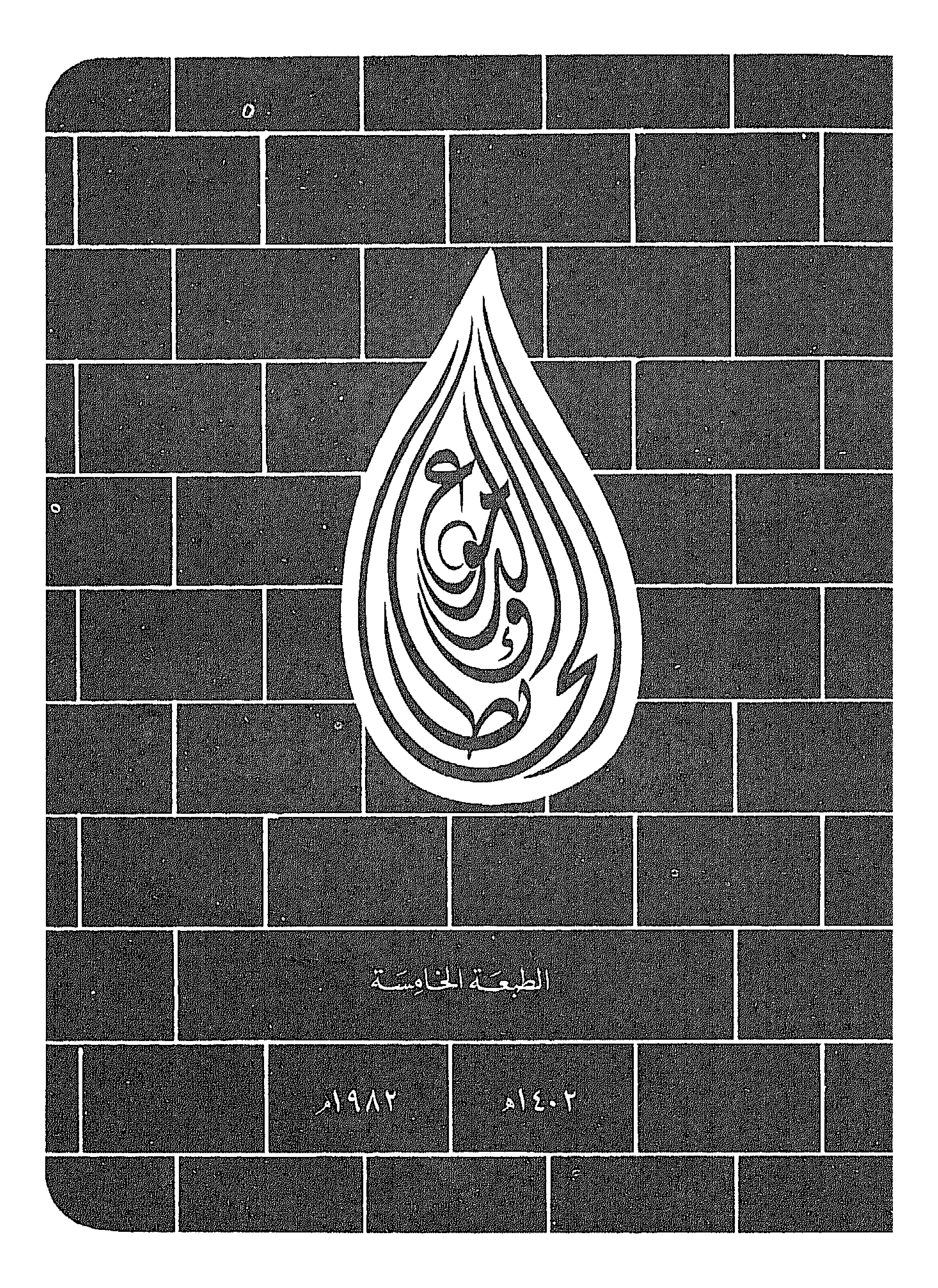
الحائط والدموع

دار الشروق





بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٥١٠١ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN



الطبعة الخامسة
١٤٠٢هـ
١٩٨٢م

مكتبة
شيخ المترجمين
عبد العزيز توفيق جاويد

اللهم ساعدنا على أنفسنا!

مقدمة

قصة طويلة معقدة : قصة اليهود في العالم . . . . . .

والصهيونية : أو القومية اليهودية نهاية واضحة الآن . . . نراها ونسمعها ونواجهها ونبكي على ماكان منها . . . وعلى ماكان منا أيضاً . . .

إن اليهود شعب غريب عجيب في هذه الدنيا . . . ظلوا يبكون لأنهم يتعذبون في كل أرض وفي كل عصر . . . وتحولت هذه الدموع عبر آلاف السنين وآلاف الأميال إلى عقد متينة . . . وإلى عقبات . . . وإلى أشواك وإلى مؤمرات . . . وإلى دسائس . . .

وإلى حقد على العالم كله . . . على كل إنسان ليس يهودياً . . . على كل إنسان في وطن . . . على كل إنسان معترف بوجوده . . . على كل الحدود والحواجز والفواصل . . . واتجهوا بكل مرارة العصور إلى تحطيم القوالب والقواعد والفوارق والقوميات والأديان والألوان . . . .

ومن وراء هذا التخريب العالمي ، كانوا هم في حواريهم الضيقة . . . وفي بيوتهم العالية . . . ومن معابدهم السرية يفكرون ويدبرون . . . كانوا يدعون العالم إلى التفكك ، ثم يتماسكون . . . يدعون إلى القضاء على

القوميات ، ويشعلون النار الدينية بينهم ... كانوا ينادون بالعالمية . ويتمسكون بأرض المعاد والدعوة لها والتخطيط لها ... لا في أستراليا ولا في افريقيا ... ولكن فوق فلسطين على الأرض العربية وفي قلب العرب ...

وبقية القصة تعرفها ...

ولا فائدة من سردها إلا إذا كان في النية الصادقة أن تستفيد مما حدث ...

وما حدث كثير جداً ...

والذي بكينا عليه كثيرجداً ...

وشعورنا بالندم والذنب والهوان ، هو أوضح مشاعرنا وأصدقها أيضاً ...

الوضع أصبح غريباً عجيباً ...

فقد كان لليهود حائط واحد يبكون عليه ... وأصبح الحائط معهم . ولم يعودوا يبكون عليه ...

ونحن الذين أصبح لنا في كل أرض حائط ... ونبكي عليه ...

كانوا يبكون ، ولم يعد لديهم مبرر للبكاء ...

ولم نكن نبكي ، وأصبح لدينا مبرر للبكاء .

فهل نستفيد من تجارب اليهود : نبكي بعين ، ونقرأ بالعين الأخرى ...

نقرأ تاريخ هؤلاء الأعداء العاقلين العالمين ...

إن العداوة وحدها لا تكفي ...

كما أن الحب وحده لا يكفي ...

العداوة عمياء ، كالحب تماماً ، إلا إذا وضعنا لها هدفاً ... ورسمنا لها طريقاً ...

وقد تفرق اليهود في كل مكان ... كما تتفرق الأوراق في شجرة واحدة ، وكما تتفرق الأصابع في يد واحدة ، وكما تفرقت الفصول في هذا الكتاب ... ولكن الهدف واحد ... والجسم واحد ...

فهل نتعلم ذلك ...

إننا مع الأسف متفرقون لا في كل أرض ... ولكن في الأرض العربية

الواحدة . . .

إننا مع الأسف متفرقون . رغم اللغة العربية الواحدة . . .

ما الذي فرقنا ؟ ما الذي مزقنا ؟

ما هذا الحائط الذي اقمناه بيننا وبكينا عنده . . . وبكينا على أنه هناك بيننا . . . وكل يوم نرفعه فاصلا بيننا . . .

إنها مشكلة الصديق الجاهل والعدو العاقل . . . إن الحب لا يكفي . . . ولكنه العلم . . . فالمسألة عظيمة . . . والقضايا علمية . . . ولذلك فهي صعبة . . . وشاقة . . .

وما دام الجهل هو مشكلتنا الأولى . . . والفواصل بيننا كبيرة . . . والحوائط بيننا منيعة . . .

إنه العلم وحده الذي يجعلنا نرى أوضح وأعمق وأبعد . . .

نرى ما الذي جرى . . .

ونرى ما الذي سوف يجري . . .

ولا بد أن نعرف عدونا . . .

ونعرف من هو الذي أقسى من عدونا : أنفسنا . . . !

إننا نقدر على عدونا . . . وسوف نزداد قدرة واقتداراً . . .

أما على أنفسنا ، فالله وحده الذي يعيننا على أنفسنا . . .

والله ولي التوفيق . .

أنيس منصور

إن كنا قد نسينا

صرخة في صدر الكتاب

إن كنا قد نسينا ، فاليهود قد كذبوا على العالم كله ... بأنفسهم ، أي بأقلامهم وبأقلام غيرهم من الكتاب . .

فإذا تحدثت عن الديانة اليهودية قالوا : بل اليهود ليسوا متعصبين بل ولا متدينين .. فرئيس إسرائيل زلمان شازار ، عندما دخل اليهود القدس في حرب يونيو ، ذهب إلى حائط المبكى وبكى وهو يقبل أحجاره ومن حوله الجنود .. وكذلك فعل بن غوريون وموشي ديان ـ وثلاثتهم ملحدون ـ وقالوا أيضاً إن الدين هو ستار لجمع شمل اليهود في العالم كله . .

وينادى المفكرون اليهود بالنظريات العالمية الواسعة

والإنسانية الفضفاضة .. وإذابة الفوارق بين الطبقات والشعوب وبين الألوان والأديان .. ولكن أكثر هؤلاء المفكرين أيضاً هم الذين يؤيدون الصهيونية واغتصاب فلسطين وطرد أهلها بالقوة ، وبمساندة الدول الاستعمارية الكبرى .. وقد رأينا كيف أن عدداً من الاشتراكيين اليهود الكبار قد طردتهم الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية لأنهم اختاروا إسرائيل ، أي الصهيونية : أي أن يكونوا اشتراكيين وصهيونيين في نفس الوقت ... ويتظاهرون ويرقصون من أجل انتصار إسرائيل على العرب !

واليهود كذبوا وضللوا العالم كله .. وإن كان بن جوريون لم يتردد قط في أن يعلن : أن إسرائيل دولة تقوم على الدين .... وإنه لا يترك التوراة ليلا أو نهاراً . وأنه ينصح كل يهودي بأن يفعل ذلك .. سواء عاش في اسرائيل أو خارجها !

وبن جوريون نفسه يعلن أنه ملحد أيضاً . ولكنه يرى أن الدين هو الدم الذي يغلي في عروق اليهود ويهزهم ويجمعهم ويجمع أموالهم أيضاً !

وعندما تزوج ابن موشي ديان وكذلك ابنته في مدينة غزة بعد النكسة أجريت الطقوس الدينية كما عرفها اليهود من ألوف السنين .. وبصورة تقليدية . وكسرت الزجاجات تحت أقدام الجميع ..

ثم اتجه الحاخام إلى أحد الجدران وظل يحفر فيه .. وكل الحاضرين قد وضعوا المناديل على أعينهم .. ونزلت الدموع .. ولا بد من كسر الزجاجات لكي يتذكر اليهود دائماً أن معبد سليمان قد انهدم .. ولا بد من تحطيم أحد الجدران لكي يتذكر اليهود دائماً أن حائط المبكى ما يزال محطماً .. أما البكاء فهو على ضياع عرش سليمان والألواح التي نقش عليها موسى الوصايا العشر ..

وهذا الطراز العجيب من اليهود يدعون بأنهم مؤمنون وهم ملحدون ، ويطالبون بالعالمية والاشتراكية وهم صهيونيون قوميون ، ويستنكرون الفوارق الطبقية وهم أصحاب ملايين ، ويحتقرون الفوارق الملونة ، ويضطهدون اليهود الملونين .. حتى في إسرائيل !

ويبدو أننا نسينا !

إن كنا قد نسينا فاليهود يكرهون الديانات الأخرى .

وكراهية اليهود موجودة في كتابهم المعروف باسم « التلمود » . ففي هذا الكتاب دراسات ومناقشات حول ما الذي يفعله اليهودي مع غيره من الناس ، أي مع غير اليهود . كيف يتعامل معه . كيف يتحدث إليه . وكيف ينصب عليه

أيضاً . لأن النصب على غير اليهود ليس نصباً . وإنما هو واجب . فاليهودي يرى أن كل الفلوس التي في جيب أي انسان آخر هي من حقه . وأن الاستيلاء على هذه الفلوس هو استرداد لها . وأن استردادها بأي طريقة هو اجتهاد مشروع . ولذلك فسرقة المسلم ليست سرقة . ولكن السرقة هي سرقة اليهودي فقط ..

وأن كل إنسان غير يهودي هو إنسان قذر .. وكل طعام لا يطهى على الطريقة اليهودية هو طعام قذر .. ولذلك فطعام اليهودي اسمه « الكوشير » أي الطعام النظيف أو الطعام المطهر ..

وأما الجرائم فهي فقط عندما يعتدي أي إنسان من أي دين آخر على اليهود ، أو يعتدي يهودي على يهودي . ولذلك فالنبي موسى عندما قتل أحد المصريين دفاعاً عن أحد اليهود .. اعتبر القتيل المصري مجرماً لأنه حاول أن يدافع عن نفسه ضد موسى .. ولأنه قتل يهودياً قبل ذلك !

والدعارة التي يديرها اليهود في أوروبا وأمريكا وهم أول من نشرها بصورة منتظمة عندما دخلوا أرض كنعان قادمين من العراق ، لا تعتبر جريمة أخلاقية أو اجتماعية .. لأن من واجب اليهودي أن يهتك أعراض كل نساء الديانات الأخرى .. وحتى الفتاة اليهودية إذا أعطت نفسها لمسلم أو

مسيحي ، فإن هذا لا يعتبر نوعاً من الزنا .. لأن الزنا يجب أن يتم بين إنسان وإنسان . ولكن اليهود يعتقدون أن غيرهم حيوانات .. ولذلك فلا جريمة أخلاقية بين رجل « حيوان » وامرأة من البشر !

« وبروتوكولات حكماء صهيون » .

وهي الدستور السري لليهود .. تنصح اليهود بأن يكونوا أطباء للولادة .. وأن يتخصصوا في الإجهاض .. وهم بالفعل كانوا كذلك في كل الدنيا وكانوا كذلك في مصر . فقد كان في مصر أكثر من طبيب يحملون اسم : ليشع وعنتيبي . أما سبب ذلك فهو أن الإجهاض هو محاولة لإنقاص عدد غير اليهود .. واحداً وألفاً .. ومائة ألف !

إنهم وحوش .. ولكننا ننسى !

إن كنا نسينا ما فعله هتلر في اليهود في القارة الأوروبية فيكفي أن ننظر إلى ما فعله اليهود في المسجد الأقصى إنه نفس الاحتقار لكل ما هو مقدس : فرئيسة وزراء إسرائيل وقوادها يدخلون المسجد بالأحذية .. ولا أحد طبعاً يطالبهم باحترام الإسلام ومقدساته .. فمن المعروف والمكتوب عندهم أنهم لا يرون ديناً غير دينهم .. ولا يرون شعباً غير شعبهم .. وليس من الطبيعي أن ينتصر اليهود في « موقعة » ؟ المسجد الأقصى .. ثم ينزعون الأحذية احتراماً للذين « انتصروا »

عليهم .. ولو فعلوا لقلنا كاذبون .. ولكنهم في الحقيقة نموذج صادق للسفالة اليهودية !

أما الذي فعله النازي في يهود ألمانيا . فقد أحرقوا وهدموا معابدهم .. وخنقوهم بالملايين في غرف الغاز .. وأطلقوا عليهم الكلاب .

وقد رأيت غرف الغاز هذه في مدينة داخاو بألمانيا الغربية .. ورأيت أظافر اليهود وهم يحفرون بها الجدران .. ولا بد أن لهم صرخات لم يسمعها أحد .. ولكن الغاز والنار والصرخات الأخرى قد قتلتها ودفنتها معاً في رماد أسود . هذه الصرخات قد أطلقها العرب والفدائيون والأطفال والنساء الذين لم يساهموا بطوبة واحدة في بناء المحارق وغرف الغاز في ألمانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا .. والمسلمون لم يحرقوا ولم يغرقوا ولا دقوا على اليهود الأبواب في يوم الجمعة فإذا وجدوا البيت مظلماً عرفوا أنهم يهود .. ولم يقتحموا عليهم البيت يوم السبت ليجدوا أنهم بلا عمل فيتأكدوا من أنهم يهود ويربطوهم في الخيول ويسحبوهم على وجوههم إلى السجون وإلى المقابر أحياء .. لم نفعل ذلك .. ولكن حدث لليهود في أوروبا أسوأ من ذلك !

وفي ظل الإسلام في الأندلس ظهر أدباء وفلاسفة وأطباء يهود مثل : ابن ميمون وابن سعديا وابن جبيرول ولم يضطهدهم أحد .. ولم يطردهم أحد .. وجاء موسى بن ميمون هذا إلى القاهرة

وعمل طبيباً لصلاح الدين .. ولم يعترض صلاح الدين على أن ينشر ابن ميمون فلسفة اليهود .. وأن يطبع كتابه المعروف باسم (دلالة الحائرين) .. وهو إحدى دعائم الديانة اليهودية ...

ولكن اليهود نسوا ما صنعه العرب والمسلمون لهم ..

ويبدو أننا ايضاً نسينا

إن كنا قد نسينا فاليهود لا يذكرون من كل تاريخهم سوى أن الملك سليمان قد أقام معبداً استورد أخشابه وأحجاره ورجاله وذهبه وفضته من البلاد المجاورة .. ولم يكن المعبد شيئا كبيراً . وإنما كان طوله ١٢٠ قدماً وعرضه ٤٠ قدماً وارتفاعه ٦٠ قدماً . هذا هو المعبد (الهائل الجبار النادر الوجود في كل العصور) .. كما يقول اليهود ..

وقد حاول سليمان أن يقيم شيئا يضاهي ما فعله الأشوريون والبابليون والفراعنة ... وقد عمل عشرات الألوف من العمال في بناء المعبد .

وكان المعبد عبارة عن ثلاثة أسوار الواحد بعد الآخر ، وفي قلب الأسوار يوجد المكان المقدس .. وفي داخل المكان المقدس ما يسميه اليهود (قدس الأقداس) . وقدس الأقداس عبارة عن غرفة صغيرة مغطاة بالذهب . وفي قلب الغرفة يوجد صندوق به الوصايا العشر التي خلفها

النبي موسى ... ولا يمكن لأي إنسان أن يرى قدس الأقداس . وإنما الحاخام الأكبر فقط وفي العيد الكبير فقط ... وإذا رآها أي إنسان آخر . وجب موته . وإذا دخل أي إنسان من أي دين آخر إلى أسوار المعبد وجب قتله أيضا !

وهذا المعبد قد بناه سليمان بعد خروج اليهود من مصر بحوالي ٤٨٠ سنة . فالمعبد هو التعويض الملكي لما أصاب اليهود في الصحراء من تشريد وجوع وضياع وتمزق ...

وجاء الملك البابلي نبوخذ نصر وهدم المعبد على رأس اليهود في سنة ٥٨٣ قبل الميلاد . وهرب اليهود من القدس ... يبكون ويصرخون .. فاللعنة لا بد أن تحل بهم بعد انهدام المعبد ... مع أن اليهود كانوا يرون أن ملكهم سليمان هو لعنة عليهم وعلى الشعب اليهودي . فهو ـ كما تقول التوراة ـ كان مشغولاً بخطف النساء ونهب الأموال وعصيان رجال الدين والاستخفاف بالدين نفسه ... وأنهم حاولوا أن ينصحوه .. فرفض . وتوعده رجال الدين اليهودي بأنه سوف يلقى أسوأ أنواع العذاب .. وأن مجده سيزول ..

ثم أعيد بناء المعبد .. ولكن الرومان في سنة ٧٠ ميلادية هدموا المعبد على اليهود . لم يبق منه سوى حائط المبكى .. وقد حاول المليونير الفرنسي روتشيلد أن يشتري الحائط في آخر القرن الماضي ..

ورفض المسلمون . ولكن اليهود اعلنوا كثيرا ـ وهذه حقيقة ـ أنهم سوف يستردون بالقوة الجدار وأرض المعبد . ولم يصدق العرب . وظنوا أن اليهود يقولون ما لا يفعلون ولكن اليهود قالوا وفعلوا .. ومنتهى أملي الا ننسى غدا ما نقوله اليوم ... فما اكثر ما نقول !

لن يحفل اليهود بمرور ثلاثة قرون على هذه الحادثة لأنها تفضحهم أمام أنفسهم .. وأمام العالم كله

لقد حدث في سنة ١٦٤٨ وفي مدينة أزمير أن أعلن أحد اليهود أنه النبي المنتظر وأنه جاء ليخلص اليهود من العذاب الذي وقع عليهم في تركيا وفي العالم كله . وأنه قد رأى في منامه موسى يطلب إليه أن ينهض وأن ينقذ الشعب اليهودي من الظلم الواقع عليه .. واستطاع هذا الرجل بإصراره أن يجمع حوله بعض الناس . وهو كيهودي يعرف أن اليهود يبحثون عن الذي يخلصهم دائماً . وأنهم التفوا حول مئات الأنبياء والأدعياء في كل تاريخهم الطويل وعندما هاجمته السلطات التركية هرب إلى القدس . وفي القدس تردد على الأماكن المقدسة . وزار قبور الأنبياء والقضاة والملوك اليهود . والتف حوله الناس .

وسافر إلى القاهرة . وقابل يوسف شلبي المستشار اليهودي للوالي في ذلك الوقت . وأعطاه

المستشار مالاً كثيراً لينشر دعوته بين اليهود في تركيا . وعندما سافر هذا النصاب واسمه « سبتاى زفاى » إلى غزة ، قابله أحد الحكماء الأثرياء واسمه ناتان وأعطاه مالاً كثيراً . وأعلن في المعبد اليهودي أن هذا الرجل هو النبي المنقذ لبني إسرائيل من عذاب المسيحيين والمسلمين . وانتشرت دعوة سبتاى في أوروبا . وتحمس له الناس في هولندا وألمانيا وإنجلترا . وترك اليهود أعمالهم . وباعوا ما يملكون انتظاراً لمجيء النبي والمشي وراءه إلى أي مكان يختاره في العالم ... وأحس المسيحيون بأن دينهم قد تزلزل من تحتهم ومن فوقهم .. وراحوا يضربون اليهود ويطردونهم من كل مدينة وقرية . ولكن سبتاى هذا أعلن أمام جموع اليهود عزل السلطان العثماني . ودخل مدينة أزمير وسط ألوف اليهود . واعتقله السلطان . ووضعه في السجن . ولكن حماس الناس قد تزايد . حتى أن رجال الشرطة الأتراك تأثروا بعينيه ولحيته وصلواته .. وكادت تقع الفتنة بين المسيحيين والمسلمين . واحتار السلطان ماذا يصنع . وهنا تقدم له أحد اليهود بخطة لإنقاذه والقضاء على هذا اليهودي النصاب . والخطة هي أن السلطان يخيره بين الإعدام أو الإسلام . واختار اليهودي النصاب أن يكون مسلماً سراً ... وأصر السلطان على أن يشهر إسلامه ... وفي سنة ١٦٦٩ أسلم الرجل وأسمى نفسه « محمد

أفندي » !

وثار اليهود واتهموا نبيهم بالشذوذ العقلي والجنسي . وقالوا أن زوجته مسيحية تدير بيتاً للدعارة . وإنه استولى على أموال كثيرة ... ولكن اليهود لم يكتشفوا إلا بعد سنوات عديدة أن صاحب المقلب رجل يهودي آخر !

ومن الذى لا يلعب «كرة الندم» ؟!

إذا نظر الناس بعضهم إلى بعض..وحاول كل واحد أن يفرك عينيه .. ثم حاول أن يمسح أذنيه .. وانتفض بعضهم وراحوا يضربون رؤوسهم فى الحائط كأن رؤوسهم ساعة قديمة وقفت وفى حاجة إلى هزة عنيفة .. فلا بد أنهم معذورون لأن ما يشاهدونه على أرض الملعب شىء غريب .. لاشىء مختلف عن كل المباريات المعروفة قبل ذلك ..

فهؤلاء الناس جلسوا فى أحد الملاعب .. وبدأت المباراة .. وكان عدد اللاعبين أكثر من ٢٢ لاعباً .. والكرة تروح بين أقدامهم .. وهناك أكثر من حكم وكل واحد له صفارة .. وبعض اللاعبين يلقى الكرة فى الشبكة بيده .. والمباراة تستمر .. وبعض الحكام يلقى بصفارته على الأرض ثم يضرب الكرة خارج الملعب ولكن زملاءه من الحكام يحتسبونها هدفاً .. وتستمر المباراة .. وأثناء اللعب يدخل الباعة المتجولون يقدمون المشروبات والأطعمة للاعبين .. وتستمر المباراة .. ويضيق

بعض اللاعبين بالكرة فإذا بهم يجلسون فى مقاعد المتفرجين وينزل بعض المتفرجين يكمل المباراة ..

إذا حدث هذا كله أمام الناس فمن حق الناس أن يتساءلوا : ما اسم هذه اللعبة ؟ ما هى قواعد هذه اللعبة ؟ ما هو الفارق بين اللاعبين والحكام .. بين المتفرجين والباعة المتجولين .. ما معنى الهدف .. ما معنى الخطوط البيضاء على الأرض .. ما هو الجزاء .. ما هو لفت النظر .. ما هى ضربة الجزاء .. ثم من الذى يلاعب من ؟ من الذى يتفرج على من ؟

لا معنى للعب . ولا معنى لقواعد اللعب . ولا معنى لصفارة الحكم .. ولا للحكم .. ثم من هو الذى يعطى لهذه الأسماء معانيها !!

شىء من هذا .. أو مثل هذا .. حدث لنا بعد ٥ يونيو .. ففى هذا اليوم هزمنا الأعداء .. هدموا مقاييس الحرب والقتال .. والنصر والهزيمة .. وتلقى العسكريون هذه الضربة فأوجعتنا جميعاً .. عسكريين ومدنيين .. مصريين وعرباً !

وارتبكنا .. ولم نعرف ماذا نفعل ولا ماذا نقول .. فقد انهار كل شىء .. أو سقطنا معا فى هاوية .. هذه الهاوية اسمها : الندم !

وهذا الندم جعلنا ننظر إلى يوم ٥ يونيو على أنه يوم أبدى .. يوم لا يتحرك . لقد وقف عنده الزمن . كما يقف إنسان أمام ميت .. وفقدت الأرقام دلالتها . فلا شىء بعد رقم ٥ ولا شىء بعد يونيو .. فالتاريخ قد تجمد عند هذا اليوم .. وتجمدنا نحن عند الندم .

ولم نحاول أن ندفن جثة ٥ يونيو وإنما حاولنا أن نحنط هذا اليوم .. وإذا كان أجدادنا قد اكتشفوا سر التحنيط فقد اكتشفنا سراً آخر للتحنيط اسمه الندم .

وأصبح هذا الندم هو الهواء الذى نتنفسه .. وهو الطعام الذى نتذوقه ولا نهضمه .. وهو الضحك الذى نغتصبه .. وهو الشيطان الذى نلعنه .

ولم يكن لدينا ما نفعله أمام الهزيمة ..

فإما أن نواجهها ..

وإما أن نهرب منها ..

وإما أن نستسلم لها . .

وإما أن نقاومها ..

وإما أن نتغلب عليها ..

ولم تكن هذه الفوارق واضحة فى أذهاننا .. تماماً كما لم تكن الفوارق واضحة فى هذه المباراة الغريبة . بين اللاعبين والمتفرجين والحكام وبين الكرة وبين البيض والسميط ..

فما معنى المواجهة ؟ معناها أن نعرف أننا هزمنا .. وأن هذه الهزيمة لها ما يبررها .. ومن ضمن مبررات الهزيمة أننا حاربنا عدواً يعرفنا ولا نعرفه .. عدواً يعرف وزننا ولا نعرف وزنه ..

ونحن نعرف الآن الكثير مما نجهله .. فهل الذى نعرفه يكفى ؟ هذه مشكلة .. أو من الممكن أن نهرب من مثل هذا العار القومى .. فنشغل أنفسنا بأشياء أخرى .. ونغرق همومنا فى انفعالات أخرى .. هذه الانفعالات تمنحنا بعض النسيان .. لا كل النسيان ..

أو نقبل الهزيمة ونسكت ونقول لأنفسنا : إن هذه الهزيمة عقوبة نستحقها ..

أو نقاوم الهزيمة بالعمل على إزالة آثارها من نفوسنا .. لكى نزيل آثارها من أرضنا .. والمقاومة عمل إيجابى منظم صعب ، لأن معناه أننا نداوى جروحنا بأيدينا وفى نفس الوقت نحمل السلاح .. أى نتحول إلى أطباء من الجنود .. أو جنود من الأطباء .. نداوى وندافع ..

تماماً كما ينفجر لغم في إحدى السفن البعيدة عن الشواطىء والمحاطة بسفن الأعداء .. لا بد لهذه السفينة أن تصلح العطب وأن تستمر وأن تستعد .

كل ذلك في وقت واحد . وقت ضيق .. وبأعصاب مشدودة وعضلات ممزقة ونفس منكسرة ..

أو نتغلب على الهزيمة .. وليس أسهل من هذه العبارة . وليس أجمل منها شعاراً .. ولكن هذا الشعار في غاية الصعوبة لأننا في حاجة قبل أن نرفع الشعار إلى أن نؤكد لأنفسنا أن هذه الكلمات لها معنى : التغلب .. على .. الهزيمة .

فالكلمات أيضاً قد فقدت معناها .. والكلمات مثل ملات انكشفت .. لم يعد لها غطاء ذهبي .. فالناس بعد الهزيمة لم يعودوا يعرفون : معنى الغطاء .. معنى العملات .. ومعنى الذهب .. انه نفس الشعور الذى يغمر المتفرجين في هذه المباراة الغريبة ..

أو نتخذ كل هذه المواقف معاً وليست هذه مهمة الشعب .. ولا مهمة الجيش .. ولا مهمة أجهزة الدولة .. وإنما مهمة قومية في مواجهة عار قومى ..

وأقسى من الشعور بالذنب ذلك الشعور الآخر المؤلم : وهو الارتياح لهذا الشعور ..

فنحن « بالتهويل » في قوة عدونا .. أعطيناه كل صفة القدرة على كل شيء ..

ونحن « بالتهوين » من قدرتنا على أى شيء .. جعلنا المقارنة بين العدو وبيننا أسلوباً للتعذيب اليومى لأنفسنا ..

وكدنا نفقد الأمل في المستقبل .. ومعنى ذلك أننا وقفنا عند جثة ٥ يونيو .. وألقينا ببقية أيام سنة ١٩٦٧ إلى البحر .. فلا أيام ولا شهور ولا سنوات بعد ذلك !

وجعلنا نستكثر على أنفسنا حتى أن نعيش ..

فنحن لا نريد أن نضحك في المسارح .. مع أن الضحك راحة للنفس

المرهقة .. ولا بد للنفس أن تستريح .. وحتى لا نشعر بالذنب ونحن نضحك ، حاولنا أن نبرر الضحك فنقول إنه ضحك له هدف .. كأن الضحك نفسه ليس هدفاً .. وكأن الضحك نفسه جريمة .. ولذلك نخفف من هذه الجريمة عندما نقول : إنها جريمة لها معنى .. وهذا المعنى مقصود ..

ونحن لا نريد أن نرى أى شيء جميلا .. ونرى أن كل ما هو جميل هو مثير جنسياً .. والإثارة الجنسية خطيئة .. ويجب ألا يكون هناك جنس ولا تكون هناك إثارة .. وإلا كانت هذه الخطيئة فظيعة ، لأن من المفروض أن نعكف على جثمان ٥ يونيو وألا نكف عن البكاء .

وفى أى مكان نتجه إليه نهش من فوق وجوهنا ذباب الندم ونمسح من وجوهنا طين الهزيمة .. ثم ننفض عن تاريخنا عار النكسة .. وهذا شعور طبيعى ..

لولا أننا يجب أن نتجاوز عذاب أيوب ..

وأن نعمل على إخراج يونس من بطن الحوت الذي اسمه الندم ..

وأن نقيم جسراً من الوعى والعمل على هاوية الهزيمة ..

وإذا نحن أردنا أن نثبت يوم ٥ يونيو .. فليكن ذلك بعض الوقت .. لأننا يجب ألا ننساه .. ويجب ألا ننظر إليه على أنه ٢٤ ساعة كأى يوم فى أى شهر ..

يجب أن نفعل ما فعله النبى يوشع عندما ثبت الشمس فى السماء ٢٤ ساعة لكى تضىء لقواته طريق النصر ..

وإذا كان هذا اليوم سوف يضىء لنا جراحنا وسلاحنا .. فإننا لا نكره الضوء .. ويجب ألا نكرهه .. وإذا تحول النور إلى نار .. فيجب أن نقبلها أيضاً .. فلا نصر بغير نور .. ولا هزيمة بغير نار ..

وإذا كنا اليوم لم نعد نشهد مباريات فى كرة القدم ، فإننا جميعاً أعضاء

فى فريق كرة أخرى أسمها : كرة الندم .. وهى المباراة التى لا يعرف فيها المتفرج معنى الكرة والشبكة والصفارة والهدف ..

وهذه المباراة فى « كرة الندم » هى التى تجعل المتفرجين يتحولون دون أن يدروا إلى ممثلين أو متفرجين فى مسرح اللامعقول .. أو مسرح العبث .. الذى يقوم على أن الكلمات لا معنى لها .. واللغة لا معنى لها .. ووسائل الاتصال بين الناس مقطوعة .. وأن الأمل سيجارة يخمدها الناس فى نفس اللحظة التى يشعلونها فيها .. وأن أفكار الناس دخان فى الهواء .. دخان مسيل للدموع ..

إن هذه حالة يجب أن نواجهها .. يجب أن نعرفها .. وأن نتفق ونختلف أمامها من أجل علاجها .. فنحن جميعاً نريد أن نتفق على قواعد اللعبة .. من أجل أن نفوز بالأهداف فى النهاية ..

وليس من اللعب ولا من قواعد اللعب أن نترك المباراة ونترك اللاعبين .. وأن نضرب بعضنا البعض بالزجاجات الفارغة .. ولا أن يقول بعضنا لبعض : امسكوا الحرامى .. لأنه إذا كنا جميعاً لصوصاً فمن هو الأمين ؟. وما معنى الأمانة .. وإذا كنا جميعاً يهوذا الذى باع المسيح وعانقه حتى صلبوه .. فمن هو المسيح ؟. وإذا كنا جميعاً المسيح فمن هو يهوذا ؟.

إننا جميعاً شركاء .. والمسؤولية هواء نشمه .. والوطنية هى جاذبية أرضنا .. والشرف تاج على رؤوسنا .. والشعور بالذنب هو دودة قطننا ..

ولا يمكن أن تحل قضيتنا بأن نستعير من اليهود حائط المبكى ..

ولا بأن نستعير منه التيه والضياع .

ولا يمكن أن تحل قضيتنا بأن نلقى كرة الندم على رؤوس غيرنا .. وإنما بأن نثبت هذه الكرة .. وأن نشوت فى الشبكة .. فتطير الكرة على أرض لها خطوط بيضاء .. وهذه الخطوط لها معنى . وتحت عيون لاعبين يعرفون المبادىء .. وأمام أعين جماهير تعرف الأصول وتحترمها وتحترمها

وتحترمنا .. وبذلك تتحقق لنا المعجزة التى تحققت للرجل « الأحدب » فى قصص « ألف ليلة وليلة » ..

تقول شهرزاد : بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد أن رجلا أحدب كان ضيفاً على أحد كبار التجار . وجاءت زوجة التاجر وحشرت سمكة فى حلق الرجل الأحدب .. ووقفت أشواك السمكة فى حلقه .. ومات .. وتخلص التاجر وزوجته من جثة الرجل الأحدب بأن ألقياها فى عيادة طبيب .

وجاء الطبيب واصطدم فى جثة الرجل الأحدب فظن أنه هو الذى قتله .. وتخلص الطبيب من جثة الأحدب وألقاها فى بيت رجل خياط ..

وظن الخياط أن الأحدب لص فهجم عليه وضربه وظن الخياط أنه هو الذى قتل الأحدب .. فحمله وألقى به فى بيت واحد حلاق ..

وألقى البوليس القبض على الحلاق الذى اعترف بأنه هو فعلا الذى قتله عندما ضربه بالمقعد فمات ..

وتقدم الحلاق إلى الحاكم ، وصدر عليه حكم الإعدام ..

وفى لحظة تنفيذ الحكم تقدم الخياط يعترف بأنه هو الذى قتله .. فانتقل حبل المشنقة إلى عنق الخياط ..

وتقدم الطبيب ليعترف أنه هو القاتل ..

وانتقل إليه حبل المشنقة ..

فتقدم التاجر يقول إن زوجته هى التى قتلته ..

وانتقل الحبل إلى عنق التاجر ..

وعلم الملك بهذه القصة فاستدعاهم جميعاً ليعرف تفاصيل هذه القصة الغريبة .. ويعرف هؤلاء الناس الذين لا يتخلصون من التهمة ، وإنما يتبارون فى الاعتراف بها ..

وعندما واجههم الملك ، تقدم طبيب غريب ولمس عنق الرجل الأحدب

ووضع عليها بعض المراهم ..

وتقول شهرزاد : وانتفض الرجل الأحدب وقفزت السمكة من فمه وتنفس ونهض واقفاً.. وقال الملك: إنها معجزة يجب أن نكتبها بماء الذهب فى كل مكان ليتعظ بها الناس !

ولم تقل لنا شهرزاد ما معنى هذه القصة ..

ومعناها : أن الناس إذا تباروا فى حمل المسؤولية ولم يتباروا فى الهرب منها ، حدثت المعجزة .. وكانت تحية رائعة لكل انسان عنده ضمير .. لكل من يبادر بتقديم عنقه من أجل الحقيقة فعاش أصحاب الضمائر .. الذين لم ينضموا إلى فريق كرة الندم !

الغرباء فى الأرض المسروقة ...!

لا بد أن هناك أسباباً قوية تجعل العالم يتفق على شىء واحد : كراهية اليهود . وأول هذه الأسباب أن الديانة اليهودية نفسها تؤكد أن اليهود هم شعب الله المختار .. وأنهم سادة البشر . وأن الأرض لهم . وأن السماء لهم فالله خاص بهم وحدهم . وبقية الشعوب خدام لهم . وليس من حق الشعوب كلها أن تؤمن برب بنى إسرائيل .

وبهذه الروح المتعالية . وبهذا التقديس الذاتى عاش اليهود فى صراع مع كل الأديان . وكان نصيبهم الطرد والتعذيب والاضطهاد من بابل حتى برلين .

ولكن بقى عند اليهود إيمان دائم بأنهم لا بد أن يعودوا إلى الوطن .. أى وطن وأن يستقر لهم حكم العالم من أوله لآخره . وأن يعبدوا ربهم وأن يستردوا ما أخذه العالم كله منهم . وهم يرون أن كل ما يملكه أى إنسان غير يهودى ، ليس من حقه .

وعلى الرغم من هذا التسامى على الناس كلهم ، فإنهم مضطرون إلى أن

يقوموا بأحقر الأعمال لكي يعيشوا بين الناس . فهم يتعالون على الناس . وفى نفس الوقت منبوذون محتقرون من الناس .

ومن هذا التسامي وهذا الهوان تكونت الشخصية اليهودية المطرودة المنفية من العالم وبظهور الديانة المسيحية اتخذ اليهود موقفاً عنيفاً هو معارضة المسيح ثم صلبه فاستحقوا اللعنة فى كل صلاة وكل كنيسة . وهذا الموقف اليهودى من المسيحية التى انتشرت جعل « اليهودى » إنساناً كريهاً ملعوناً .

وقد ضاعف هذا من شعور اليهود بالعزلة والغربة وبأنهم أجانب فى كل بلد ينزلون فيه . فهم يستأذنون فى دخول الحدود . ويشحذون لكي يعيشوا وبعد ذلك يحصلون على الجنسية الجديدة فلا تجعلهم وطنيين . وإنما تجعلهم فقط مواطنين . وفارق كبير بين أن يكون الإنسان مواطناً وأن يكون وطنياً .

واليهود كانوا مواطنين . ولكن ظل فى أعماقهم الحلم القديم بأن يكون لهم وطن ككل الناس . وكذلك كان من الصعب على أى يهودى أمريكى أو إنجليزي أو روسى أن يكون وطنياً مخلصاً . وإنما هو متجنس بالجنسية ولكن الديانة اليهودية نفسها هى التى تؤكد له دعوته إلى أرض حروب . فهم ليسوا وطنيين . ثم أن دينهم يمنعهم من العمل يوم السبت . ثم أنهم أناس لا أمان لهم . لأنهم أجانب غرباء ولأنهم غريبوا العادات والتقاليد . ولأنهم يقومون بأحط الأعمال فى المجتمع .

وانسحب اليهود من كل مجتمع يعيشون فيه . وأقفلوا على أنفسهم المحلات وحوارى اليهود وعاشوا يعملون ويجمعون المال . وعندما حرمت الكنيسة على أبنائها أن يشتغلوا بالربا الفاحش تقدم اليهود . وأحس الكثير من أبناء الدول التى يقيم فيها اليهود . أن هذه الفئة القليلة من الناس شديدة التماسك.وأنها قد جمعت الكثير من المال. وأنهم ضروريون لهم وأنهم محتقرون فى نفس الوقت . فالمسيحيون فى حاجة إليهم . وهذا الاحتياج جعلهم

يقبلون سفالة اليهود .

وأشهر أعمال الجاسوسية والخيانة الوطنية في التاريخ قد قام بها اليهود فى التاريخ أولا لأنهم بلا وطن . فهم ليسوا وطنيين . وثانياً لأنهم يكرهون الأوطان فهم محرومون منها وإن كانوا فى نفس الوقت يحاولون أن يخطفوا لهم أرضاً ليجعلوها وطناً . وثالثاً لأنهم يرون كل مالا يملكه اليهودى فهو شيء يجب أن يملكه . وأن العالم كله قد سرق من اليهود ممتلكاتهم التى وعدهم بها يهوه .

واليهود عندهم هذا الشعور العميق بالضياع والهوان . والكتاب المقدس يؤكد أنهم يستحقون كل أنواع العذاب والشقاء . بل إن الكتاب المقدس يصفهم بعبارات نابيه بذيئة لا يمكن أن ينشرها أى إنسان الآن فى أى كتاب ولذلك سوف تصدر طبعة « مطهرة » من الكتاب المقدس سببها أن اليهود يعانون من هذه الشتائم والفضائح التاريخية . وأن هذه الشتائم تؤكد لغير اليهود أنهم يستحقون ما يلقون فى كل مكان . وأن هذا قدرهم ونصيبهم .. وأن هذه إرادة السماء . وإرادة الله اليهودى الذى اختارهم ، ليعذبهم ويشردهم فى كل مكان ... وبعد ذلك يهديهم إلى أرض الميعاد ؟ ...

إن النشيد القومى الإسرائيلى يؤكد لهم أن آمالهم لن تخيب فى العثور على أرض الميعاد بعد عشرين قرناً من الضياع .

وقد حاول الكثير من اليهود أن يندمجوا فى الدول التى عاشوا فيها . بعضهم اكتسب الجنسية وبقى يهودياً . وبعضهم تحول إلى المسيحية . ولكنه ظل يهودياً أيضاً ولكنهم ظلوا يشعرون بأنهم غرباء وأنهم ملعونون . حتى الرياضى الألمانى العظيم أينشتين كان يقول : إذا نجحت نظريتى الجديدة فسيقول الألمان إنى ألمانى ، ويقول الفرنسيون إنى مواطن عالمى .. وإذا فشلت هذه النظرية فسوف يقول الفرنسيون إنى ألمانى ويقول الألمان إننى يهودى .

فأينشتين على أى حال ليست له جنسية مؤكده وليس له وطن حقيقى . وإنما هو يعيش على حدود الأوطان والقوميات .

وفى كل البلاد التى اضطهدت اليهود كانت لديها مجموعة من الأسباب لتعذيب وطرد هؤلاء الناس ، إنهم أناس غرباء شواذ خونة مثل فئران السفينة إذا غرقت وجدوا ما يأكلون وإنهم جمعوا المال ومع المال أصبحت لهم دراية بتهريبه والتعامل فيه . وإنهم أفلحوا فى أن يجعلوا أنفسهم ضروريين مع الاحتقار الشديد .

ولم تغفر الشعوب لعباقرتها اليهود تفوقهم فى كثير من الأحيان . فكراهتهم عميقة واحتقارهم شديد . فكارل ماركس طرد من ألمانيا .. وتروتسكى طرد من روسيا .. وفرويد طرد من النمسا ... وأينشتين طرد من ألمانيا ...

فكل يهودى هو نموذج للغرور الدينى والانحطاط الأخلاقى والعزلة العملية والضياع العالمى وهو إسرائيل دائماً . ولكنه يتستر وراء أقنعة من الأوطان المختلفة .

فما الذى فعله اليهود فى مواجهة التعذيب والطرد من كل بلاد العالم ؟ هل دخلوا معركة ؟ هل حاربوا ؟

إن أول معركة دخلها اليهود هى التى جاءت فى الكتاب المقدس وكانت ضد مدينة سودوم وغيرها من المدن الأخرى . وبعد ذلك جاءت معارك صغيرة لا قيمة لها . وانهدم المعبد على رأس اليهود أكثر من مرة . وطردوا من بابل . وطردوا من القدس وطردوا من مصر وطردوا من أوروبا الشرقية . وذبحوا فى ألمانيا أيام الحرب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر . فقد أحس الصليبيون أنهم ذاهبون لحماية بيت المقدس من المسلمين بينما يتركون الذين صلبوا المسيح يبيعون ويشترون ويكسبون فذبحوهم . وطردوا من إسبانيا فى نهاية القرن الخامس عشر .

وعندما جاء نابليون إلى مصر حاول أن يجمع اليهود ويكون منهم جيشاً

يفتح به مملكة السماء . ولكن اليهود لم ينضموا إليه . ووعدهم نابليون بإنشاء وطن لهم ، ولم يصدقوه وحاولوا مع إبراهيم باشا ... ولكن السلطان العثمانى رفض . وخاف من حيلهم وخيانتهم .

وأمين باشا الذى كان مرافقاً لجوردون باشا فى السودان هو رجل يهودى وكان من أحلامه أن يعود إلى فلسطين وأن يجعلها وطناً له . وأن يدعو اليهود فى العالم إلى العودة إليها ، ولم يصدقه حتى اليهود .

وأفلح اليهود فى أن يتسللوا إلى فلسطين . وأول ما فعله اليهود أن حولوا العرب إلى لاجئين أى أن اليهود الذين كانوا لاجئين ٢٥ سنة استوطنوا لأول مرة . وطردوا المواطنين الأصليين وجعلوهم لاجئين . وحتى العرب فى داخل إسرائيل قد تحولوا إلى الحياة فى « حارات اليهود » تحولوا إلى منبوذين . إلى أقلية خائفة . إلى أقلية مضطهدة .

فهل حارب اليهود سنة ١٩٤٨ ؟ لم يحاربوا . وإنما العرب استسلموا وخانوا وباعوا وكسب اليهود .

وهل حارب اليهود سنة ١٩٥٦ ؟ لم يحاربوا . وإنما تآمروا وتحركوا تحت جناحى بريطانيا وفرنسا وهل يستطيع اليهود أن يحاربوا وحدهم سنة ١٩٦٧ ؟ إن اليهود لا خبرة لهم بالقتال لم يحاربوا فى حياتهم . فلم يكن لهم وطن ولا أرض . ولا عرض . ولم تكن لهم واجهة . فهم حريصون على أن تكون لهم أيد ظاهرة . ووجوه خفية .

واليوم ... من الذي يحمى اليهود فى العالم ... إنها أمريكا . وإذا نظرنا إلى قاعدة تمثال الحرية الأمريكية نجد أن قاعدة التمثال منقوش عليها أبيات للشاعرة اليهودية إيما لازاروس . وهذه الأبيات تقول على لسان المرأة التى تحمل مشعل الحرية : تعالوا أيها الضائعون ... تعالوا أيها المساكين ... تعالوا يا نفايات الشواطىء ... تعالوا إلى هنا ... إننى أحمل لكم المشعل لأضىء لكم الأبواب الذهبية » .

إنه تمثال لأم اللاجئين اليهود فى كل أنحاء العالم ....

واستفاد اليهود من اضطهاد هتلر لهم . واستطاعوا أن يتقاضوا أجراً غالياً عن كل إنسان أحرقه هتلر .. وبالغوا فى الأرقام . وبالغوا فى الجريمة . وأعادوا كتابة التاريخ اليهودى . وزوروا فى التاريخ المسيحى .

بل إنه يوم أعلنت دولة إسرائيل أعان اليهود فى نفس الليلة اكتشاف أوراق قديمة فى البحر الميت تؤكد انتصار اليهود على الرومان فى معركة مايو سنة ٦٦ بعد الميلاد وهى المعركة التى راح ضحيتها عشرات الألوف من اليهود . وانهدمت فيها معابدهم . ونجح اليهود فقط فى أن يهربوا إلى مكان آخر ...

حتى الفيلسوف سارتر أصدر كتاباً عن « تأملات فى المسالة اليهودية » يقول فى آخر سطوره لن يكون فرنسى واحد حراً ما دام هناك يهودى واحد لا يستمتع بحقوقه كاملة . لن يكون هناك فرنسى واحد آمناً ، ما دام هناك يهودى واحد خائفاً ، لا فى فرنسا وحدها ، بل فى العالم أجمع ...

وبهذه المظاهرات السياسية والفلسفية والمحاكمات العسكرية فى ألمانيا ، أحس اليهود أن العالم كله وراءهم . وأنه لن يمضى وقت طويل حتى تكون دولتهم قد امتدت من الفرات إلى النيل وأنهم بالعدوان الثلاثى سوف يستردون كل ما ضاع منهم .

ومن المضحك أن أنبياء بنى إسرائيل عندما توقعوا عودة اليهود إلى أرض الميعاد بشروا بالسلام العالمى . ففى ظل السلام العالمى ستظهر دولة إسرائيل . والعجيب أن إسرائيل هى اليوم مصدر الشقاء والتعاسة للعالم والعقبة القائمة للسلام العالمى .

فأى نوع من الناس يعيش فى إسرائيل الآن ؟ من الذين نواجههم اليوم على طول جبهة ١١٧ ميلا من البحر الأبيض إلى خليج العقبة ؟ ؟ ؟

إننا لسنا أمام شعب حقيقى . إننا أمام أناس لهم دين واحد . ولكن

لهم ستون جنسية و ٣٢ لغة حتى دينهم هذا ليس واحداً . بل إن هناك أحزاب دينية إصلاحية ورجعية وانعزالية واندماجية . تبلغ الأربعين هيئة دينية .

وهناك اليهودى البولندى . واليهودى اليمنى . واليهودى الحبشى واليهودى الألمانى والأمريكى والإنجليزى ... فهناك تفرقة عنصرية بين اليهود وربما كان اليهودى اليمنى هو اليهودى الوحيد الذى لم يعرف معنى الوطن أو الوطنية . ولم يعرف معنى الإخلاص لبلده أو لأى بلد آخر . ويهود اليمن هم الحد الأدنى للاحترام فى إسرائيل وقد جاء فى تقرير نشرته الأمم المتحده من إسرائيل أن اليهود اليمنيين كانوا ينامون تحت السرير. وليس فوقه وأنهم يضعون الشوك والسكاكين فى الحزام بدلا من أن يستخدموها فى الأكل . وأن هذا النوع من اليهود هو مصدر شقاء لإسرائيل .

كل هؤلاء اليهود عاشوا فى بلاد أخرى وكانوا أجانب . غرباء مستوطنين . ولما جاؤوا إلى إسرائيل أصبحوا غرباء مرة أخرى . فإسرائيل ليست وطنهم . ولا يعرفون أرضها ولا جوها بل إنهم كالسياح الأجانب .

وهم غرباء مرة ثالثة لأنهم لا يستطيعون أن يتكلموا لغتهم . بل أنهم لا يرتبطون باليهود الآخرين إلا بالرباط الدينى فقط . ولكن الأصل والعادات واللغات كلها مختلفة .

وهم غرباء مرة رابعة لأن يهود إسرائيل يجب أن يزرعوا الأرض وأن يعملوا فى المصانع وأن يكونوا جنوداً ... ففى البلاد التى جاءوا منها كانوا يعملون فى الإدارة وفى الأبحاث وفى البنوك ... وكانوا برجوازيين . وكانوا يعيشون فى المدن لا فى الحقول . وكانوا يجدون من يخدمهم من المسيحيين . بل إن يهود إسرائيل قد اختلفوا من أول لحظة على من هو اليهودى ؟

وكانت سياسة بن جوريون أن اليهودى هو أى إنسان يعترف بأنه يهودى . شعوره بأنه يهودى يكفى . واعترض اليهود على غيرهم الذين لهم آباء يهود وأمهات مسيحيات واعترضوا على الذين كانت أمهاتهم من أصل

يهودى ، ثم تحولن إلى المسيحية . وأخيراً استقر الرأى على أن اليهودى هو من كانت أمه يهودية متدينة ..

وهذا القرار كاد يعصف بحكومة بن جوريون أكثر من مرة .

فهناك إذن فارق بين اليهودى الفلسطينى واليهودى الملحد واليهودى الأصل .. واليهودى الشعور وبين .. اليهودى الأبيض واليهودى الحبشى . واليهودى الألمانى واليهودى اليمنى فلا توجد وحدة بين اليهود . لا من ناحية اللغة ولا الجنس ولا اللون ولا العادات ولا التقاليد ...

واليهود الذين ولدوا بعد قيام إسرائيل . إنهم ليسوا مواطنين . إنهم أكثر تمزقاً من أجدادهم . إنهم هذا النوع من الناس الذى قال عنه النبى حزقيال : الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست . أو بعبارة أخرى : الآباء أكلوا الزلط والأبناء يشكون من وجع الأسنان .

فما هذا الوجع الذى يشكو منه الأبناء ؟

إن الدين اليهودى يؤكد لليهود معانى الضياع والخراب والذلة والهوان. ويؤكد لهم أن الله — شخصياً — سوف ينزل فى المعركة يحارب معهم لأنهم يحاربون الآلهة الآخرين من أجله هو . فلا أقل من أن ينزل الله اليهودى ويركب حصانه ويمسك سيفه ويضرب أعداء اليهود . والعالم كله عدو لليهود . أو كان عدواً أو ما يزال عدواً . وإن اليهود يجب أن يبكوا على انهيار المعبد . وأن يتطلعوا دائماً إلى حائط المبكى . وأن يمتنعوا عن العمل يوم السبت . وأن ينظروا إلى الناس جميعاً على أنهم خدم لهم . وعلى أن الأرض كلها لهم . وسوف تكون لهم .

ولكن الجيل الجديد من اليهود لا يرى سبباً لهذه المرارة . ولا يرى معنى لحائط المبكى ولا يرى أن الله ونزوله إلى الأرض شىء معقول . ولا يرى أن اليهود سادة الأرض ولا يرى أن الحياة ممكنة فى هذه الأرض المحاطة بالكراهية والتحفز من جانب العرب . ولا يستطيع أن يحتمل الإذاعات

التى تؤكد باستمرار أنه لا بد من دفن اليهود فى الصحراء ، والقائهم فى البحر .. ولذلك ظهرت موجات إلحادية عنيفة فى إسرائيل . واضطرت الدولة إلى جعل اللغة العبرية لغة إجبارية . وإلى عمل المسابقات العالمية من أجل فهم نصوص اللغة العبرية وحل طلاسم الكتاب المقدس ولكن الأجيال الجديدة لا ترى أن هناك أى سبب لأن يشكو الأبناء من وجع الأسنان ما داموا هم أنفسهم لم يأكلوا الزلط وإذا كان أبوهم وأجدادهم قد أكلوا الزلط فهذا نصيبهم وليس هو نصيب الأحفاد . هذا هو إذن العدو المنهار الممزق المنحل الذى نواجهه فنحن لا نواجه دولة ولا نواجه شعباً ولا نواجه جيشاً . ولا نواجه وطنيين فكلهم أجانب وكلهم غرباء وكلهم ممثلون تحمسوا إلى مسرحية من تأليف عدد من الحاخامات . وإخراج أصحاب رؤوس الأموال الأمريكان والإنجليز اليهود .

وهؤلاء اليهود فى إسرائيل هم جنود مرتزقة . فليست هذه بلادهم وليس هذا وطنهم وكل التوعية السياسية فى إسرائيل تؤكد لهم أنها حرب دينية ... وكل التعاليم الدينية تؤكد لهم يجب أن يشعروا بالضياع والتيه والرغبة فى الانتقام . واستشعار العطش وآلام الطريق والثمانين عاماً التى قضاها موسى فى صحراء سيناء أى أنهم يطلبون من يهود إسرائيل أن يشعروا أنهم ما يزالون ضائعين فى كل مكان فى العالم . أى أنهم ما يزالون غرباء فى الدنيا وأكثر غربة فى إسرائيل .

هذا هو العدو الذى نحاربه ، والذى لا يقوى على أن يحاربنا . لأنه لا شعب هناك ولا صفاً واحداً هناك ولا وطن هناك . لا قضية هناك . فاليهودى عاش فى الدنيا غريباً . وجاء إلى هذه البلاد المسروقة ليزداد غربة . وقد عاش ألوف السنين يختفى وراء الجدران عند الخطر ليموت غيره ويبقى هو على قيد الحياة ولكن هذه المرة لن يواجه الموت ... هو وجده..

إن اليهود شعب له تاريخ ولكن ليست له جغرافيا . فلا وطن لهم .

ولا وطنية عندهم إنهم غرباء فى كل مكان وهم فى هذه البقعة المسلوبة من أرضنا أكثر غربة . ولكنهم ولأول مرة هدف مكشوف لنا من جميع الجهات .

ولذلك فاليهود عاجزون عن مواجهتنا فلم يواجهوا أحداً فى كل التاريخ ولذلك لا بد أن يتواروا وراء أحد .. إنهم هذه المرة سوف يتوارون وراء تمثال الحرية الذى ينادى الضائعين فى جميع أنحاء العالم ليسكنوا نيويورك ...

وإذا كان لليهود تاريخ أسود ذليل فلن تكون لهم مساحة جغرافية فى خضم المحيط العربى الذى أقسمت موجاته على الانتقام وعواصفه على الهلاك فكما جاء اليهود يجب أن يعودوا ... بالقوة.

بنيت إسرائيل على ثلاث :
يهود العالم .. والتوراة .. وأرض الميعاد

هناك ثلاثة أنواع من الصهيونية :

الصهيونية السياسية ...

الصهيونية العملية ...

الصهيونية اليهودية ...

والذى نادى بالصهيونية السياسية هو الصحفى النمساوى هرتسل . أول من نادى بوضوح وإلحاح شديد بأن تكون لليهود دولة . ولم يترك هرتسل ملكاً ولا أميراً ولا وزيراً إلا طلب إليه نظرة عطف على المساكين من أبناء إسرائيل الذين تفرقوا فى الأرض والذين راحوا ضحية العداء للسامية فى القرن التاسع عشر .

وكان من آمال هرتسل أن تتحول نظرة العطف إلى شيء ملموس . إلى قطعة أرض يقيم عليها هؤلاء الضائعون المشتتون في القارات الخمس ...

ولا يهم أبداً أين تكون هذه الأرض . فلم يكن اليهود فى ذلك الوقت فى وضع يجعلهم قادرين على الاختيار ... فى أوغندا أو فى قبرص ... !

وكان هرتسل قانعاً بأن يكون معنى الصهيونية هو أن يلتف اليهود حول أى جبل مرتفع ... أى جبل وليس صهيون بالذات ... وفى المؤتمر الصهيونى الخامس ثار عليه اليهود وحطموا قلب هذا الرجل ، حتى مات ...

مع أن الذي كان يطلبه هرتسل هو فقط أن يفوز بموافقة أكبر عدد ممكن من الدول الكبرى أو من الدول الصغرى أو من رؤساء الدول أو من أصحاب الملايين بأن يكون لليهود مكان ... أية مساحة جغرافية لها حدود تريح اليهود من الحوارى المسدودة المظلمة ... فهرتسل باحث عن نفوذ أدبى يساند هذا الحلم القومى « وطن لليهود » !

وقبل هرتسل كانت هناك دعوة عملية لتوطين اليهود فى فلسطين . وكان يتزعم هذه الدعوة طبيب روسى هو بلنسكر الذى أصدر كتاباً بعنوان « الخلاص الذاتى » ومعناه أن يهرب اليهود من الأرض التى ضاقوا بها وضاقت بهم إلى فلسطين سراً .

وعلى كل يهود العالم أن يمشوا على أطراف أصابعهم حتى فلسطين . وهناك يجب عليهم أن يقيموا وأن يتعايشوا في سلام . وأن يمسكوا فى أراضيهم بأسنانهم وأظافرهم . وأن يجعلوا لأرضهم أسواراً بشرط ألا تكون الأسوار عالية فتلفت الأنظار ... ثم إن الأسوار إذا علت وسقطت فإنها تهدم من ورائها ما وراءها .

وهذه هي الصهيونية العملية ... أى العودة سراً وعلى مهل وفى هدوء إلى فلسطين . فإذا تكاثر عدد اليهود واتسعت الأرض التى يملكونها فسوف تكون لهم حقوق . وهنا يجب البحث عن دول كبرى تساند هذه الأقلية فى الحصول على حقوقها ...

ولم يكن هرتسل قد سمع بالطبيب الروسى ولا بكتابه . ولما قرأ هذا

الكتاب قال لو عرف ذلك ما أصدر كتابه هو « الدولة اليهودية » وهذا الاختلاف فى فهم الصهيونية قد مزق الأحزاب السياسية والدينية اليهودية . ولكن رغم هذا الخلاف الواضح فإن الاتجاهين ضروريان ، لأنه لا بد من أن تكون هناك أرض ، ولا بد من تأييد دولى لامتلاك هذه الأرض والاستقرار فوقها ... وهذا ما حدث فى سنة ١٩٤٨ ... فقد امتلك اليهود الأرض ، وجاءت الأمم المتحدة فأيدت قيام إسرائيل !

وبعد أن قامت إسرائيل ظهر اتجاه ثالث فى فهم الصهيونية وهو الذى تزعمه بن جوريون فهو يرى أن كلّ صهيونى هو كل يهودى يترك البلد الذى يعيش فيه ويسافر للعمل فى إسرائيل . وأن هذا واجب كل يهودى . وأن كل يهودى إسرائيلى . وأنه إذا لم يقم فى إسرائيل فهو تحت السلاح ... أو هو ينتظر الدعوة للعمل فيها فى أية لحظة .

وبن جوريون يستثنى فقط يهود أمريكا . ويرى أن اليهودى الأمريكى هو أحسن اليهود حظاً . لأنه مهاجر فى دولة كل أبنائها من المهاجرين . وهو فى أمريكا قد استمتع بحقوقه كاملة ولأول مرة فى تاريخ حياة الشعب اليهودى . ولكن المواطن الأمريكى عليه أعباء أكثر من أى يهودى آخر فى أى مكان ... لأنه قوى أدبياً ومادياً ... ولذلك فمساعدته لإسرائيل هى أغلى ما تملك إسرائيل .

وفى كتاب صدر هذا العام للأديب الأمريكى هرمان ووك بعنوان « هذا ربى » يقول فى آخر صفحات الكتاب إن حديثاً دار بينه وبين بن جوريون وإن بن جوريون سأله مرة : كيف يمكن أن يقاوم اليهود الفناء فى العالم كله ؟ وأجاب المؤلف : عن طريق الدين ...

وكان رد بن جوريون : هذا هو الطريق الوحيد !

ولكن إسرائيل ليست قائمة على الدين فقط وإن كان بعض رجال البرلمان والوزارة من رجال الدين . ومن الذين يفسرون التوراة تفسيراً

حرفياً ... ويرون أن الجغرافيا الحديثة لم تضف جديداً إلى كل أسماء الجبال والوديان وأوصاف المعادن والحيوانات ولا نشأة الخليقة التي جاء ذكرها في التوراة . وفي المجتمع الإسرائيلي أيضاً أناس ملحدون وشكاكون ... وأناس تعبوا من الدين . وأناس يأكلون اللحوم التي يذبحها المسلمون والمسيحيون وهذا حرام ، والذين يدخنون يوم السبت .

ولكن الشيء الغريب هو كيف التقى هؤلاء المتفرقون الممزقون المشتتون كيف أصبحت لهم وجهة واحدة . كيف أمسكوا بشيء واحد . ما الذي جمعهم وقارب بينهم : إنها التوراة ....

فقد أحس اليهود أنه لا وطن لهم إلا هذا الكتاب . ولا سياج لهم إلا هذا الكتاب فهم يهربون به ويهربون إليه . وهذا الكتاب يعطيهم كل ما يحتاجون : فهو يبرر ضياعهم الدائم . ويفسر أضطهادهم المستمر وينفخ في عزلتهم . ويؤكد لهم أن هناك حكمة سماوية قد جعلتهم يتعذبون . وأن هذا التعذيب سوف ينتهي . وسوف تعوضهم السماء عنه . وأن العذاب ضروري كضرورة النار لصقل المعادن وكضرورة النار لتحويل تربة الأرض إلى ذهب . وأنهم إذا كانوا فقدوا الأرض ، فقد انفتحت لهم كل الأرض . وأن انتشارهم بين الناس هي حكمة سماوية خافية عنهم . ولما انهدم الهيكل منذ سنة ١٨٩٨ ، هرب اليهود بكتابهم المقدس ولكن حكماء اليهود صاغوا هذا الكتاب وفسروه وشرحوه في مئات السنين . ليصبح هذا الكتاب دليلا للعمل اليومي والحياة اليومية .. ومنهجاً للتماسك التجارى والاجتماعى فى مواجهة الأغلبية التي تحيط بهم في كل مكان .. والتلمود وشروحه المختلفة هو أطول وأقدم دليل للحياة التي تواجه الأقلية في أى مجتمع . فالأقلية – عادة – لا إرادة لها . إن الأغلبية هي التي تختار لها أسلوبها في الحياة ... هي التي تختار لها المكان الذى تقيم فيه .. وتختار لها نوع العمل الذى تؤديه . وإذا كان اليهود أقلية في كل مكان فلا بد أن يتعايشوا مع الأغلبية . وأن يتفادوا

الصدام معهم. وأن يعملوا ليلا ونهاراً على أن يكونوا نافعين وألا يكفوا لحظة واحدة عن التعاون مع اليهود الآخرين فى كل مكان لأن التوراة تؤكد لليهود وكذلك التلمود أنهم سادة البشرية .. وأنهم الشعب المختار .. أى الشعب الذى اختاره الله .. والذى وعده بالعودة إلى أرض أجداده !

وبن جوريون له رأى خاص فى تفسير معنى : الشعب المختار .. فهو يرى أن الله لم يختر اليهود وإنما اليهود هم الذين اختاروه .. فهم الذين اختاروا التمسك بتعاليمه التى أنزلها على موسى .. ورضوا أن يمشوا وراءه وفى ظله .. وأن الله عندما عرض الوصايا العشر على كل الشعوب ، اختار كل شعب وصية واحدة أما اليهود فقد اختاروا الوصايا العشر وهى : لا تسرق .. لا تزن .. لا تقتل .. لا تشهد زوراً .. إلخ فكان اليهود هم الذين اختاروا الله ...

فاليهود ليسوا الشعب المختار ... وإنما هم الشعب الذى اختار !

وقد رأى موسى من اليهود ألواناً من العذاب والهوان ولقى اليهود من اليهود كل أشكال التمرد والكفر والدماء .. ولما انهدم الهيكل لأول مرة وثانى مرة كان سبب ذلك أن ربهم قد غضب عليهم .. وأنه قرر أن يشردهم فى الأرض .. تراباً تحت أقدام الشعوب ...

ولكن حكماء اليهود قد تولوا فى صمت تضميد جراح اليهود المشتتين فى الأرض . ورفع معنوياتهم . وكان التلمود هو أكبر مستشفى لعلاج المضطهدين والمعذبين والمقهورين .. وإذا كان اليهود قد اختلفوا فى اللون وفى الملامح وفى الأرض وفى اللغة فإنهم قد اتفقوا على شىء واحد : التوراة والتلمود وما جاء فيهما من وعود بالخلاص وبأرض المعاد .

فهذا الترابط الدينى الشديد العنيف هو الذى جعلهم أقوياء ، وعلى الرغم من أن إسرائيل نفسها ليست دينية ، فإن الدين القومى ، الدين المتعالى المتعصب هو الذى أمسك بهم . فالعلاقة الروحية هى التى شدتهم . وبعد ذلك استعانوا بالمال وبالعلم على البقاء

ومن بين مشاكل إسرائيل كثرة الشبان الذين ولدوا بعد وقبل سنة ١٩٤٨ أنهم لا يعرفون معنى التشرد . ولا معنى الاضطهاد . ولا معنى كلمة أقلية .. ولا دلالة حائط المبكى بالنسبة لهم . ولا معنى العودة .. ولذلك فهناك خوف شديد على أن يكون هؤلاء الشبان مستهترين جاهلين بدينهم ولذلك فرضت عليهم اللغة العبرية فرضاً .. فكل هؤلاء الشبان يتكلمون العبرية التى لا يتكلمها آباؤهم. ففى الثامنة من العمر يدرسونها وفى الثانية عشرة يقرأون التوراة بالعبرية وفى الرابعة عشرة يحفظون الحكم والأمثال من التلمود .. فاللغة العبرية التى هى لغة الكتاب المقدس هى أول رباط لتذويب الفوارق بين الأجناس والألوان .. وبعد ذلك الجيش فكل الشبان مجندون ..

وإذا كان اليهود أيام شتاتهم فى أوروبا تجاراً ناجحين وفلاحين فاشلين فإن الوضع قد انعكس الآن .. فهم فلاحون ولا يعرفون كيف يتاجرون .. فإسرائيل محاطة من كل جهة بأعدائها من العرب ، وإسرائيل تريد أن تبيع وتشترى وتكسب فاليهود يعيشون على استغلال الشعوب .. وهم الآن عاجزون تماماً .. وهم يحاولون أن يمدوا أيديهم من وراء ظهر الدول العربية إلى دول آسيا وإفريقيا ، ولكن المشكلة الكبرى هى أن هذا البحر العربى أصبح قطعة من الجليد لا تمشى فيه سفن إسرائيل التجارية .. أو أنه حقل ملغم بالكراهية الساخنة ...

وفى إسرائيل شعور دينى متزايد .. هذا الشعور الدينى هو رد فعل عنيف لروح الشباب والاستخفاف المنتشرين، فمعظم رجال إسرائيل يخشون على هذه التركة أن يبددها هؤلاء الورثة الذين لم يعرفوا كل ألوان الهوان التى عرفها آباؤهم وأجدادهم ، ولذلك فالشعارات تتعالى من جديد : إن الدين أبقى الأجداد والآباء ، والدين وحده هو الذى سوف يبقى الأحفاد أيضاً .

والذى يقرأ التلمود يجد أنه يواسى اليهود ويطلب إليهم الصبر والانتظار

ويقول لهم « مثلا » إن اليهود مثل الزيتون .. والزيتون لا تحصل عليه إلا بالعصر وكذلك اليهود يجب أن يعرفوا المحن والأزمات ليحقق لهم كل شيء فى النهاية .

والتلمود يقول لهم أيضاً : إن الله رحم اليهود عندما فرقهم فى الأرض ، ولو تركهم يعيشون معاً لأكل بعضهم البعض ، إن وقت الحياة معاً لم يحن بعد وهو لم يحن بعد لأن اليهود لا يتمسكون بدينهم بدرجة كافية .

ويقال أن الحكيم ناحوم وجده تلامذته ملقى في الطريق .. أعمى كسيحاً .. فسألوه : ماذا جرى ؟

قال : دعوت على نفسى فاستجاب الله. سألوه : ولماذا فعلت هذا ؟ قال : كنت أسوق أمامى ثلاثة حمير محملة بالفاكهة فجاء شحاذ يسألنى فقلت له لن أعطيك شيئاً حتى أعود إلى البيت . ولما عدت إلى البيت ندمت وعدت إلى الشحاذ واستغفرته ودعوت على نفسى بالعمى والكساح .

قال تلامذته : إن منظرك يبعث على العذاب ...

وكان رده : لو لم تتعذبوا من أجلى لكان عذابى أشد !

ويقال إن ابنة أحد الأباطرة سألت الحاخام يوشع — وكان دميم الوجه : كيف يضع الله حكمته فى هذا الوجه القبيح ... ؟

قال لها الحكيم : وكيف تضعون أنتم هذا النبيذ الجيد فى إناء من الطين وسألته : وأين نضعه ؟ فأجاب : فى إناء من الذهب .

وذهبت ابنة الأمبراطور ووضعت النبيذ فى إناء من الذهب ففسد طعمه فاستدعى الأمبراطور هذا الحاخام وعاتبه على هذه النصيحة السخيفة ، وكان رد الحاخام : إنما أردت أن أبين لابنتك أن الحكمة مثل النبيذ ، يجب أن توضع فى إناء بسيط .

وسألته الفتاة : ولكن ألا يوجد حكيم وسيم ؟

وكان رد الحاخام : نعم ولكن يكون أحكم إذا كان أقبح .

ومن نصائح التلمود : لا تسكن فى مدينة عمدتها من المهتمين بالأدب ، إن اهتمامه هذا يشغله عن المواطنين ويجعله يمقت المشتغلين بالتجارة ! ونصيحة أخرى : لا تهدد طفلا : إما أن تعاقبه أو تسامحه !

ومن نصائح التلمود : من يعلم ابنه يعلم ابن ابنه أيضاً .. ومن لا يعلم ابنه التجارة يعلمه السرقة !

وفى التلمود هذه النصيحة : « الجسم يعتمد على القلب ، والقلب يعتمد على الجيب » !

قل دائماً : لا أعرف .. حتى لا يتعثر لسانك بشىء يوم تكون قد اخترعت شيئاً جديداً .

ويقال أيضاً إن جماعة من اليهود اشتروا حماراً لأحد الحاخامات حتى يريحوه من المشى على قدميه . وقد اشتروا الحمار من رجل عربى ، وعندما نظر الحاخام إلى الحمار راح يقلب فيه نظره فوجد فى بردعة الحمار قطعة من الماس ، فطلب إليهم أن يعيدوها إلى صاحبها فرفضوا قائلين : أليس من حقنا أن نأخذ كل أموال الكفرة وكان رد الحاخام : هذا صحيح ، ولكن أموال الدنيا كلها لا تساوى فرحة العربى بهذه الماسة .. ولا تساوى ما يقوله بعد ذلك من أن إله إسرائيل لا بد أنه إله عظيم ، وإلا لما كان شعبه أميناً إلى هذه الدرجة .

ومن التلمود أيضاً أن أحد الأباطرة استدعى حكيماً يهودياً وقال له : ربكم لص لأنه جعل آدم ينام ثم سرق ضلعاً من صدره .

وهنا صرخت ابنة هذا الحكيم : الحقوني ... امسكوا الحرامى ... إنه سرق إناء من الفضة وترك بدلا منه إناء من الذهب !

فقال الإمبراطور : وهل هذه سرقة .. ليته يسرق بيتى كله .

وقالت ابنة الحكيم : إن الله أخذ ضلعاً من آدم وعوضه عنه بحواء .

وفى التلمود أيضاً أن إبراهيم حطم الأصنام كلها ، وضاق به الملك نمرود فسأله : لماذا تكفر بأصنامنا وقال إبراهيم : لا أستطيع أن أعبد ما أصنعه بيدى من الحجارة والخشب .

وقال الملك : إذن اعبد النار التى تحرق وتضىء .

قال : الماء يخمد النار . قال : إذن اعبد الماء .

قال : السحاب هو مصدر الماء . قال : إذن اعبد السحاب .

قال : الرياح تدفع السحاب أمامها فى كل أتجاه .

قال : اعبد الرياح .

قال : ولكن الإنسان يتحكم فى هذه الرياح .. ولا أستطيع أن أعبد الإنسان لأن الموت يقهره .

والتوراة كتاب ضخم ملىء بالقصص والنوادر وملىء بالرعب والفزع وخراب العالم كله .. ولكنه ملىء بالوعود لبنى إسرائيل .

والتلمود يضم الوف الصفحات التى تحدث اليهود فى كل مكان عن الذى يأكلونه ويشربونه .. وعن التجارة والسرقة والنهب والسلب وعن الزواج وعن القتل وعن الحرب وعن الأسرى .. وعن حروبهم مع مصر ومع بلاد العرب .. وحتى الكتب التى صدرت عن النكسة وبعدها قد امتلأت بآيات وحكم وأمثال من التلمود ومن التوراة .

وفى التلمود : أن رجلا ذهب إلى أحد الحكماء يسأله : أريد أن تعلمنى التوراة فوراً ..

فرد عليه : أن موسى بقى فوق جبل سيناء أربعين يوماً وليلة قبل أن يعرف الوصايا العشر . وأنت تريد أن أعلمك التوراة فى دقيقة ... فقال الرجل : يعنى لا أمل .

فقال الحكيم : بل هناك أمل : ضع يدك فى يد بنى إسرائيل ظالمين أو مظلومين .

إنه ـ إذن ـ دينهم الذى ربط بين المشردين فى كل أرض . إنه هذا العهد السرى القديم ليواجهوا الأغلبية الساحقة فى كل مكان .

إن عنوان هذا المقال عبارة قالها موشى دايان فى حديث له والعبارة صحيحة ويمكن تفسيرها هكذا :

« التوراة وحدها أمسكت كل اليهود وجمعتهم على أمل واحد بأرض واحدة والتوراة أيضاً هى التى جعلت يهود العالم يعينون إسرائيل ، ففى إعانتها إعانة لهم أيضاً »..

ونحن يجب اليوم والآن وهذه اللحظة أن نعرف كيف يفكر عدونا .. كيف يعيش وكيف قدر ودبر .. وكيف استطاع .. وكيف يستطيع أيضاً ، ومهمة كل من يمسك قلماً أن يقولها للناس بصدق وعن فهم ما الذى يراه وما الذى يمكننا أن نتعلمه..رجال السياسة يجب أن يشرحوا سياسة إسرائيل.. والأجهزة السياسية التى تحكم إسرائيل .. رجل الدين يجبُ أن يعرض علينا مذاهب إسرائيل والخلافات بين أكبر قوة حاكمة فيها ... وكذلك مهندس الصحارى ومهندس الرى .. ومهندس المياه .. والطبيب .. ورجال الجيش .

إننا يجب أن نعرف عدونا .. إننا يجب أن نعرف بعقل وبهدوء وبموضوعية ما لم نكن نعرفه من قبل وما يزال عندنا وقت ، فلا شيء سوف ينتهى اليوم أو غداً أو بعد غد فكل أساليب الحل طويلة .. ولكن الوقت الذى نتعلم فيه لا يمكن أن يكون طويلا .. لأن الذي يجب أن نعرفه كثير ، وهذا الكثير يحتاج إلى وقت طويل ، وإلى بال أطول ...

شالوم ذلك العدو المجهول !

الآن فقط .. يجب أن نقول : إننا فى عصر ما بعد النكسة ، وما قبل النصر ...

والآن فقط .. يجب أن نعرف بوضوح ما الذى أدى إلى النكسة .. وما الذى يؤدى إلى النصر ..

أى أنه من الضرورى أن نعرف وحياتنا هى المعرفة والتجربة والتجربة ليست إلا المعرفة وقد اضفنا إليها : العرق والدموع والدم والإصرار ...

والإنسان هو ما يعرفه .. فالتاريخ يعرفنا بالذى كافحناه، والفن يعرفنا بالذى صنعناه . . والأدب يعرفنا بالذى شعرنا به . والفلسفة تعرفنا بالذى فكرنا فيه والدين يعرفنا بالذى آمنا به ..

والرؤية الصادقة هى المعرفة القوية الباهرة .. ويبدو أن المعرفة لا تجىء إلا بعد محنة . إلا بعد شعور بالذنب . تماماً كما حدث لآدم وحواء، فعندما

أكل الاثنان من الشجرة المحرمة ، أحسا بالذنب ، ولكنهما عرفا أنهما عاريان .. فشعرا بالخجل فمد كل منهما يده إلى ورقة توت .. وتغطى أمام عينى الآخر ..

وليست الأزياء بعد ذلك إلا تطويراً مستمراً لأوراق التوت ..

ونحن بعد النكسة — نحن جميع العرب — قد شعرنا بالذنب ..

وعرفنا أننا عراة .

وأننا يجب أن نتغطى بالسلاح ..

ولكى نتغطى بالسلاح يجب أن نعرف السلاح .. وأن نعرف أن المعرفة نفسها هى أعظم سلاح ..

بل المعرفة هى السلاح الذى يمسك السلاح !

وأول شىء عرفناه هو أننا لم نكن نعرف عدونا بوضوح . كنا نهول من أمرنا ، ونهون من أمره ..

بل إن عدونا لم يتجاوز أن يكون نكتة .. أن يكون فزورة ..

والآن فقط نستطيع أن نصارح أنفسنا ونقول إن الإذاعة كانت تصور كل يهودى على أنه شالوم .. ذلك الأخنف البليد السافل الذى على استعداد لأن يبيع أباه وأمه بأرخص الأسعار .. وأن يعطى للمشترى زوجته وأولاده فوق البيعة ..

ذلك هو شالوم اليهودى الذى حاربناه ..

وجاءت الرسوم الكاريكاتورية تقدم لنا شالوم فى صورة رجل أصلع له أنف مثل منقار الصقر .. ثم إنه رجل مقوس الظهر وهو عادة رجل عجوز !

ومن الممكن أن تكون كل هذه صفات شالوم ، ولكن من المؤكد أن له صفات أخرى من المقدرة والمعرفة الدقيقة لكل ظروفنا .

وفى اثناء الحرب وقع الأسرى فى أيدينا ولم يكن بينهم واحد له هذه

الصفات التى ترسبت فى آذان الناس وفى عيونهم. فالأسرى الذين سقطوا فى أيدينا يشبهون أى مواطن أوروبى .. إنهم خواجات .. لأنهم خليط من كل شعوب الأرض وهذا ما يجب أن نعرفه وقد عرفناه الآن ..

ويجب أن نعرف أنه ليس من الضرورى أن يكون كل يهودى مقوس الأنف .. « ودائرة المعارف اليهودية » تقول تحت كلمة : أنف .. ليس صحيحاً أن كل اليهود لهم أنوف الصقر . وإن كان اليهود فى عصور قديمة قد اكتسبوا هذه الصفة عندما اختلطوا بالأرمن . ولكن الأنف اليهودى مستقيم وقصير .. وحتى هذه الصفة لا يمكن أن نتمسك بها كثيراً .

إذن فاليهود أناس مثل أى أناس فلا ألوانهم ولا أنوفهم .. هى التى تهم ولكن خطرهم الصهيونى هو الذى يجب أن يهمنا . وهو الذى يجب أن نستعد له . وألا نغفل عنه .. وألا نتجاهله أيضاً ..

ومن الغريب أنه صدرت فى مصر سنة ١٩٦٥ دائرة معارف اسمها « الموسوعة العربية الميسرة » . وهى لا شك مجهود هائل . وتستحق التشجيع لأنها أول دائرة معارف حديثة..ولكن الذى يقلب هذه الموسوعة لا يجد فيها كلمة عن « إسرائيل » .. ولا كلمة واحدة عن « العدوان الثلاثى » .. أما الحركة الصهيونية وزعماؤها ومؤامراتهم على الوطن العربى أو على العالم كله .. فإنه لن يجد لها أثراً !

فما معنى ذلك ؟ معناه أننا نتجاهل إسرائيل . ونتجاهل وجودها . ولذلك يجب أن نحذفها من كل كتاب . فإذا حذفناها من أى كتاب فقد محوناها من الوجود !

وهذا ولا شك منطق ضار..بل إنه ليس منطقاً .. بل شلل فى التفكير .. وتصبح هذه الكراهية نوعاً من الجمود الذى يحجب عنا الحقيقة . لأننا نريد أن نحارب عدونا الذى نكرهه . ولكن لكى نحاربه يجب أن نعرفه ، وأن نعرف السلاح الذى نحاربه به ، والسلاح الذى يحاربنا به .

ولا شك أن هذه الكراهية العمياء هى أعظم مساعدة لإسرائيل.. لأن الكراهية العمياء تجردنا من كل سلاح للمقاومة وكل سلاح للصمود .. ولا تعطينا إلا سلاحاً واحداً : هو الغليان المشلول .. مثل غليان الماء فى إناء على نار .. يغلى ولكنه لا يتحرك .. أو يتحرك ولكنه لا يتقدم .. أو يتقدم ولكنه لا يكون مدفعاً ولا صاروخاً يصيب هدفاً من أهداف العدو ..

وفى القرن الثامن عشر ظهر فى انجلترا فيلسوف قسيس اسمه باركلى .. كان من رأيه أن الذى لا يراه لا وجود له.. والذى لا يسمعه لا صوت له.. والذى لا يشمه لا رائحة له ..

فإذا أغمض عينيه اختفى الحبل ولكنه ما يزال يحس به حول عنقه .. وعندما شد الحبل كاد يموت .. فأدرك الفيلسوف أنه إذا أغمض عينيه عن الحبل فليس معنى ذلك أن يختفى الحبل .. وإنما سيطبق الحبل على عنقه .. كأن للحبل عينين ..

وكان ذلك الفيلسوف مسرفاً فى وجهة نظره .. أو فى نظره .. لدرجة أنه تصور أنه هو وحده الذى له نظر .. أو وجهة نظر .. ولذلك كان هذا الفيلسوف — وكل من يفكر مثله—خيالياً .. واهماً .. حالماً .. مخرباً للمعسكر الذى ينتسب إليه ..

ونحن لم نعد هكذا واهمين ..

ويجب ألا نكون .. وإنما يجب أن نعرف كل وجهات النظر — وأن نناقش .. وأن نستفيد مما حدث . ولا يزال عندنا وقت لكى نتعلم . وأن نتسلح بالعلم .

وقد صدرت فى مصر وفى العالم العربى كتب كثيرة .. ودراسات متخصصة لكل ما حدث قبل نكبة سنة ١٩٤٨ .. وبعد عدوان سنة ١٩٥٦ .. ونكسة سنة ١٩٦٧ ..

وأخرجت المطابع دراسات دينية وتاريخية ..

ودراسات أدبية ولغوية ..

ومناقشات سياسية وعسكرية ..

ولكن المئات من هذه الكتب المؤلفة والمترجمة ، كما خرجت من المطابع ، عادت إلى المخازن .. بنفس السرية والهدوء .. كأن أحداً لم يكتب .. مع أن الذين كتبوا كثيرون .. والذين يريدون أن يعرفوا كثيرون ..

ولكن كانت المسافة بين المطابع وبين بيوت الناس بعيدة جداً ..

ومعنى ذلك أن أحداً لم يعرف بوضوح شيئاً عن هذه الكتب ولا عن هؤلاء الباحثين ..

ومن الواجب أن يعرف الناس الآن ماذا صدر فى مصر وفى البلاد العربية عن العدو .. يجب أن يكون فى متناول أكثر الناس أكثر من كتاب .. لنعرف عدونا .. لنعرف أبعاد العداوة .. وأعماق المعركة .. وتاريخ التآمر علينا .. تاريخ الكراهية العنصرية الاستعمارية اليهودية المتعصبة ..

• • •

ولم أكد أعرض فكرة إقامة معرض موضوعه « اعرف عدوك » على الدكتور ثروت عكاشة ، حتى وافق فوراً ، وفى حرارته الصادقة أصدر قراراً بتيسير كل شيء من أجل أن يقام هذا المعرض فوراً فى القاهرة ثم فى عواصم المحافظات .

وأقيمت فى المعرض ندوات .. وجرت مناقشات للكتب ولمؤلفيها ..

وكان المعرض دليلا على التعطش لدينا إلى المعرفة .. وعلى أنه مهما كانت هناك عداوة بيننا وبين إسرائيل ، فإن هذه العداوة تؤكد أن المعرفة ضرورية .. وأننا لا يهمنا أبداً من أين تجيء المعرفة ، مثل الماء : ينزل من السماء أو ينبع من الأرض .

وكثيراً ما صدرت فى مصر كتب ودراسات عن المؤلفين من اليهود . ولم نتوقف لحظة تردد فى نشرها .. لأن مؤلفيها من اليهود . فنحن نفرق

بين اليهودى والصهيونى .

فقد ظهرت فى مصر مسرحيات : ميللر .. وروايات مورافيا .. وكتب ديهامل .. ودراسات عن بروست .. ومورروا .. وبرجسون .. ونكاد ننسى أن فرويد وأينشتين والموسيقار بيزيه من اليهود ..

وليس هذا تساهلا .. وإنما هو اختفاء للتعصب الفكرى والدينى .. واتساع أفق .. وحسن اختيار لما ينفعنا وما يضرنا ..

وقد جاء المعرض حافلا بكل لون .. وكانت الكتب جميعها محاولات للفهم.ومحاولات للاقناع بقضيتنا..ونحن فى حاجة دائماً إلى من ينير لنا الطريق.. فما دامت كراهيتنا ليست عمياء..فنحن فى حاجة إلى نور..إلى مزيد من النور..

وقد هزتنا النكسة .. وأنارت لنا .. وكشفت لنا عن حاجتنا إلى المزيد من المعرفة .. والمزيد من التجربة .. وضرورة استئناف السير فى طريق النصر .

ويجب ألا نخجل من أن النكسة هى التى حتمت المراجعة والمناقشة .. لأن المهم هو أن نراجع أنفسنا وأن نناقشها .. فما حدث قد حدث .. ويجب ألا يحدث مرة أخرى ..

وألا نكون مثل الإسكندر الأكبر .. عندما هاجم قلعة امتلأت بالنساء .. فتقدمت واحدة منهن . وقالت : إذا قتلتنا قيل عنك إنك الرجل الذى استباح دم النساء .. وإذا نحن قتلناك قيل عنك أيضاً إنك الرجل الذى قتلته النساء .

وهنا حنى الإسكندر رأسه وطلب أن تنقش هذه العبارة على باب القلعة : يا للعار .. جئت إلى إفريقيا لأتعلم الحكمة من النساء !

وليس من العار فى شىء أن يتعلم الإنسان ، سواء كان الإسكندر أو خادم الإسكندر .. وليس من العار أن يكون الذى علمنى رجلا أو امرأة .. منتصراً أو منكسراً ..

فنحن نريد أن نتعلم..ولا علم بغير رؤية..والذى لا رؤية له،لا رأى له. والذى لا يرى شالوم بوضوح . فلن يعرف كيف ينتصر عليه !

كان ياما كان واحد يهودى غلبان

الجريمة هى الخطيئة التى ترتكبها علناً ..

والخطيئة هى الجريمة التى ترتكبها سراً .. ووخز الضمير هو العقاب الذاتى لكل خطيئة ..

واليهود أناس انفردوا بالخطايا وبتعذيب الضمير وأنهم لذلك مساكين يستحقون رحمة الشعوب وعطفها .. وهذه هى النغمة الجديدة التى ترددها مئات المطبوعات التى تصدر عن دور النشر اليهودية فى أوروبا وأمريكا . وهذه الكتب تطلب — للمرة المليون — المزيد من العطف والحنان على الشعب اليهودى المسكين . ولولا عطف أمريكا ويهودها ما تحقق للشعب الغلبان وطن ، ولا كان له انتصار .

ومعنى هذه النغمة المركزة الجديدة أن اليهود يريدون أن يقولوا إن الذى تحقق لهم شىء هين . أو إنه شىء غير مقصود . أو إنهم تعساء بوطنهم وبانتصارهم . وبأنهم لم يكسبوا إلا الكثير من رمال الأرض . وإلا الكثير من

كراهية الملايين من العرب .

ومن بين الكتب التى نشرت حديثاً وبتفسيرات جديدة كتاب عن أسطورة « اليهودى التائه » . وهى أسطورة اليهودى الكريه الوجه الذى يظهر فى بلاد كثيرة يثير استطلاع الناس وسخطهم .. وفى نفس الوقت يثير الشفقة على اليهود ..

وفى كل التاريخ نجد اليهود مطرودين من كل بلد فى أوروبا ، أو محروقين ، أو موتى تحت أنقاض أحياء اليهود .

ولا بد أن يتساءل الإنسان : ولماذا يكره الناس اليهود فى أوروبا وأمريكا وبقية القارات ؟ لماذا يهجم الناس على اليهود فى أوروبا ويحرقونهم ويطردونهم كلما أتيحت لهم فرصة ؟ وقد أتيحت لهم هذه الفرصة مئات المرات ؟

هناك أسباب عديدة ...

من بين هذه الأسباب أن اليهود كانوا دائماً أجانب على كل بلد يتسللون إليه .

حتى فى الشرق الأوسط كانوا أجانب على الأرض التى استولوا عليها فقد عرفنا تاريخ اليهود من أربعين قرناً عندما « عبروا » نهر الأردن قادمين من مدينة « أور » فى العراق .. وقد جعلوا هذا العبور أسلوبهم فى الدخول إلى كل بلد .

فإذا دخلوا بلداً ظلوا غرباء . ورفضوا أن يكونوا أقرباء لأحد . فهم يرتدون ملابس مختلفة . ويتكلمون لغة مختلفة . ويأكلون ويشربون ويتاجرون بصور مختلفة .

فاليهود هم الذين بدأوا بأن نبذوا أنفسهم عن كل بلد يدخلونه . فنبذهم الناس وعذبوهم . وأقفلوا عليهم أبواب بيوتهم وأبواب حاراتهم .

وانعزل اليهود مرة أخرى فى داخل تعاليمهم الدينية . فالتوراة والتلمود

يؤكدان لهم سيادتهم على شعوب الأرض وأنهم يجب أن يكونوا متعالين وأن كل الناس – فيما عدا اليهود – حيوانات . وأن اليهود يجب أن يتمسكوا بدينهم .

وأن الدين هو الدولة الروحية الوحيدة لهم . وإذا كان الهيكل قد انهدم ، فقد أقام اليهود هيكلا آخر هو « التلمود » . والتلمود مليء بالاحتقار والكراهية لكل الأديان الأخرى .. وكثيراً ما وقع التلمود فى أيدى المسيحيين فى أوروبا فأحرقوه وأحرقوهم .. وطردوهم من كل البلاد ..

واليهود ليسوا من عنصر واحد . ولا لهم لغة واحدة . ولكنهم متعصبون لدينهم . ولا خلاف بين العسكرى والمدنى ، وبين الفلاح والعبقرى .

وهذه العزلة المزدوجة جعلت الناس ينظرون إليهم بارتياب . والارتياب بداية الكراهية والتحرش والانتقام .

بل إننا رأينا الشعوب الأوروبية تفرض هذا العزل على اليهود . وتجعل العزل مهيناً . فتطلب إلى اليهود أن يرتدوا ملابس خاصة . وأحذية خاصة وأغطية للرأس خاصة وألا يحلقوا شعورهم . وأن يضعوا علامات صفراء أو سوداء أو زرقاء تميزهم عن غيرهم من الناس .

ورأيناها تحتم على اليهود ألا يمارسوا أية حقوق مدنية أو عسكرية وألا يحملوا سلاحاً وألا يكونوا جنوداً فى أى جيش .

حتى أسماء اليهود قد اشترطت كثير من الدول الأوربية أن توضع لها قواعد . فاليهودي مثلاً يجب أن ينسب نفسه الى بلد أو مدينة .. مثلاً : إسحق دويتشر – أى إسحق الألماني . أو ألبرتو مورافيا .. أى ألبرتو من مقاطعة مورافيا .. أو يكون له اسم نبات أو شجرة مثل ليون بلوم – وبلوم معناها زهرة أو أدموند روتشيلد . وروتشيلد معناها الدرع الحمراء .. أو يتخذ اسمه من طبيعة عمله فيقال ألبرت جولد شميد – وجولد شميد أى صانع الذهب.. أو إذا أصر اليهودى يكون له اسم يهودى ، فليكن

ذلك اسم الطائفة الدينية التي ينتسب إليها مثل : كوهين .. ومعناها كاهن .. وإذا أراد أن يكون اسمه الصغير يهودياً فليترجم إلى اللغة المحلية . فإذا أراد أن يكون اسمه موسى فليجعله مويس.. وإذا أراد أن يختار اسم هارون فليجعله: أرون .. وهكذا ..

ولا بد أن يكره الناس اليهود لأنهم يكسبون فقط من وجودهم فى أى مجتمع .. وأن العلاقة بينهم وبين أي شعب يعيشون فيه : أن الناس يشترون وهم يبيعون . فإذا وقعت كارثة فى هذا الشعب ، هرب اليهود بما عندهم من ذهب ..

ولا تزال حادثة المليونير الإنجليزى روتشيلد أيام معركة واترلو حادثاً نموذجياً . فقد كان بين قوات نابليون جواسيس للمليونير روتشيلد . ولما تحققوا من أن نابليون سوف يخسر المعركة أطلقوا حمام الزاجل إلى لندن يؤكدون هذا النبأ .. فيتلاعب هو بأسعار البورصة .. ويقلب الأسعار لحسابه ويكسب مائة مليون جنيه ..

وشعور اليهود بأنهم أقلية فى أى مكان جعلهم يتخذون موقفاً عدائياً من الأغلبية وكانوا أقرب إلى خيانة الأغلبية ..

وفى جميع الحروب وقف اليهود إلى جوار القوات التي تغزو البلاد التي يعيشون فيها ولذلك حرم عليهم أن يكونوا جنوداً . وحرم عليهم أن يشتغلوا بأية وظيفة لها علاقة بالأمن القومى ..

وعلى الرغم من هذا الهوان الذى يعانيه اليهود فى كل مكان ، أو بسبب هذا الهوان ، كانوا يشعرون دائماً أنهم أحسن من كل الناس . وأن العذاب ليس إلا نوعاً من «العصر» الضرورى للنبيذ قبل أن يوضع على موائد الملوك ..

وأنه سوف يجيء اليوم الذي يتحكمون فيه فى كل الشعوب ويذلونهم ويعذبونهم تماماً كما تعذبوا فى كل العواصم الأوروبية ، وكما أحرقوا قبل

وبعد الحروب الكبرى فى أوروبا وفى أمريكا ..

ولم يفز اليهود بحقوقهم العادية كمواطنين فى كثير من الدول الأوروبية إلا أخيراً جداً ..

ولا شك أن الانتقال من العبودية الى الحرية قد أربك العقلية اليهودية وجعلها أكثر حقداً على الذين أعطوهم الحرية .. لا لأنهم أعطوهم هذه الحرية ، ولكن لأنهم ضنوا بها وقتاً طويلاً ، ثم منحوها أخيراً ..

وبسرعة اتجه اليهود إلى الاستفادة من حقوقهم المدنية ومن سلطاتهم المكتسبة وانتقلوا إلى التآمر على العالم كله ، وتسخيره من أجل أن يكون لهم وطن .

ومجرد البحث عن وطن لليهود جعل الشعوب تكرههم من جديد . لأن البحث عن وطن ، هو البحث عن مهرب من الوطن الذى يعيشون فيه ..

وإنه ليس صحيحاً أنهم مخلصون إلى البلاد التي أعطتهم الكثير من المال والكثير من النفوذ . ثم إن المساعدات المالية الكثيرة التي يقدمها أغنياؤهم اليهود ، بل كل اليهود للإنفاق على الصهيونية العالمية ، ليس إلا نوعاً من الخيانة : أى استنزاف وطن حقيقى من أجل وطن وهمى ..

ولكن اليهود قابلوا هذا الموقف بأنهم أعلنوا أن كل يهودى هو « مزدوج الولاء » فاليهودى الأمريكى إسرائيلى أولاً وأمريكى ثانياً .. والفرنسى كذلك .. والإنجليزى أيضاً .

حتى اليهود البولنديون الذين طردوا من الحزب الشيوعى : جاء طردهم يؤكد حقيقتين : أن الحزب الشيوعى ضد الصهيونية العالمية .. وأن الشيوعيين اليهود إسرائيليون اولاً . وبولنديون بعد ذلك ..

وقانون العودة إلى إسرائيل يعلن صراحة أن كل يهودى فى أى مكان فى العالم هو إسرائيلى الجنسية دائماً . وأن فى استطاعته أن يكتسب هذه

الجنسية إذا طلبها ، وليس من الضرورى أن يسافر إلى إسرائيل ليحصل على هذه الجنسية .. ولأنه إسرائيلى فى أى مكان فمن الواجب أن يدفع الضريبة المطلوبة منه دائماً ..

ولا بد أن يكره الناس هؤلاء اليهود لارتباطهم أولاً وقبل كل شيء بما حدث للمسيح ،فاليهود تآمروا عليه . وحاولوا قتله . وهم الذين اتهموا بصلبه . والديانة المسيحية ترى أن اليهود صلبوا المسيح . ولذلك استحقوا لعنات المسيحيين فى كل صلاة .. وظلوا ملعونين عشرين قرناً . ولم تخفف هذه اللعنات إلا أخيراً عندما انعقد المؤتمر المسكوني في روما . وأعلن الكاثوليك تبرئة اليهود من دم المسيح . فهم الذين قتلوا عشرات الأنبياء وهم الذين ذبحوا الأطفال الصغار في أوروبا وفى فلسطين أيضاً ليضعوا دماءهم فى أرغفة عيد الفصح وهم الذين دسوا السم للملوك من المسيحيين . وهمّ الذين نقلوا الأوبئة .

ثم إن يهودياً هو الذى عندما رأى المسيح يحمل صليبه قال له : أسرع .. يا ملك اليهود .. فالتفت إليه المسيح يقول : الحق أقول لكم إن من بين الأقوام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا الإنسان آتياً فى ملكوته — كما جاء في إنجيل متى .

ومعنى كلام المسيح أن المسيح سوف يمضى ولكن هذا اليهودى الذى لعنه وسخر منه سوف يتعذب ولن يريحه الموت من عذاب التيه والضلال . هذا اليهودى هو المعروف فى التاريخ باسم « اليهودى التائه » .. أو اليهودى الذى حكم عليه المسيح بأن يظل تائهاً ضائعاً إلى الأبد ..

وكان هذا « اليهودى التائه » بواباً أو صانعاً للأحذية .. ويقال إنه هو وزوجته وأولادهما محكوم عليهم جميعاً بالضياع .. محرومون من نعمة الموت ..

وقد أشيع فى القرون الأولى للمسيحية أن القيامة سوف تقوم عندما

يكتمل الألف عام على ميلاد المسيح .. وتهيأ الناس لهذه النهاية المخيفة .. وفى ذلك الوقت ظهر رجل أطلق على نفسه اسم « اليهودى التائه » أو «اليهودى الملعون » أو المضروب .... والتف حوله الناس وتصدقوا عليه وأطعموه .. هذا اليهودى يؤكد لهم أن المسيح سوف يظهر . وأن ظهور المسيح يجيء بعد ظهور عدو المسيح . ولكن تكاثر هؤلاء النصابون .. وانتهى اليوم الآخر من القرن العاشر الميلادى بسلام .. ولم تقم القيامة ..

وأعيدت قصة اليهودى التائه مرة أخرى عندما ذهب أحد أساقفة الأرمن إلى إنجلترا وحدث القساوسة هناك عن سفينة نوح التى استقرت فوق جبل أرارات فى أرمينيا . وأنه شاهدها بنفسه . وأكثر من ذلك أنه شاهد اليهودى التائه . وحدثهم عن لغته الآرامية وعن ملابسه وعن عاداته وعن نبوءاته .

وتوالى ظهور هذا اليهودى التائه فى كل العواصم الأوروبية . وازداد ظهور هذا الشخص الغريب المريب فى فترات الإصلاح الدينى فى أوروبا . فكان دليلاً على شعور الناس بأن اليهود هم المسئولون عما أصاب المسيح . وأن اليهود المعاصرين هم المسئولون أيضاً عن كوارث الشعوب التى يحلون فيها ..

وأن الجملة التي قالها الوزير النمساوى مترنيخ صادقة في عصره وبعد ذلك . فقد قال : كل بلد له يهود من نوعه .

فهم نباتات متطفلة على كل أرض وكل شجرة . وكما تكون التربة تكون الأشجار وتكون هذه النباتات المتسلقة المصاصة للدماء .

وفي أمريكا ظهر اليهودى التائه أيضاً .

وتردد في الأدب والفن والشعر الكثير من أوصاف وأزمات هذا اليهودى التائه بين المسيحيين .

وفى سنة ١٩٤٨ ظهر فيلم « رمال الزمان » بطولة فيتوريو جاسمان

يصور اليهودى التائه ..

وفى أمريكا سنة ١٩٥٩ ظهر فيلم « بن هور » بطولة شارلتون هستون يتحدث عن اليهودى بن هور الذى لم يلعن المسيح وهو يحمل صليبه وإنما أراد فقط أن يحمل عنه الصليب .. وكأنه يلعن نفسه لأنه لم يكن أشجع من ذلك .. فيضرب عساكر الرومان الذين منعوه ، ويحمل الصليب عن المسيح ..

وظهر في نفس السنة فيلم مأخوذ من « يوميات الفتاة آن فرانك » وهى تصور اليهودية التائهة فى هولندا والتى عفت عن كل الذين عذبوها من المسيحيين ..

وفى الوقت الذى كان فيه اليهود يحصون عدد الدموع التى تنزل عطفاً عليهم ، كانوا يجمعون الأموال ويتآمرون ، ويشترون دور النشر والصحف وأجهزة الدعاية وشركات السينما،وعن طريق هذه الأجهزة الضخمة اشتروا الحكومات وتلاعبوا بالذهب .. وخططوا من أجل وطنهم المزعوم ..

وحتى عندما خططوا لهذا الوطن لم يندفعوا بجنون للإقامة فى أى وطن . رفضوا كندا . رفضوا أستراليا . رفضوا كينيا .. إنهم اختاروا وطناً فى أرض غنية بالبترول وفى مكان جغرافى ممتاز ، اختاروا وطناً يستنزفون دمه اقتصادياً .

ومن الغريب أن الزعيم الصهيونى هرتسل عندما عرض عليه أن يعيش اليهود فى قبرص وافق أول الأمر . ولما سئل عما سوف يفعله مع الاتراك واليونانيين الموجودين فى الجزيرة قال : سوف نجد طريقة نحبب بها أهل قبرص فى الإقامة فى اليونان وفى تركيا . وبذلك تخلو الجزيرة من سكانها الأصليين .

ولما سئل : وبعد ذلك ماذا تفعل؟ قال : ليس من الحكمة أن يكشف الإنسان عن خطته كاملة .

وهذا ما جعل الناس يكرهون اليهود فى كل مكان. وهذا ما يجعلنا

نحن أيضاً نؤمن بأن إسرائيل لن تتوقف عنه. وأنها سوف تتوسع كلما أعطيناها الفرصة.

واليهود اليوم يحاولون أن يثيروا الشفقة عليهم من جديد. فبعد هذا النصر العسكرى أدرك العالم كله أن اليهود لم يكونوا وحدهم. وبعد هذا الغرور والصلف أدرك العالم أنهم ليسوا ذلك اليهودى التائه الغلبان. وبعد العناد الإسرائيلى وعدم احترام القرارات الدولية أيقن العالم أنهم ليسوا جادين فى التعايش السلمى ولا فى السلام وأنهم ليسوا جادين فى قضية اللاجئين ولا فى حقن الدماء فى الشرق الأوسط.. ولا فى العالم كله..

ولما أدرك اليهود أن جانباً كبيراً من العطف العالمى الضرورى لهم بدأ يتناقص راحوا يضغطون من جديد على«زراير»النشر والدعاية والطبل والزمر والأبواق العالية الصوت الواسعة القاعدة لكي تنفخ جميعاً غازاتها المسيلة لدموع الشفقة.. فى كل مكان..

واليهود طراز شديد التعقيد من الناس..

وهم اليوم يشعلون النار فى التعصب الدينى فى إسرائيل نفسها. ويحاولون بذلك أن يوقظوا المشاعر الدينية المعادية لهم فى كل مكان. وبذلك يحولون المعركة إلى حرب صليبية.. مع أنها فى الحقيقة ليست صليبية فقط، وإنما هى حرب سياسية اقتصادية.

ولكن اليهود يغلفون كل مشاعرهم بغلاف دينى واضح.. فصورة موشى ديان وهو يقبل حائط المبكى وقد ارتدى البذلة العسكرية ووضع على رأسه طاقية رجال الدين وهو فى نفس الوقت ملحد، هذه صورة نموذجية للشخصية الشديدة التعقيد للقائد اليهودى.

وياثيل ديان بنت موشى ديان وكذلك ابنه عندما تزوجا فى يوليو الماضى فى مدينة غزة أصر الجميع على تحطيم الزجاجات تحت أقدامهم.. تمشياً مع التقاليد اليهودية التى تحرص على تذكير اليهود بأن الهيكل قد تكسر

وأنه لا بد من إعادة بنائه بنفس المقاييس القديمة ، وفى نفس المكان ..

والمليونير الفرنسى روتشيلد فى آخر اجتماع عقده طلب من جميع الحاضرين أن يقفوا ثلاث دقائق يكررون فيها بصورة متواصلة وصارخة كلمة : إسرائيل .. تماماً كأنها حفلة زار . وبعد ذلك طلب إليهم أن يتبرع الحاضرون رجالاً ونساء بكل ما فى أيديهم من حلى وما فى جيوبهم من مال .. وأفرغ الحاضرون كل ما معهم .. تماماً كأنهم منومون مغناطيسياً ..

ومن المؤكد أن إسرائيل هى بورصة أمريكا فى الشرق الأوسط .. وأن القرارات التى اتخذها أصحاب الملايين اليهود كلها تهدف إلى استثمار أموال يهودية فى جميع بلاد العالم، وأن يبعثوا بالعائد إلى إسرائيل .. أى أنهم قرروا مص دماء شعوب العالم من أجل إسرائيل،ومص دماء شعوب العالم هو أول قرار جاء ضمن ما يمكن أن نسميه...بروتوكولات مليونيرات صهيونية ..

وإذا ظلت أمريكا قوية فستصبح إسرائيل بورصتها الثانية ..

وإذا انتصرت روسيا فسوف يحاول اليهود أن ينتقلوا إلى موسكو ..

وإذا انتصرت الصين انتقلت السمسرة إلى بكين ..

إن يهود العالم قد حققوا ما كان يحلم به أرخميدس عندما قال : أعطنى مكاناً خارج الكرة الأرضية وأنا أحركها لك .

واليهود قد اختاروا مكاناً لهم خارج مناطق النفوذ .. لعلهم يحركون مناطق النفوذ .

إن اليهودى لم يعد ذلك التائه الغلبان .. وإن اليهودى الذى يعيش فى الشرق الأوسط هو نوع غريب شديد التعقيد .. وإننا يجب أن نعرف ذلك .. وأن نحرص على معرفة ذلك .. فقد آن الأوان لأن تعرف العدو الذى سوف تحاربه .. فلا هو غلبان ولا هو تائه ..

القديم والجديد في إسرائيل

تعبنا من تكرار مثل هذه العبارات : أرض المعاد .. بلاد العسل واللبن .. بلد البرتقال والأنبياء .. غزو رمال الصحراء .. تذويب الألوان واللغات فى حوض يغلى اسمه إسرائيل . لا أريد أن أرى دموعاً بلهاء فى عيون العائدين ..

وهذه العبارة أيضاً :

« هذا الملل .. هذا القرف .. إن شيئاً غريباً يتسلل من عروقنا .. شيئاً أهم من الدم.. لم تعد عندنا همة.. لم يعد لدينا حافز قوى.. ولا إرادة محددة.. ولا أية رغبة فى الكفاح .. إننا لم نعد جنوداً .. إننا مجندون فقط . »

وأخيراً هذه العبارة :

« إن الذى لا أتذكره لا أريد أن أتخيله .. ليس لى إلا هذه الحياة ولا بكاء على الماضى.. انتهى كل شىء..هنا والآن ولدت وأعيش وسوف أموت. »

هذه العبارات جاءت على لسان بطل رواية « الموت له ولدان » لأديبة إسرائيلية من الجيل الجديد. أديبة لها مكانة خاصة ووزن خاص. إنها يائيل ديان بنت موشى ديان.. وهى من مواليد إسرائيل. فقد ولدت فى قرية نحالال بالقرب من الناصرة سنة ١٩٣٩. انخرطت فى الجامعة العبرية. والتحقت بالجيش لمدة سنتين سنة ١٩٥٦. وأصدرت أولى رواياتها بعنوان « وجه جديد فى المرآة ». وقد تناولت هذه الرواية بالعرض والتحليل منذ عشر سنوات. وقلت فى ذلك الوقت : « ليس هذا وجه المؤلفة وإنما وجه الجيل الجديد الذى تنتسب إليه ».. وبعد ذلك أصدرت رواية أخرى أسمها « طوبى للخائفين » ورواية ثالثة اسمها « التراب ». ثم هذه الرواية.. وآخر مؤلفاتها هو كتاب بعنوان « يوميات إسرائيل : يونيو سنة ١٩٦٧ ».

وهذه الأديبة وغيرها من شباب الجيل الجديد فى إسرائيل يجب أن نلتفت إليهم بكل ملامح الوجه لنعرف القوة الحقيقية فى إسرائيل. والأجيال التى تدافع عن هذه القاعدة الاستعمارية العنصرية..

وهذه الرواية « الموت له ولدان » هى صورة للصراع القائم بين الجيل القديم والجيل الجديد فى إسرائيل.

وهذه العبارات التى اخترتها قد جاءت على لسان البطل الشاب البولندى المولد، الإسرائيلى التربية والمستقبل اسمه : دانيل حاييم كالنسكى (٣٠ سنة).

والصراع القائم فى إسرائيل بين الكبار فى السن وبين الشباب معقد ويصعب بلورته فى عبارة واحدة. ولكنه صراع ممزق بين الذين نزلوا كباراً إلى إسرائيل وبين المهاجرين إليها.. بين اليهودى الأجنبى وبين اليهودى المواطن أو الإسرائيلى..

فعلى المستوى الدينى مثلاً : هناك اتجاه قوى إلى تغيير الأسس الدينية وتطويرها حتى لا يفلت الشبان من قبضة رجال الدين.. أو من ضغط التاريخ.. حتى لا يشعر الشبان أنهم نبات شيطانى.. وأن هذه الأرض التى يعيشون

عليها موجودة فى كوكب آخر غير الأرض .. وأنها كانت هناك منذ ألوف السنين . وأنها كانت مثل شقة خالية فى انتظار الساكن الموعود، وينسى الشبان أن أجدادهم قد بذلوا الدماء والذهب والسنين لسرقة هذه الأرض من تحت أصحابها .. ثم طردوا أصحابها منها .. ومن الواجب على هؤلاء الشبان أن يذكروا دائماً أنهم ورثة .. وجدوا الأرض فأقاموا عليها . وإنما يجب أن يستشعروا الخوف والخطر دائماً،وعلى هؤلاء الشبان أن يتذكروا دائماً : أن أجدادهم عندما كانوا مشردين فى الأرض كانت لديهم التوراة والأمل فى الاستيلاء على هذه الأرض .. فإذا استولوا على الأرض فلماذا ينسون التوراة .. لماذا ينسون الرباط السرى السحرى الذى أمسك بأنوف اليهود ووجههم إلى ناحية واحدة .. اذن لا بد من التمسك بالأرض والتوراة .

ويتزعم هذا الاتجاه فى إسرائيل كتاب كثيرون معظمهم من رجال الدين ، وهى السلطة القوية فى إسرائيل .. والكاتب عجنون الذى فاز بجائزة نوبل فى الأدب هو نبى هذه الدعوة التى تقدس كل طوبة فى إسرائيل .. لأن أحد الأنبياء لا بد أن يكون قد ألقى ظله عليها ..

أما الشبان الذين نقلوهم إلى إسرائيل صغاراً . وعرفوا هذه الأرض وطناً لهم . والذين نسوا لغة آبائهم ولا يتكلمون إلا العبرية ، فلهم فلسفة أخرى .. وهي فلسفة غالبة .. أو فلسفة الأغلبية ..

ورواية « الموت له ولدان » صورة فنية للصراع بين هذين الجيلين ..

أو هى صورة للجيل الجديد من الأدباء والمواطنين فى وقت واحد ..

فى أحد مستشفيات بير سبع يرقد مريض قادم من وارسو اسمه حاييم كالنسكى (٥٦ سنة) ومرضه لا علاج له .. ومن المتوقع أن يموت .. وسوف يموت فى نهاية الرواية . وعندما يقف ابنه بطل الرواية أمام قبره لا يدرى ما الذى يقوله فى الصلاة على روح أبيه لأنه لا يصلى ولا يؤمن بالصلاة ولا بالدين .. أى دين ..

وقد استدعى هذا الابن ليرى والده قبل أن يموت . وتلتقى به أخته وتقول له : لم أكن أتوقع أنك ستجيء .

ويرد عليها : أنه بالفعل لم يحضر من أجل مرض والده . وإنما جاء فى مهمة عسكرية . وقد طلب إليها أن تقول لوالده ذلك ..

لا تنس أن المريض والده . وأنه لم ير والده هذا منذ عشرين عاماً . وأنه جاء إلى إسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية فى زورق من تريسته ومنها إلى مدينة بارى بإيطاليا .. ومن بارى تسلل إلى حيفا . ومن حيفا انتقل إلى إحدى المزارع الجماعية التى يسميها اليهود : كيبوتز .. أو القبوص ..

وفى هذه المزرعة الجماعية أدخلوه .. هناك أدخلوه فى إطار دقيق من حديد ، وهناك قالوا له إن أهلك جميعاً ماتوا . وأنت الآن ابن المزرعة .. إنها لكل الناس .. ومثلك كثيرون فى كل مزرعة . وإذا كان هناك بعض الأطفال لهم آباء وأمهات فمن الضروري ألا تفقد الأمل .

ومن المزرعة ذهب إلى المدرسة . وكان يذهب إلى المدرسة على ظهر جرار . ثم يعود فى الليل يقرأ الكتب . وهى جميعاً من الأدب والشعر . ويقبل على دراسة اللغة العبرية والنصوص الدينية .. وفى النهار يذهب إلى المدرسة ثم يزرع الأرض ويحرثها . ويمشى على قدميه حافياً لكى يزداد صلابة وتماسكاً .. وفى أول الأمر كان يضيق بحرارة الشمس وسخونة الرمال والحشرات والذباب .. ولكنه اعتاد على ذلك ، وبدأ أنفه يميز رائحة البرتقال من رائحة الأعشاب الخضراء ..

ويتذكر ماذا حدث لأبيه وأمه فى وارسو يوم هجم النازيون على العاصمة فهرب أبوه إلى حارة اليهود وأخفى ما عنده من ذهب تحت الأرض . ثم ارتدى الأبوان أحسن ملابسهما . وجاء النازيون وخطفوا الزوجة . ثم عندما وجدوه يحتضن ولديه . خيروه بين واحد منهما .. ولما تعلق الأب بأصغر ولديه .. قتلوا هذا الابن . وتركوا ابنه الآخر بطل هذه الرواية. ولا يعرف

دانيل — بطل هذه الرواية — ماذا حدث لوالديه بعد ذلك.. تفرق كل الناس فى كل مكان.. أما هو فقد نقلوه مع عشرات الأطفال والشبان إلى القبوص — أو المزارع الجماعية.

وبعد نهاية الحرب عاد الأب إلى وارسو وتزوج للمرة الثانية وأنجب فتاة اسمها : مريم. واستأنف نشاطه التجاري من جديد. ولكنه قرر فى نفس الوقت أن ينتقل إلى ألمانيا ومنها إلى أمريكا.. أو إلى إسرائيل. وابنته الصغيرة هى أكثر تحمساً إلى إسرائيل.. أما هو فقد سمع من أصدقاء كثيرين أن الحياة فى إسرائيل قاسية لا تطاق وأن عدداً كبيراً منهم قد ترك إسرائيل وعاد إلى أوروبا أو إلى أمريكا.. وفى رأيه أن إسرائيل كانت مستقبل اليهود القدامى، أما الآن فلا مستقبل لهم فيها.

ولا يزال دانيل يعمل فى «القبوص» ويتدرب على القتال.. وهو واحد من جنود المظلات. وهو شاب قوى جميل الصورة. أو جميل إطلاقاً. ولا يمكن أن تراه فتاة دون أن تداعبه.. أو تحاول أن تكون على علاقة به. ولكنه خجول أو بارد أو جامد ولا يبالى بشىء.. وكان يصدم كل فتاة حاولت أن تكون صديقة له. واكتفى من كل الصداقات بصداقة شاب اسمه يورام : هذا الشاب قتله لغم مصرى فمات. وحزن عليه. وأصبح قلبه مقبرة لكل محاولة لصداقة جديدة.

وكانت فى حياته فتيات أيضاً.. مجندات وغير مجندات. فكانت هناك الفتاة «ريتا» وهى من المشتغلات بالحفر والتنقيب عن آخر ملوك النبطيين فى سيناء. وقد حاولت أن تكون صديقة له. وهى لا تنسى أول قبلة بينهما. ربما كانت هذه هى القبلة الوحيدة التى دخلت فى حسابات قلبها. ومن ذلك اتفقت على الزواج مع يورام الذى أصابه أحد الالغام المصرية.. فى عدوان ١٩٥٦.

وكانت هناك امرأة أخرى اسمها نشاما.. لها قصة غريبة. فقد كانت

تحب أحد جنود المظلات . ومات هذا الجندي فى حرب ١٩٥٦ . فقررت أن تهب نفسها لكل جنود المظلات . وتابعت جنود المظلات فى كل الجبهة وفتحت بيتها وذراعيها لهم جميعاً . وكان بطل هذه الرواية واحداً منهم . وحاول ان يستوضحها فقالت له : الذي أحبه هو الذى مات .. مات إلى الأبد .. وأنتم جميعاً صور مكررة له .

وكانت هناك الراقصة نيللى إنها تريد أن تعيش يومها .. ويومها معناه : فستان جديد .. زجاجة عطر جديدة ووجه جديد .. وليس لها هدف من هذه الحياة أكثر من هذا .

ثم الممرضات المجندات . إنه لا يحب المرأة فى الملابس العسكرية .. لا يحب الشعر الطويل الذى يملأ الساقين . ولا يحب الأحذية الغليظة ولا رائحة العرق والرمل والبنزين والبارود ..

أما الذى فى حياته فكان شيئاً غريباً .. إنه فى مساء الجمعة من كل أسبوع كان يرتدى الملابس البيضاء ككل الشبان فى القبوص .. وكانت المناضد مغطاة بالمفارش البيضاء .. وعلى المناضد شمعتان موقدتان استعداداً ليوم السبت .. وهو اليوم المقدس . ولكنه لم يكن يشعر بأية دلالة خاصة بهذا اليوم وعلى الرغم من أنه قرأ كثيراً فى التوراة فإنها لم تهزه .

وعندما كان يركب الطائرة ويستعد لتدريبات الهبوط بالمظلة ، كانت النكت التقليدية هى السخرية من النبي موسى الذى تاه أربعين عاماً فى سيناء .. وهناك نكت كثيرة خارجة عن هذه السنوات التى تاه فيها بنو إسرائيل عندما خرجوا من مصر .

أما كيف اهتدى إلى والده .. وكيف اهتدى إليه والده ، فقد استمعت زميلته ريتا إلى الراديو وهو يعلن أن أسرة كالنسكى موجودة فى وارسو وأنها تبحث عن ابن لها اسمه دانيل . وفرحت الفتاة ريتا وجاءت تزف إليه هذا النبأ . ولكنه لم يهتز . وهو لا يدرى ما الذى يفعله . إن إحساسه بأن

والده مات ، إحساس عميق قد استقر فى أعماقه . وإن حياته قد استقرت على دفن والده . وإنه الآن طفل يتيم وإن اليتيم له ألف أب وله ألف أم . وحتى لو كان أبوه حياً ، فهو شبح لأن أباه قد مات . وأمه كذلك . وأن أخاه مات . لقد أحبه أبوه أكثر منه . فكانت العقوبة أن يموت الابن الحبيب . ويعيش الابن الذى لم يحظ بهذا الحب فكأن أباه قد اختار لأحد أبنائه الموت ، وابنه الحى قد عاقبه على مصرع أخيه .

وأخيراً بعث إلى والده خطاباً باللغة العبرية . وهى لغة لا يعرفها أبوه . وتلقى رداً من والده باللغة البولندية التى نسيها .. واستمرت المراسلات بين الاثنين تسع سنوات .. الأب يسأل عن الأسعار والإيجارات والسندات والأسهم . ويسأل إن كان من الممكن أن يعيش هناك وإن كان العرب يذبحون اليهود .. ويسأل عن إمكانية فتح دكان .. والابن يحدثه عن الحياة والأسرة الصغيرة فى القبوص . والأب يؤكد لابنه أن أصدقاءه قد هربوا من إسرائيل .. والابن يقول له : ليس عليك إلا أن تجرب فإذا لم يعجبك فعد إلى حيث أنت..والأب يؤكد للابن أنه إذا سافر إلى إسرائيل فمن أجله هو .. والابن يطلب ويؤكد لأبيه أن هذا السبب ليس وجيها ولا كافياً ..

وجاء اليوم الموعود والمشهود .. يوم وصل أبوه وزوجته وأخته إلى ميناء حيفا . وكان لا بد أن يستقبل والده .. وتردد . وأخيراً انتظره. ورآه عن قرب وعانقه . وأصيب بالغثيان من رائحة ملابسه المختزنة . ومن رائحة وجهه وبشرته . ولم يفرح بهذا اللقاء . إنه كان أسعد من غير أب وزوجة أب وأخت غير شقيقة . وثارت زوجة الأب لتقول : هؤلاء الذين يتربون فى القبوص .. هؤلاء الذين لا يملكون أى شىء .. هؤلاء الذين يعيشون معاً ويأكلون معاً بلا فوارق بينهم ، ليس لديهم احترام لأية عاطفة إنسانية . إنهم بلا أطفال . وإذا كانت لهم أطفال فهم لا يهتمون بأطفالهم .. ولا يهتزون لدموعهم .. ما أسعد أمه التى ماتت دون

أن تراه .. الحمد لله أنها لم تر هذه الصورة التى تجردت من الإنسانية .. إن أباه عرف المرض والأرق .. من أجل هذا الابن .. ثم ماذا كانت النتيجة ؟ . هذا اللقاء .. الذى هو أقسى أنواع الجزاء .

ولكن دانيل يقول : على كل حال هذا الأب ليس إلا صورة لأب مات .. مات أبى .. ياليته مات حقيقة ، وعاشت أمى ..

وفى المساء جاء مندوب الوكالة اليهودية وسأل دانيل : هل سيعيشون معك فى بير سبع ؟

– لا أعرف .

– ما هى آخر مرة رأيت فيها أباك ؟

– من ٢١ سنة .

– إذن لا بد أن يذهبوا معك إلى القبوص .

– ممكن .

– كيف سيكون الحديث معهم ؟

– لا أعرف .. أنا أتحدث العبرية فقط .. وهم يتحدثون البولندية فقط .

– لا يهم . معظم الناس هنا مثلك .. هل أنت فى حالة شديدة من الضيق ؟ .

– لا ..

– إذن أنت فى حالة ..

– قرف .

وحولهم النساء يصبغن بالأحمر والأبيض وجوههن ليقتربن من الصور التى أرسلنها إلى أزواجهن وأولادهن .. وقد وقف الرجال وفى أيديهم الصور القديمة والحديثة .. يحاول كل منهم أن يطابق الصورة مع الأصل .

وعندما تلتقى به صديقته ريتا تسأله : كيف كان اللقاء . بكيت ؟

– لا ..

ـ كيف وجدته ؟ ..

ـ كريهاً .. رائحته ورائحة ملابسه .

ـ أنت أيضاً كنت كذلك قبل أن تستمتع بالشمس والهدوء وقبل أن يسهر على خدمتك أناس لا تعرفهم .. لا بد أن رائحة ملابسه سوف تتغير عندما يقيم هنا ..

ـ لقد سألنى عن مطعم ..

ـ وهل تتصور أن يعرف أبوك كل شيء بمجرد وصوله . إننى أتمنى أن يكون هناك ألف مطعم . أنت وحش مفترس .

وسأله أبوه عن صديق له حاخام فى مدينة القدس .. وذهب الأب إلى صديقه الحاخام وبادره الحاخام قائلا : إننا الآن نعمل .. لا بد أن تعمل . لم نعد نعيش على الصدقات ..

ـ ولكنك أخيراً فى مدينة القدس .

ـ القدس ؟ إنها مدينة أضاعت ربها .. إنه مدينة بلا رب .. الحاخام هنا فى صراع ونزاع .. إنهم غارقون فى السياسة .. لقد ضاع الله فى الزحام .. ربما جئنا فى الوقت غير المناسب ولكنه القدر على كل حال .. وأنت هل تصلى ؟ ..

ـ نادراً .. ووحدى ..

والتفت هذا الحاخام إلى دانيل كالنسكى : وأنت هل تصلى :

ـ لا أصلى ..

ـ لم أكن أعرف ذلك .

ونام الأب حاييم كالنسكى فى مستشفى بير السبع .. وأقام الابن فى شقة صديقته ريتا فى الناحية المقابلة للمستشفى .. ولم يشأ أن يذهب لرؤية أبيه .. وترك أباه وذهب فى مهمة .. وتلقى برقية . وجاء ليشهد أباه ميتاً .

وأما وصية الأب فهى أن يدفن فى نفس المزرعة التى يعيش فيها ابنه .. وينقل جثمان الأب إلى هذه المزرعة .. ويقف الابن إلى جوار الحاخام ولا يدرى ما الذى يقوله . ولا يؤمن بما يقال .. ويموت الأب .. الذى مات بالنسبة لابنه قبل ذلك بواحد وعشرين عاماً .

وبطل هذه الرواية هو نموذج للجيل الجديد فى إسرائيل . شبان وضعوا فى قوالب جافة منعزلة .. لحوم طرية تتقلب على رمال الصحراء .. ملابسهم من نمط واحد .. مقاعدهم .. أحذيتهم .. ليس لهم ماض .. لهم حاضر ومستقبل فقط .. لا جدوى من البكاء على الأب الذى مات .. فالدولة هى الأب .. والمزرعة هى الأم .. ومن الممكن أن يقوم بوظيفة الأب أى أب آخر ..

أو بعبارة أخرى : لماذا انقرض الديناصور ؟ انقرض هذا الحيوان لا لأنه كان ضخماً . ولكن لأنه كان يستند إلى ذيله . والإنسان يجب ألا يكون ديناصوراً يستند إلى تاريخه القديم .. يجب أن يتخفف من جسم الديناصور وذيله .. وأن ينطلق إلى الأمام .. لا أن يتراجع إلى الوراء . ولا أن يرتكز على أحجار الماضى ودموع الماضى ..

أما المؤلفة فتفسر هذا الهدوء أو هذه البلادة أو اللامبالاة عند دانيل كالنسكى بأن سببها الاستقرار والاطمئنان .. فهو كثير النوم .. وهو لا يهتم بأى شىء .. ولا يخيفه أى شىء .

ولكنها تعود فتقول أيضاً : إن الموت الذى يخطف زملاءه الواحد بعد الآخر .. والكلمات التى ترددها الفتاة نشاما وهى بين أحضانه قائلة : من الذى عليه الدور غداً .. من الذى لن أراه هنا بعد ذلك .. هذه التساؤلات تفزعه وتجعله يحس أن ألغام المصريين من الممكن أن تنفجر فى أى مكان .. فى أى زميل فى السلاح .

ولكن فى هذه الرواية تتعالى الصيحات الدينية التى تؤكد ضرورة

التمسك بالتوراة .. بالدين .. والقضاء على الإلحاد وعلى اللامبالاة .. ولا بد من الهدف القوى .. والأمل المسيطر . ولا بد من إعادة شرح الديانة اليهودية من جديد .. وعلى رجال الدين أن يتحركوا أسرع .. وأن تكون خطواتهم متمشية مع العصر . وإذا كان الدين قد شد آذان اليهود فى كل بقعة أرض .. فكيف لا يشدهم مرة أخرى وهم على أرض واحدة .

إن هذه الرواية وثيقة هامة لتصوير أعماق الجيل الجديد فى إسرائيل .. جيل اليوم والغد .. ومن الضرورى أن نعرف عدونا .. الذين يحكمون اليوم .. والذين يحكمون غداً ..

من لا يؤمن بالمعجزة .. فليس واقعيا

لا اليهود عمالقة ولا نحن أقزام ..

وإنما هم فقط يعرفون الكثير عنا ، ونحن لا نعرف إلا القليل . ونحن نخلط بين أن نعرفهم وبين أن نعترف بهم .

وليس من الضرورى أن نعترف بهم .. ولكن من الضرورى أن نعرفهم .. والذين لا يعرفون إلا أن اليهود كلاب وحقراء وسفلة وحثالة البشر وطرائد حارات مظلمة في أوروبا ، لا يعرف اليهود .. ولا يريد أن يعرفهم ..

فهم كل هذه الصفات ، وهم صفات أخرى واعية قادرة .. والطبيب الذى يشتم الأمراض لا يعالجها .. والمريض الذى يشتم الأطباء ويرفض العلاج لا يريد أن يكون سليماً .. بل إنه قد اختار الموت مرضاً .. اختار الانتحار ..

ولذلك يجب أن نعرف .. وألا نكف عن المعرفة .. فلا نهاية للمعرفة ..

ثم إن المعركة التى بيننا وبين إسرائيل طويلة .. إنها لن تنتهى بالسرعة التى يحلم بها كل إنسان أصابه التعب النفسي والقلق واستعجال النهاية .. أية نهاية ! !

لأننا لا نريد أية نهاية .. نحن نريد نهاية واحدة هي أن تتحقق لنا الحياة الكريمة على أرضنا .. على أرض العرب كلها ..

ومعرفة إسرائيل ليست شيئاً يهم العسكريين فقط . وإنما يهم العسكريين والمدنيين .. فإذا كان العسكريون يعرفون والمدنيون لا يعرفون .. كانت جبهتنا الداخلية جاهلة .. ونحن لا نحارب العدو بجبهة واحدة .. وإنما نحاربه من كل موقع .. ونحاربه بكل سلاح .. بالمدفع والفأس والقلم .. نحاربه بسلاح المعرفة : معرفة من هو .. وما الذى فى يده .. وما الذى في جيبه وما الذى في معدته .. وما هذا الذى في قلبه .. وما هى أساليب القتال .. وكيف تدرب كل المدنيين والعسكريين وأصبحت لهم هذه اللياقة .. وكيف كان جيش إسرائيل ستين ألفاً فى منتصف مايو الماضى .. ثم أصبح ربع مليون فى يونيو .. كيف يتحول المدنيون إلى عسكريين بهذه السرعة .

هذا حق لكل مدنى ولكل عسكرى .. لأن معركتنا واحدة .. وأرضنا واحدة .. وهدفنا واحد ..

يجب أن نعرف .. ويجب أن نستفيد من المعرفة .. هل تعرف مثلا ما هى هذه الحياة التى يعيشها اليهود فى جميع أنحاء العالم فى المزارع الجماعية .. أو المزارع التعاونية .. ما هذه التجربة .. وما مدى نجاحها ..

قليلون منا يعرفون ..

ومن أجل الذين لا يعرفون انقل هذه التجربة التى قام بها المؤلف الفرنسي جان ــ نويل جورجان في كتاب له صدر أخيراً بعنوان « إسرائيليات ». لقد أقام المؤلف ثلاث سنوات يعمل في هذه المستعمرات الإسرائيلية فى صحراء النقب ..

لم تكن التجربة سهلة .. إنها شاقة . فالصحراء ليس فيها ظل .. إلا

ظلك أنت .. كثير من الرمال والصخور المشتعلة في النهار . وكثير من الخوف نهاراً . وكثير من الحشرات والزواحف المميتة ليلا .. والصمت الرهيب والوجوم والنجوم، ومهما كان المواطن الإسرائيلي متحمساً فهو بشر . يتعب ويبكي ويعض أصابعه ويندم . ويتقلب على الرمال ويتوجع من البرد ولكنه يستمر ويمضي وبإصرار يبقى ، يحرس أغنامه ويطعم كلبه ويحلم ..

وقد أقام المؤلف الفرنسي في مراعي حاكيكار .. وكان عليه أن يتنقل من مدينة سودوم في الشمال وإيلات في الجنوب .. كأنه كوم رمال تدفعه الرياح شمالا وجنوباً .. دون أن تفصح الرياح عن هدفها .. وكان ينتقل من الحرارة الشديدة إلى البرودة المميتة .. تماماً كأنه ترمومتر بين أصابع عفريت ينقله من القطب الشمالي إلى خط الاستواء ألف مرة في اليوم الواحد وكان عليه أن يقود أحد اللوريات .. ويتوقف عند نقط الحراسة .. ويمضي في صمت .. ويتراجع في صمت أيضاً .. فاللغة الوحيدة هي الصمت للجميع .. فهؤلاء الذين يرتادون الصحراء من كل أركان الأرض .. بيض وصفر وسمر .. سويدي وبرازيلي ويمني وبولندي وألماني وأسترالي .. يتكلمون عدة لغات .

والذي يعيش في هذه الصحراء ليس في حاجة إلى قانون .. ولا إلى لوائح .. وإنما القانون الوحيد هو أن ينسجم مع الطبيعة ، أن يتوافق مع الحرارة والبرودة .. والعطش والجوع .. واللوريات والخيام .. مع الضالين والمتهوسين .. الرجعيين والشيوعيين .. ففي إسرائيل كل الألوان .. كل ألوان البشر وأنماط التفكير ..

والجميع يواجهون الضياع .. يعايشونه ويقاومونه .. وعندما يتعبون يستسلمون له .. ثم ينفضونه عنهم كأنه غطاء ثقيل في ليلة حارة !

وفي الصحراء يستطيع كل إنسان أن يجد ما يريده .. الفاشل في الحب ، أمامه ليال طويلة للتوبة والتفكير . . والكافر بالناس في استطاعته ألا يراهم

ما تبقى من عمره . .

والباحث عنده عينات من التاريخ جبال ووديان وأنهار جافة .

والفنان عنده الجبال الزرقاء عند الفجر والغروب ، والحمراء عند الظهيرة .. وعنده الضباب بلا ماء .. وعنده السراب بلا ماء .. وعنده التهاب البشرة واحمرار العيون ..

وبعد أيام من هذه الحياة القاسية يعتاد المواطن الجديد عليها .. ويجب أن يعتاد عليها .. ويجب أن يكون شعاره : أريد أن أعرف كل أزهار الصحراء ، كل مسارب الوديان كل أغانى الرعاة .. كل ما قاله الناس قبلى ومعى وما سوف يقولونه من بعدى ..

وهو يتنقل باللورى من مستعمرة إلى مستعمرة .. ويخرج بطاقته الشخصية .. وعندما يجد إحدى الخيام أو أحد الرعاة يتوقف بسيارته يشرب بعض الماء .. وينام ..

وفى يوم أطلت على الطريق الصحراوى فتاة شقراء .. وأشارت بيدها تطلب إليه أن يتوقف . وتوقف واقتربت الفتاة . إنها كندية تتكلم الإنجليزية بسرعة . وقفزت إلى داخل اللورى وشكرت وجلست ويبدو أنها تريد أن تسكت . كأن ركوبها معه واجب عليه .. ولكن ليس هذا هو شعوره .. فهو مرهق . ويريد أن يكلمه أحد . رجل أو امرأة . وامرأة أفضل وإذا كانت شقراء حلوة شابة ورحلتها طويلة فإن الحديث ينتعش . كأنه شجرة . وتنمو على هذه الشجرة أوراق التاريخ . وزهور الأدب وأشواك النكت .. ثم يجىء الليل يجرد الأشجار والنساء من أوراقها وأشواكها .. وفى مواجهة الضياع يجد الناس أنفسهم فى الأحضان والقبلات .. أما الندم فتبخره الشمس .. والريح تعصف بالبخار .. ويجىء ليل جديد .

وتوقفت السيارة عند جبل حورحاد ذلك الذى مات عنده هارون أخو النبى موسى عليه السلام . وفى هذه المنطقة أنهار صغيرة جافة لا أحد

يعرف متى جفت . ولا من الذى كان يرتوى منها .. ولا كيف حدث ذلك .. فالإنسان فى صحراء النقب يحتاج إلى ١٥ لتراً من الماء يومياً . مع أن المطر الذى ينزل فيها هو ساعة واحدة كل سنة !

وهذه الصحراء تشبه أى إنسان عنيد بل ولا يمكن التحكم فيها . ولذلك يجب ألا يستسلم لها الإنسان وإلا مات ..

وقد يمل القارىء الكلام عن الصحراء لأنه من أبناء الوديان .. أو من أبناء السواحل .. ولكن ليس هذا حال من يعيش فى الصحراء .. ويراها مقفرة موحشة .. ويرى جفافها يتحدى ليونة شفتيه .. ويرى حرارتها ولهيبها فى عروقه ..

أما هذه الفتاة فقد جاءت من كندا لتعيش فى إحدى هذه المستعمرات ولتعرف ما الذى يفعله غيرها من أبناء إسرائيل .. وما هى التحديات الصعبة التى يواجهونها من أجل أن يعيشوا .. وكم من الوقت .. وكم من المال .. وكم من القوى البشرية.. إنها جاءت تعرف وترى وتحكم وتشارك وتحمل وتدعو وتصر .

وأمضت الفتاة ليلة ، ثم ركبت سيارة أخرى .. واختفت .. كظلال هاربة من الشمس .

وفي الطريق إلى إيلات من الجنوب .. وقفت فتاة طويلة حلوة شعرها أسود .. وعيناها كذلك . وانفتح باب اللورى ودخلت الفتاة لتقول إنها من السويد .. وإنها صحفية .. وإنها يجب أن تعيش في إحدى المستعمرات وتكتب عنها .. وهذه المستعمرات ليست إلا قرى صغيرة يعيش فيها أناس يحلمون بمثل أعلى . . إنهم اليهود الذين ضاقوا بالحوارى . . ومن ألفي سنة عاش جماعة من اليهود كانوا يسمون أنفسهم «الأساة» أو الأطهار . .

.. ولم تكن لهؤلاء الأساة حياة اجتماعية .. ولم تكن بينهم النساء ولكن أبناء المستعمرات الجماعية لهم حياة وزوجات وأولاد ومدارس ...

وهذه الصحفية واسمها بريجيت .. تختلف تماماً عن الفتاة الكندية واسمها ليزة .. فهذه السويدية أبسط وأكثر حرصاً على أن ترى وأن تعرف .. وقد جاءت تعرف بنفسها .. فلم يقل لها أحد شيئاً . وعليها أن تجرب أولاً .. وبعد ذلك ستجد من يشرح لها بوضوح كل ما رأت .

وجاء الليل وكان لا بد من تناوب الحراسة .. حراسة اللورى .. وحراسة الحمولة التي فوقه .. أما الفتاة فقد تمددت على الأرض .. تحتها غطاء وفوقها غطاء .. وغالبت النوم .. ونامت .. وكان شعرها الأسود يغطي وجهها . ولا يملك الإنسان إلا أن يتذكر ما جاء في « نشيد الأناشيد » : ها أنت جميلة يا حبيبتي .. ها أنت جميلة .. عيناك حمامتان من تحت نقابك .. شعرك كقطيع ماعز رابض على جبل جلمان .

وفجأة عوى صوت الكلب ..

وصحا كل الذين تمددوا حول اللورى وتحته .. والذين ناموا في إحدى الخيام المجاورة .. وكان في الخيمة بعض الأغنام وتسلل الجميع والسلاح في أيديهم .. ونهضت بريجيت .. الآن ظهرت بوضوح .. طويلة الساقين .. بارزة الصدر .. الشعر أسود على كتفين نصف عاريتين والبنطلون شورت .. والفزع الذى على وجهها فيه شيء من الترف .. إن هذا الفزع مثلها ضيف جديد .. ولكنه ضيف خفيف .. فعلا اختفى الفزع عندما أعطاها أحد الموجودين ذراعه .. واستندت على ذراع متعطشة للمس امرأة .. وانطلق عيار نارى .. لقد كان أحد الثعالب الذى هجم على أحد الخراف فأكل بطنه ..

وأصر أحد الموجودين على أن يمشي إلى ما وراء الثعلب الذى انطلق عليه الرصاص .. وكان في عيني الفتاة بريجيت أن تذهب أيضاً .. ولكنها لا تعرف اللغة العبرية .. والذى يمسك الرصاص لا يعرف الإنجليزية .. ورجل آخر لا يعرف لا العبرية ولا الإنجليزية .. وكان الصمت هو اللغة الوحيدة الجامعة لكل الناس ..

فما الذى يربط بين هؤلاء الناس لا يمكن أن تكون هذه صداقة فلا أحد يعرف أحداً . ولا أحد يتوقع أحداً . ولا ينتظره إذا ذهب .. ولم يكن ينتظره عندما جاء .. وكل ما بينهم هو تاريخ قديم . واتفاق على معنى واحد كيف يتعايشون مع الصحراء ..

وعندما يحاولون أن يتعايشوا ويحسون أن تاريخهم كأنه ذيل طويل يجرجر على الأرض .. وهو أحياناً يشبه ذيل الكانجرو ويجلسون عليه .. وليس الجلوس مريحاً .. !

وهناك عقب كل طلق نارى صمت مخيف .. ثم الذى أقوى من الصمت : الملل .

ثم الذى يجعل الإنسان يريد أن يتكلم بلا توقف . أو يريد أن يسكت إلى الأبد .. فكل صوت هو صدى .. وكل أمل هو سراب .. وكل رغبة هى رمل جاف ..

والأرض الصفراء واسعة .. ففى الشمال وعلى بعد ٩٠ كيلومتراً توجد بير سبع .. وفى الجنوب إيلات .. ذلك الميناء المجنون مثل سائق اللورى . بمبانيها العبيطة مثل السياح الأمريكان .. وعلى الحدود يوجد الأردنيون وقبل الحدود توجد الثعابين والعقارب والناموس والناموس والذباب والذباب . وشىء تمسه ولا تراه : الخوف .أن أحداً لم يعش فى هذه المنطقة منذ أربعة آلاف سنة .. منذ أحرق الله سودوم وعمورة أيام النبي لوط .. ومطلوب من كل إسرائيلى أن يعيش على حسابه .. أو على حساب الدولة .. ولكن يجب أن يعيش ..

وكثيرون من المهاجرين من اليهود رفضوا أن يعيشوا فى المستعمرات وما دام هناك أناس قد اختاروا العمل فى البحر فلماذا لا يختار آخرون العمل فى الصحراء ..

وكان لا بد من وداع بريجيت .. حملت حقائبها . وسوت شعرها

واستعاد وجهها ذلك القلق الذى يغريك بأن تكون أباً ، أو زوجاً .. ويمنعك من أن تكون عاشقاً ..

وكان من الطبيعى أن تجىء القبلات .. وجاءت تماماً مثل قمر طالع فى ليلة باردة .. فلا يسعك إلا أن ترقب من تحت الغطاء ثم تخفى عينيك بعد ذلك ..

ويجىء الليل .. مع الليل تجىء الحواديت والمغامرات .. وهى ضرورية قبل النوم .. بل هى مرحلة من مراحل النوم .. وأصبحت هذه الحواديت ضرورية .. بل عضوية .. إنها تشبه ذراعاً يضعها الناس تحت رؤوسهم لينامو .. وإنها شحم ولحم يتكدس على ظهورهم وسيقانهم ويعزلهم عن الحجارة والظلط على الأرض لينامو .. فالحواديت هى المخدات اليومية التى يتسابق عليها الناس فى مواجهة الملل الصحراوى أو الصحراء المملة ..

والعزلة فى الصحراء لا يمكن أن تكون محتملة إلا إذا كانت نوعاً من الحرية ..

ويمضى الاورى ينتقل بين المستعمرات اليهودية فى الشمال والجنوب .. وفى الطريق يظهر فتيات وفتيان وهم جميعاً من الشبان دون الخامسة والعشرين وليسوا جميعاً من أبناء إسرائيل فكثيرون منهم يهود أوروبا وأمريكا جاؤوا يعرفون ويشاركون .. ويحاولون .. ويغامرون . .

وينهى المؤلف رحلته فى صحراء النقب . وبعد ثلاث سنوات يعود إلى الحياة فى تل أبيب .. ويرى أناساً لم يرهم فى حياته قط .. أناساً من كل مكان فى الدنيا ..

ومن أهم ما جاء فى هذه الرحلة ذلك الإحساس العام بين سكان المستعمرات اليهودية فى أن يعرفوا الصحراء لماذا ؟ لأنهم يجب أن يحاربوا عليها .. لأن إسرائيل لا تحتمل حرباً فى داخلها . فهى أرض ضيقة .. والمناطق المليئة بالسكان عمقها لا يتجاوز ١٥ كيلومتراً .. ولذلك يجب أن يحاربوا فى

الصحراء .. فالصحراء هي الأرض التي تفصل بين إسرائيل ومصر . إذن فمعركتهم معنا . هي المعركة الفاصلة . وهم يحرصون على أن تكون في الصحراء أو لا تكون على أرضهم هم ..

ويجب — وهذا مهم جداً — أن يكونوا على استعداد — أن يكونوا جميعاً .. ولكن الذي يحمل السلاح دائماً هو عدد قليل منهم .. والبقية الباقية يجب أن تعمل في المزارع والمصانع .. وألا يكونوا عبئاً على ميزانية الدولة/وهذه بالضبط خطة الملك سليمان المعروفة التي شعارها : أعطني ألف حصان وسلاحاً ومائة رجل !

وكانت للملك سليمان قلعة في مدينة جنين . وفي هذه القلعة كان يحتفظ بطعام خمسة آلاف جندي . وبها يضع مئات من العربات الحربية وثلاثين حصاناً . وبها مائة جندي .. فإذا أحس الملك سليمان بأن هناك حرباً توشك أن تقع ، طلب من جنوده أن يركبوا الخيول الثلاثين وأن ينطلقوا بها في القرى يدعون الناس إلى القتال .

وهذا هو نفس الأسلوب الذي تستخدمه إسرائيل اليوم عندما تدعو قواتها الاحتياطية إلى القتال ..

.. وكل هذا وأكثر من هذا يجب أن نعرفه .

ونحن لسنا في حاجة إلى مبرر لكي نقول إن المعرفة ضرورية .. ولكننا يجب أن نعاود الشرح والتوضيح والإصرار والتأكيد على كل ما هو ضروري وما هو حيوي .. فقد كاد الناس ينسون — من شدة التعب ، ومن صدمة النكسة .

اننا لم نعد في عصر المعجزات . .
وإنما المعجزات التي تقوم على العلم !

القفص والمفتاح واليهود!

مررت بتجربة غريبة . لقد حبست نفسي في قفص من صنعي ومن اختياري . ومددت يدي خارج القفص أقفل الباب وأنتظر . فأنا السجان وأنا السجين وأنا الذي يبكي على سجني بلا سبب واضح ..

فقد سافرت إلى روما لأشهد المجمع المسكوني الذي يبحث في قضية قديمة جداً وهي أن اليهود كانوا سبباً في تعذيب المسيح وصلبه .. وأنهم لذلك يستحقون اللعنة . وهذه اللعنة موجودة في كل الكتب المقدسة . وجاء بعض رجال الدين يطلبون العفو عن اليهود لأنهم لم يشتركوا جميعاً في تعذيب المسيح . وإذا كان بعضهم قد عذب المسيح فاللعنة يجب ألا يرثها الأبرياء عن المذنبين . وهناك في روما ٢٤٠٠ كاردينال يترافعون في هذه القضية .

هذا هو الموضوع الذي شغلني وشغل العالم كله إلى أن ظهر خروتشيف وبظهور خروتشيف اختفى الفاتيكان وكل هؤلاء المحامين ووضعت على الرف كل حيثيات هذه القضية القديمة .

وقبعت فى القفص الذى صنعته . وبسذاجة تصورت أن الضوضاء التى أحدثها خروتشيف ستتلاشى بعد أيام . ولا يمكن — طبعاً — أن تتلاشى الهزة السياسية التى أحدثها اختفاء خروتشيف بهذه السهولة التى خلقها اهتمامى بموضوع الفاتيكان . فليس خروج خروتشيف من الحكم فى الاتحاد السوفييتى ، مثل خروج أحد القطارات عن الشريط الحديدى ..

ولكن عينى التى لا ترى إلا موضوع الفاتيكان ، لم تنبهر بهذا الوهج الذى هز العالم بسبب ظهور رواد الفضاء الثلاثة . ورواد السياسة الجديدة فى الاتحاد السوفييتى !

والانتخابات فى إنجلترا أتت بحكومة عمال جديدة . وهذا حدث خطير وبأغلبية ضئيلة . ولكن أذنى لا تسمع إلا الأصوات التى تخرج من الألوف باللغة اللاتينية تحت كنيسة القديس بطرس فى روما . وتقول لا .. نعفو عن اليهود .. نعم .. نعم نعفو عن اليهود ..

وأحسست كأننى أحاول بمجهود عنيف جداً أن أستمع إلى صوت خافت فى راديو تتعرض جميع محطاته إلى شوشرة هائلة !

وجاءت أحداث السودان . وأنا أعرف فى السودان أصدقاء من الأدباء والمفكرين . وأمضيت فى الخرطوم ساعات فى طريقى إلى الكونغو . والموجة الشعبية الجديدة فى السودان تستحق الاهتمام والانفعال والتأمل . ولكننى أحسست أن عواطفى مربوطة . وأن اهتماماتى مغلولة ، وأننى مشدود إلى أحد جدران صومعة من صوامع الرهبان فى إيطاليا .. وأتطلع من فتحة فى الحائط إلى السماء منتظراً الحكم على اليهود وإدانتهم ..

وحدثت تطورات فى السعودية .. ذهب ملك وجاء ملك أكثر وعياً ولكنى غارق فى غيبوبة اسمها الانتظار .. أنتظار اليوم الذى تخمد فيه الأحداث ليتوهج موضوع الفاتيكان . كما توهجت نيران موسى فى صحراء سيناء .

وتوقف إطلاق النار فى أرض اليمن . وتعانق أبطالنا فى أرض اليمن وراح كل واحد يحلق لحيته التى طالت ويلقى بنفسه تحت أول حفنة من الماء ليغسل عرقه وتعبه . ويتطلع إلى سلام جديد . وعشت فى اليمن ورأيت سواعدهم أقوى من أسلحتهم ورأيت روحهم أعلى من أعلامهم .. ورأيت أكتافهم عريضة تتسع لبناء مستقبل الشعب العربى فى كل مكان ..

وأطفأت اهتمامى بموضوع الفاتيكان كما يطفىء الإنسان سيجارة أثناء غارة جوية ..

وعندما قرأت أن أربعة أسود قد هربت من السيرك فى مدينة بارى بإيطاليا أحسست أن نفس الشيء سيحدث فى الفاتيكان ، ينتهز الكرادلة من أنصار اليهود هذه الفرصة ليطلقوا سراح عشرة مليون يهودى من قلعة الخطيئة ، من سجن اللعنة الذى ظل مقفلا عليهم عشرين قرناً ..

ولما عرفت أن أهل بارى قد قتلوا اثنين من الأسود وأمسكوا اثنين آخرين أحسست أن هذا بالضبط ما حدث لليهود ، لقد قتل هتلر نصف اليهود وبقى هذا النصف الآخر .. وهذا النصف الآخر يريد أن يتحرر من قضبان اللعنة ولكن العالم مشغول بأحداث أقوى دوياً ، وأكثر خطورة ..

وعندما نشرت أكثر الصحف احتراماً فى اوروبا أن الدب الروسى رفض أن يخاو بدبة انجليزية مع أن الاثنين من فصيلة واحدة ، ابتسمت .. ولكن ابتسامتى ظلت على فمى .. وكان عندى ما أقوله ، ولكن اهتمامى بموضوع وثيقة الكاردينال بيا لم يحول ابتسامتى إلى ضحكة . وحتى عندما قرأت أن المسئولين فى حديقة حيوان موسكو أعلنوا أن الدب الروسى ليس معتدل المزاج اليوم .. ولا هذا الموسم ، لم أضحك .. فأنا مشغول عن هذه النكتة بموضوع اليهود والعالم المسيحى ، والقضايا السياسية العربية.

وعندما انهزم جولد وتر فى أمريكا ، كان لسقوطه فرحة فى العالم المحب للسلام . ولم أستطع أن أتخيل العالم بعد انتصار جولد وتر .. ولا شيء

يدل على أن الإنسانية ما تزال عاقلة ، وأنها لم تفقد رغبتها فى الحياة وحرصها على السلام ، إلا انتخاب جونسون .. أو بعبارة أخرى إلا إسقاطها لهذا المجنون جولد ووتر .

ووضعت خطوط مسرحية من فصل واحد أتخيل فيه موقفاً لهذا المجنون وهو يحكم العالم ، ثم يخلع منظاره الزجاجى ويذيبه فى محلول خاص ثم يشربه ويتحول منظاره الزجاجى إلى خصلة شعر هتلرية تتدلى على جبينه .

وعدلت عن هذه المسرحية وبدأت التطلع إلى هدوء الأحداث والزلازل فى العالم ، لعلى أتمكن من كتابة موضوع كبير عن الوثيقة اليهودية . فعندى كتب ومسرحيات ووثائق واعترافات ، ولكنى كمن يؤذن فى مالطة .. فمالطة بعيدة والذين فيها لا يهمهم الآذان !

فقط عندما رفض سارتر جائزة نوبل فى الأدب ، مددت يدى إلى القفص الذى انحبست فيه ، وفتحت الباب وخرجت لأكتب فى موضوع يهمنى ويشغلنى ويثيرنى وكتبت مرة ومرتين .. وعدت أكمل ترجمتى للفصل الأول من كتاب سارتر عن (نقد العقل الديالكتيكى) . ولما فرغت من هذه الترجمة عدت إلى (قفص اهتمامى) ومددت يدى أسد الباب وأسد عقلى ونفسى عن كل شىء آخر غير الوثيقة .

وكل يوم اتساءل عن أهمية الأحداث وعن آمالى ألا تكون هناك أحداث حتى يبدو موضوع الفاتيكان هاماً .. بل أكثر الأخبار أهمية . فإذا لم تكن هناك أحداث شعرت بالارتياح ، وقلت : الفاتيكان هو الموضوع .. هو موضوع الصفحة الأولى .. هو الطبق الرئيسى على مائدة اليوم .. هو مشكلة اليهود والمسيحيين ، ومشكلة العرب وإسرائيل ..

أما إذا كانت هناك أحداث خطيرة . وانتقل الفاتيكان إلى الظل ، فإننى أطوى نفسى على الوثيقة ، وأتقوقع فى قفصى فى انتظار يوم بلا أحداث .

وأحسست أن سجن اليهود فى قلعة الخطيئة مشكوك فيه . فهناك من

يرى أنهم أخطأوا ، وهناك من يرى أنهم أبرياء . ولكن من المؤكد أنني حبست نفسي في هذا الموضوع ، حبست نفسي في الاهتمام بموضوع واحد وخبر واحد وحدث واحد وأنني أصبحت مصاباً بعمى الألوان لا أرى إلا اللون القرمزى الذى يضعه الكرادلة على أكتافهم وأصبت أيضاً بعمى الأصوات .. فلم يعد يدخل أذنى الا كلمة : يهود .. وأبرياء .. ومجرمون ..

وأن هذا الاهتمام الضيق قد جعل عقلى مثل عين الإبرة لا يدخله إلا خيط واحد .. هذا الخيط الذى يلتف حول أعناق اليهود .

وأنني أقرب إلى « بنات الجرجون » .. أو بنات ليبيا اللائى تحدث عنهن الشاعر أوفيد . فقد وصف الشاعر بنات ليبيا الثلاث بأنهن إذا نظرن إلى شيء تحول هذا الشيء إلى حجر .. أى أن عيونهن تقضى على الحياة كأن أشعة الموت تخرج من عيونهن .. فكل نظرة لهن هى حكم بالإعدام على شيء أو على إنسان .

وأدركت أنني أصبحت إحدى بنات الجرجون .. فكل ما أراه يتحول إلى شيء ميت .. يتحول إلى ذكرى لشيء .. إلى جثة هامدة .. فأنا أشيع الموت والجمود حولي وفي داخلي أيضاً . لأنني لا أرى من العالم المثير المشتعل حولى إلا موضوعاً واحداً . فأنا أريد أن أميت العالم كله من أجل موضوع واحد يشغلني . لذلك قررت أن أحرر نفسي أولا ، وبعد ذلك أفكر فى تحرير اليهود من اللعنة .

وبذلك أنقذ نفسي من أن أتحول إلى جثة .. إلى تمثال .. إلى شاهد على قبر .

براءة من ذهب أو التفسير المادي للوثيقة !

بعد ٢٠ قرناً استأنف اليهود الحكم فى قضية صلب المسيح .

وانعقدت المحكمة وجاء الشهود والمحلفون وترافع المحامون ووكلاء النيابة . ونطق القاضى بالبراءة .. ولكنه لم يشأ أن يوقع بإمضائه على الحكم ..

براءة لليهود فى كل العالم وفى كل العصور ، وإن كان البابا لم يوقع بإمضائه على قرار المجمع المسكونى ...!

عندما قال لى الكاردينال بيا ، صاحب الوثيقة المشهورة ، إن الفاتيكان لا تقف أمامه مشكلة ، لم أتصور أن الفاتيكان بهذه البراعة . وهو تصور ساذج أو ليس له ما يبرره . فتاريخ الفاتيكان أكبر دليل على ذكائه وعلى دهائه الذى لا حدود له . فقد استطاع الفاتيكان أن يتخطى كل المشاكل الدينية والعقبات السياسية والأزمات المالية ، والخلافات الطائفية . وذهبت الحكومات وجاءت واشتعلت الحروب وخمدت . وبقى الفاتيكان كما هو عالياً منيعاً ولا بد أن سذاجتى كانت واضحة أمام كاردينال عنيد مثل

الكاردينال أوغسطوس بيا « ٨٠ سنة » الذى وضع الفاتيكان فى مأزق تاريخى ، وبذلك يتيح للفاتيكان مرة أخرى أن يؤكد براعته فى أن يخرج كالشعرة من العجين .. الشعرة الناعمة كالحرير من العجين التاريخى الدينى السياسى الطائفى .

وعندما كنت فى الفاتيكان ومن حولى عشرات من اليهود يؤكدون أن قرار المجمع المسكونى فى جيوبهم كنت أهز كتفى . وربما كان سبب هز كتفى هو أن المجمع المسكونى (٢٨٠٠ كاردينال) أكبر بكثير جداً من أى جيب يهودى . وقد أصبح من الواضح الآن أن هزة كتفى تشبه تصورى الساذج . وأنها هزه لا معنى لها ، وإنما هى محاولة منى لأن أجعل لها معنى كأننى أعرف ما يدور وراء الجدران العالية للفاتيكان والأبواب المنيعة للبنوك فى أمريكا وإيطاليا ..

وانتهت الدورة الثالثة للمجمع المسكونى . ووافقت الأغلبية على أن اليهود لا يستحقون اللعنة . كان المسيح وأمه وحوارييه كلهم من اليهود . وأن اليهود لا يمكن أن نتهمهم جميعاً بأنهم صلبوه أو قتلوه . فبعض اليهود فقط من أبناء أورشليم شارك فى الصلب . أو أرغم القاضى بلاطس على صلبه . وبعض اليهود يؤكد أنهم لم يعرفوا المسيح . ولو عرفوه لامتنعوا عن صلبه . وبعضهم يؤكد أن اليهود قتلوه . ولكن إذا قتله بعض اليهود ، فاللعنة يجب أن تنزل على رؤوس القتلة فقط . ولا تنزل على رؤوس اليهود فى أورشليم ، وفى العالم كله ، منذ ذلك اليوم حتى الآن.(ملحوظة : على الرغم من أن اليهود يطلبون تبرئتهم جميعاً وفى كل العصور من دم المسيح ، فإنهم حريصون على إدانة الألمان اليوم وغداً بتهمة أن هتلر قتل ملايين اليهود . فلماذا لا يبرئون الألمان من دم اليهود ، لأن الألمان ليسوا جميعاً هتلر ، ولا كانوا كلهم نازيين .)

وقد نجح الفاتيكان فى إرضاء كل الأديان وكل الطوائف ..

فلكى يرضى البابا المسيحيين غير الكاثوليك ، لم يوقع على قرار الأغلبية بتبرئة اليهود . مع ملاحظة أن غير الكاثوليك كانوا مراقبين فى داخل المجمع فقط .

واستطاع الفاتيكان أن يرضى المسلمين . فبعد أن كان خطاب الافتتاح فى الدورة الماضية يصف المسلمين وغير المسيحيين بأنهم وثنيون ، جاءت الوثيقة الجديدة وأكدت الاحترام التام للإسلام الذى يؤمن بأن المسيح نبى وأن أمه عذراء ويؤمن بكل أنبياء بنى إسرائيل . ويقول : لكم دينكم ولى دين . ثم إن الإسلام فيما يتعلق بصلب المسيح يقطع بأن المسيح لم يصلب . والآيات الكريمة تقول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » « .. وما قتلوه يقيناً » « إنى متوفيك ورافعك.. » فالإسلام يرى أن المسيح لم يصلب . فلا جريمة هناك .

واستطاع الفاتيكان أن يرضى الأديان الكبرى مثل البوذية والكونفوشية فقد دعا إلى التعاون معها من أجل خير الإنسانية . ودعا إلى « الحوار الأخوى » ثم إن الفاتيكان سيعقد مؤتمر « الذبيحة المقدسة » هذا الأسبوع فى الهند .

وأهم من هذه كله أن قرار أغلبية المجمع المسكونى يعتبر سارياً . وقد طبعه الكرادلة الكاثوليك فى العام الماضى .

وحجة الأرثوذكس (١٣٠ مليوناً) والكنائس المنفصلة هى أن اليهود قد طلبوا صلب المسيح حتى او أدى ذلك إلى أن تقع عليهم اللعنة إلى الأبد والكاثوليك يردون عليهم بأن المسيحية تدعو إلى التسامح . بولس الرسول نادى بالتسامح . والمسيح نفسه ، وهو على الصليب ، طلب العفو عمن صلبوه .

ولكن الكنائس الشرقية التى انفصلت عنها روما فى القرن الخامس الميلادى لها مشاكل خاصة مع اليهود . وموقف الفاتيكان من اليهود يجعل مهمة هذه الكنائس عسيرة جداً ، فى حالة حرب مع إسرائيل . بينما الفاتيكان يطلب إلى كل المسيحيين — ومنهم الأرثوذكس — أن يهادنوا اليهود وأن يقبلوا

تبرئتهم من دم المسيح .. وهذه الهدنة ليست دينية تماماً ، وإنما هى هدنة ذات دلالة سياسية ، أو هى تحرج الكنائس الشرقية من الناحية السياسية .

والآن لا يسعنى إلا أن أنظر إلى جيوب اليهود التى اتسعت للفاتيكان بمئات الألوف من كنائسه فى العالم كله . !

وإذا كان الكرادلة الأمريكان يصفون موقفهم فى كنيسة القديس بطرس ، حيث انعقد المجمع المسكونى ، بأنه أشبه بكارثة « بيرل هاربور » ، فإنهم الآن يستطيعون أن يطمئنوا إلى أنها ليست كارثة . وإنما هى غارة تجريبية فقط . وانتهت هذه الغارة بانتصار الكرادلة الأمريكان وذلك بأن قدموا هدية غالية جداً ليهود أمريكا ، فى نفس اليوم الذى قتل فيه كنيدى برصاص أحد اليهود !

الوجه الآخر

وأحب الآن – استكمالا لرسم هذه اللوحة المقدسة – أن أقدم لك بعض المعلومات عن أقوى دولة وأغنى دولة فى العالم ، وعليك أن تربط بين قوة هذه الدولة وثرائها وبين البنوك فى أمريكا وإنجلترا التى يسيطر عليها اليهود .

الفاتيكان نسبة إلى تل فاتيكان أحد تلال روما السبعة . والفاتيكان هو مقر البابا . وبه أربعة آلاف غرفة . وبه ممر طوله نصف كيلومتر . وهو مقر الباباوات منذ خمسة قرون . والفاتيكان دولة مستقلة ذات سيادة . ولها سفراء فى كل دولة ، والفاتيكان يملك كل الكنائس والأديرة فى إيطاليا . ويملك مئات الألوف من الأفدنة ويملك شركات النقل المشترك . وله نصف أسهم شركة أليطاليا للطيران . ويملك بنوكاً كبرى فى إيطاليا : البنك التجارى الإيطالى وبنك الروح القدس وبنك روما ولها ١٥٠ فرعاً .

ويوجد للفاتيكان عضو مجلس إدارة فى جميع الشركات العقارية والصناعية

والكيماوية والمطاحن وشركة التأمينات العمومية لتريستا ..

وللفاتيكان مؤسسة اسمها « مؤسسة الأعمال الدينية » وهى خاصة بروؤس أموال رجال الدين فقط . وهى معاملات لا تخضع للدولة الإيطالية ولا ننسى أن أبناء الفاتيكان يتمتعون بالحصانة ولا يخضعون للجمارك ولا للتفتيش الجمركى . وللفاتيكان مؤسسات استهلاكية تبيع كل ما يحتاجه رجال الدين وبأسعار زهيدة جداً .

وأموال الفاتيكان مودعة فى معظم بنوك أمريكا مثل بنوك جوجنهايم وتشيز وفى إنجلترا مودعة فى بنوك هارونر ومورجان وبنك إنجلترا .

وفى سويسرا فى بنك الائتمان السويسرى .

وقد تمكن الكاردينال سليمان الأمريكى أن يودع احتياطى الذهب للفاتيكان فى خزانة الولايات المتحدة الخاصة جداً فى نورث نوكس .

وفى سنة ١٩٤٨ أبرمت اتفاقية بين الفاتيكان وبريطانيا تحولت فيها أموال الفاتيكان إلى سندات على الخزانة البريطانية .

وكان الفاتيكان — فيما مضى جداً من الزمان — يعتمد على الصدقات ومعونات المؤمنين الطيبين ، التى يجمعها القساوسة يوم ٢٩ يونيو من كل عام . ولكن هذه الصدقات لم تعد ذات قيمة اذا قيست بالأعمال التجارية والمالية الضخمة التى يقوم بها الفاتيكان على كل المستويات .

والفاتيكان هو عمود الاقتصاد الإيطالى . ولو سحب الفاتيكان يده من المعاملات الإيطالية لانهارت إيطاليا فوراً . ولذلك فكل الأحزاب تعتمد على رضاه ، حتى الحزب الشيوعى الإيطالى يحسب للفاتيكان ألف حساب ..

أعتقد مليون حساب — وعندما حاول تولياتى أن يعقد زواجاً سعيداً بين الكاثوليكية والشيوعية ، كان يقصد بذلك أن يكسب المزيد من الأنصار لحزبه ولا يزال أتباع تولياتى ، فى داخل الحزب الشيوعى الإيطالى ، يرون

أنه من الممكن أن يكون المواطن شيوعياً ومسيحياً فى نفس الوقت .. وأن هذه ضرورة مرحلية تحتمها الأوضاع في إيطاليا . وأن الأوضاع فى إيطاليا تعتبر فريدة فى نوعها فدولة الفاتيكان وسلطان الفاتيكان وضع فريد فى العالم كله.

والكاردينال سليمان عندما أعلن فى سبتمبر الماضى ، أنه عندما يطلب إلى الفاتيكان ضرورة إصدار قرار بالعفو عن اليهود ، فإنه يحرص على الأموال البابوية المستثمرة فى أمريكا . وإنه يخشى على ثروة الفاتيكان من غضب اليهود فى أمريكا وفى العالم ..

وهذه هى بداية الخيط الحقيقى للتفسير المادى لوثيقة اليهود . فلا هى حزن الفاتيكان على ما أصاب اليهود على يدى هتلر ، ولا هى محاولة للاعتذار عن موقف بيوس الثانى عشر عندما احتل الألمان إيطاليا . وإنما هى الاستمرار فى سياسة البابا يوحنا الثالث والعشرين وأعز أصدقاء اليهود ..

فإذا كانت الكنائس الشرقية المنفصلة قد انزعجت من موقف الفاتيكان لأسباب سياسية ، فهذه فرصة جديدة لكى تضاعف غيظها لأسباب اقتصادية!

لقد ثار الكاثوليك على رجل واحد إيطالى اسمه بابينى منذ عشر سنوات عندما أصدر كتاباً بعنوان « الشيطان » وفى هذا الكتاب قال : إن رحمة الله تتسع للإنسان والشيطان أيضاً . ولا يمكن أن تضيق رحمة الله عن إبليس ومن المؤكد أن الله سيعفو عن إبليس لأنه كان كبير الملائكة ثم أخطأ

واتهمت الكنيسة هذا الرجل بأنه كافر .

فما هو الاسم الذى يطلقه الفاتيكان — اليوم — على من يعفو عن ملايين الشياطين ، ملايين المغتصبين لأرض المسالمين العرب .

لقد اتهم يهوذا بأنه خائن لأنه باع المسيح بمبلغ تافه .. ولا بد أن الدورة الرابعة للمجمع المسكونى القادم ستصدر عفواً عن يهوذا الذى باع المسيح لليهود .. فقد جاء الفاتيكان وباع المسيح مرة أخرى لليهود ، ولكن بثمن باهظ .. بالفلوس وبسخط العرب !

إلا حائط المبكى

فى سنة ١٩٤٨ اتجه يهود اليمن إلى عدن ليركبوا الطائرة التى تقلهم إلى إسرائيل . وكانت هذه أول مرة يخرج فيها هؤلاء اليهود القدامى من حوارى اليهود بمدن اليمن ليطفوا على وجه التاريخ منذ ثلاثين قرناً . وقد حملوا معهم الماء والعشب وأثاث البيت . والكثير جداً من مخطوطات التلمود والتوراة .. وعندما رأو الطائرة رفضوا أن يركبوها . وأتوا لهم بحاخام يشرح لهم أن هذه الطائرة هى التى ورد ذكرها فى التوراة : ويوم يحملونكم على أجنحة النسور إلى أرض الميعاد .

وفرح يهود اليمن .. ولكنهم رفضوا أن يركبوا الطائرة فقد كان اليوم هو يوم السبت . وكل عمل محرم فى هذا اليوم . فناموا تحت الطائرة حتى الصباح وركبوها . ولما ارتفعت فى الجو شعروا ببرودة شديدة فأشعلوا ما معهم من أحطاب ... ولطم الطيار الأمريكى خديه . وأخمدت النيران . وتساقط يهود اليمن على أرض القدس . وقبلوا ترابها . وتمرغوا وبكوا .

ورفضوا أن يتحركوا من المطار. وجاء حاخام يؤكد لهم أن هذه هي أرض الميعاد ولكن المطار ليس هو معبد سليمان . فعاد يهود اليمن يبكون من جديد على أنهم لم يروا معبد سليمان الذي تهدم . والذى يحلم كل يهود العالم ببنائه من جديد .

ولا يوجد أى خلاف بين يهود اليمن ويهود نيويورك فى نظرتهم إلى معبد سليمان الذى لم يبق منه الآن إلا الحائط الغربى المشهور باسم « حائط المبكى » .

وفى الأسبوع الماضى تزوجت يائيل ديان وتزوج أخوها عساف ديان وهما ابنا موشى ديان .. وتحت أقدام الجميع تكسرت زجاجات وأكواب ... لماذا ؟ حتى يتذكر كل عروسين أن معبد سليمان قد تحطم أيضاً . وحتى ينقلا هذا الحادث التاريخى الحزين إلى أبنائهما بعد ذلك .

وكل بيت جديد لأحد اليهود فى أى مكان فى العالم يجب أن يكون فى أحد جوانبه طوبة مكسورة ... أو شرخ صغير فى أى جدار .. حتى لا ينسى اليهود فى أى مكان فى العالم أن معبد سليمان قد تحطم مرتين .

وعندما دخل اليهود يوم الأربعاء ٧ يونيو مدينة القدس القديمة اندفعت دباباتهم وسياراتهم المدرعة إلى المسجد الأقصى .. واعترضتها سيارة عربية فأحرقوها بمن فيها . ثم اتجهوا جميعاً إلى حائط المبكى ... وفعل موشى ديان ما فعلته أنا سنة ١٩٥٥ على مرأى من الدكاترة عزيز صدقى وراشد البراوى وحسين مؤنس .. فقد أمسك موشى ديان ورقة وكتب عليها عبارة ثم لفها على شكل سيجارة وأودعها بين الصخور وفى هذه الورقة تمنى من الله شيئاً .. أما أمنيتى فقد أضحكتنا جميعاً ...

● ● ●

ومعبد سليمان هذا لم يكن بناء ضخماً وإنما كان متوسط الطول والعرض والارتفاع فقد كان طوله حوالى مائة قدم وعرضه حوالى أربعين قدماً

وارتفاعه كذلك،واستغرق بناؤه سبع سنوات ... ويقال إن هذا البناء لم يتم حتى سنة ١٠٠٩ قبل الميلاد. وقد اشتغل فى بناء معبد سليمان عدد كبير جداً من غير اليهود ... والذى صمم هذا المعبد ليس يهودياً. وفى المعبد مكان للعبادة طبعاً .. وفى قلب مكان العبادة يوجد ما يسمى « قدس الأقداس » أى المكان الذى وضعت فيه الوصايا العشر التى نزلت على النبى موسى ولا يحق لأى إنسان أن يرى قدس الأقداس .. وإلا استحق الموت فوراً فيما عدا الحاخام الأكبر ...

وفى يوم ١٤ يوليو ٥٨٦ قبل الميلاد هاجمت القوات البابلية هذا المعبد وحطمته ونهبت ما فيه من ذهب .. وأسروا اليهود وذبحوهم وأحرقوهم وفقأوا عيون قوادهم العسكريين .

وأعيد إصلاح وبناء المعبد بعد ذلك .. وكثيراً ما سقط المعبد والقدس عندما هاجمتها القوات العسكرية .. لأنها كانت تختار يوم السبت .. وهو يوم لا يعمل فيه اليهود ... ولا يحاربون — اليهود القدامى .

وفى يوم ١٤ أبريل سنة ٧٠ ميلادية جاءت القوات الرومانية وحطمت المعبد ونهبت ما فيه من ذهب وأحرقت المخطوطات الدينية. وكان المؤرخ اليهودى يوسيفوس أحد أعوان القائد الرومانى. وكان يتحدث فى ما يشبه الميكرونون يطلب إلى اليهود أن يستسلموا ... وأنه لا داعى للمقاومة وأنه من الخير أن يستسلموا ليبقى المعبد من أن يقاوموا فيتحطموا جميعاً .. ولكنهم استسلموا وتحطموا بالألوف واحترق المعبد تماماً ...

وعلى أرض معبد سليمان أقيم مسجدان : « مسجد الصخرة » المعروف باسم « مسجد عمر »، فى عهد عبد الملك بن مروان . وأقيم « المسجد الأقصى » فى عهد الوليد بن عبد الملك. وبقى حائط المبكى عند طرف من أطراف الحرم الشريف الذى يضم المسجدين معاً .

وكثيراً ما دارت المعارك الدامية فى هذه المنطقة الدينية المقدسة .. وآخر

هذه المعارك الدامية قبل العدوان الثلاثي الجديد كان فى سنة ١٩٢٨ عندما ذهب اليهود إلى حائط المبكى وأقاموا الستائر ونزعوا أحذيتهم وتكدسوا وبكوا . وتحرشوا بالمسلمين وسالت الدماء وتكاثر القتلى . وفى سنة ١٩٢٩ تجددت الحوادث مرة أخرى . وانتهز اليهود فرصة وجود طفل صغير كان يلعب بالكرة فسقطت كرته فى إحدى الحدائق وانطلقت الأعيرة النارية وتساقط اليهود والمسلمون فى الحرم الشريف وأمام حائط المبكى.. لقد قتل ١٦ عربياً و ١٣٣ يهودياً وجرح الألوف .

وأرسلت بريطانيا لجانها البرلمانية للتحقيق وأسفر التحقيق عن أن اليهود قد تكاثروا بصورة مفاجئة وأنه يجب إيقاف الهجرة إلى فلسطين.وقد حاول المليونير الفرنسي روتشيلد أن يشترى حائط المبكى والبيوت التى حوله ولكن المسلمين رفضوا . وكان ذلك أثناء الحرب العالمية الأولى ...

وعاد روتشيلد وغيره من أصحاب الملايين اليهود يحتالون على المسلمين أن يقرضوهم . وان يعدوهم بانشاء مستعمرات زراعية لهم مهما كانت تكاليفها.ورفض المسلمون مهما كان الثمن . ولا يزالون يرفضون ...

وحائط المبكى لا يزيد طوله على ٤٨ قدماً . وقد اكتسح اليهود الأرض التى أمامه ونزعوا كل النباتات الموجودة في المنطقة ... فالديانة اليهودية .. تحرم وجود نبتات بالقرب من الحائط . ثم قسموا حائط المبكى إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول للبكاء ... والقسم الثانى للحفلات الدينية ... والقسم الثالث والأخير لتأملات رجال الدين ...

وبلغ عدد اليهود الذين زاروا حائط المبكى من إسرائيل ومن الخارج أكثر من أربعة ملايين ومفروض أن يدفع كل واحد مبلغاً من المال يتناسب مع مقدرته المالية ومع الفترة التى يقضيها بالقرب من حائط المبكى .. إنها صلاة وتجارة ومساعدة ووحدة دينية شديدة التعصب .

وكل اليهود فى جميع أنحاء العالم يتجهون إلى حائط المبكى .. إنه بقايا

أمجادهم . أيام الملك الشاعر سليمان .. والتوراة تصف سليمان هذا بأنه رجل عربيد وأنه استحق غضب الله وأن معبده لا بد أن ينهار ...

وإذا اختلف اليهود في اللون وفي اللغة وفي الأرض وفي الطبقة فهم أولا وأخيراً يتجهون إلى حائط المبكى وإلى أرض الميعاد . وحائط المبكى يقوم بدور « نشافة » سحرية لامتصاص الدموع والأحزان .. والشعور بالظلم والهوان من ثلاثة آلاف سنة ... ولا بد من وجود نشافة.. لامتصاص دموع الشعوب .. ولكن البراعة هي كيف تختارها ولماذا وأين نضعها ... فإذا لم تكن هناك وحدة في السلام . فلا بد أن تكون هناك وحدة للألم : وقفة أمام حائط واحد تتلاطم على أحجاره الدموع . ونجح اليهود في امتصاص الدموع والفاوس والدماء .

وما فعله اليهود بالنسبة لحائط المبكى فعلوه أيضاً وهم يتسللون إلى أرض فلسطين. إنهم يبكون على حائط واحد حتى يتسللوا إلى المعبد كله بعد ذلك.

واليهود أقاموا أول مستعمرة لهم في أرض فلسطين سنة ١٥٦٣؛ فقد هاجرت أسرة يهودية من إسبانيا .

وجاءت بعد هذه أسرة الزعيم اليهودي موسى مونتفيوري.فأقام مستعمرة للبرتقال بالقرب من مدينة يافا ... واستدرج إليها عدداً كبيراً من يهود أوروبا .

وفي سنة ١٨٦٩ أقام اليهود مدرسة للزراعة ... وجاء يهود المجر وانشأوا مستعمرة « بتاح تكفا » أي « باب الأمل » وجاء يهود روسيا ورومانيا وأقاموا مستعمرة « الرواد » .

ثم جاء الكونت إدموند روتشيلد واشترى عدداً كبيراً من المستعمرات . وساهم في إنشاء المصانع والشركات وأطلق عليه اليهود لقب : أبو المستعمرات اليهودية .

وبعد إقامة اليهود في هذه المستعمرات المنفصلة .. تقدم الزعيم الصهيوني

هرتسل وطلب إلى الحكومة البريطانية أن تعطى اليهود مدينة « العريش » ليقيموا فيها ... فقط العريش وإذا تلطفت وتعطفت منحت اليهود مدينة غزة التي عاش فيها شمشون الجبار . ولكن اليهود أخبروه أن العريش مدينة جافة . وأن أراضيها المزروعة قليلة .

واقترحت بريطانيا أن يقيم اليهود فى أوغندا ولكن يهود فلسطين رفضوا لأن الإقامة فى أوغندا تؤدى إلى تمزيق الشمل اليهودى ..

ووعدتهم بريطانيا بوطن قومى فى فلسطين . وأقاموا فى فلسطين .. واستعدوا لاقتسام فلسطين .. واستولوا على فلسطين وحولوا أهلها إلى لاجئين ... وبعد ذلك احتالوا على الدول الكبرى . واستولوا على كل فلسطين واحتلوا مساحات كبيرة من الأرض العربية . وهم على استعداد لأن يستولوا على العالم العربي كله وابتلاعه اقتصادياً ... ما دامت أمريكا والاستعمار الغربى كله يساند اليهود بالمال والرجال والأفكار ...

فهل يتوقف اليهود عن البكاء بعد هذا كله ؟؟؟

الجواب : طبعاً لا . وألف مرة لا ...

وليس هذا الجواب من عندى .... إنهم اليهود أيضاً الذين يطلبون إلى أنفسهم ألا يكفوا عن البكاء أبداً ... لا لأن المعبد قد انهدم . فليس أسهل من بنائه . ولا لأنهم تعذبوا ألوف السنين ... ثم أصبح لهم شأن . وأصبحوا سلاحاً فى أيدى الاستعمار يدفعون الثمن ويتقاضون المقابل من المساعدة فى التوسع ... ولكن لأن اليهود قد جمعتهم «وحدة الدموع» مهما كانت ألوانهم ولغاتهم وطبقاتهم ... و لا بد أن تبقى هذه الوحدة الروحية والمادية . فكل يهودى فى أى مكان من العالم يجب أن يدفع مبلغاً من المال من أجل الوطن .. فلا وطن لأى يهودى إلا إسرائيل . أما البلد الذى يعيش فيه ويكسب منه فهو وطنه الثانى . أو مكان العمل أو مورد الرزق . أو ستار التجسس... أما إسرائيل فإليها يعود دمه وماله.

وكل يهودى يهاجر من بلد إلى بلد وتساعده الوكالة اليهودية فى السفر والإقامة فعليه أن يدفع لها عشرين فى المائة من دخله السنوى مدى الحياة... وعليه أن يدفع نسبة أخرى من أجل إعادة بناء المعبد ...

ورجال الدين اليهودى يلاحظون أن الأجيال الجديدة لا تبكى بما فيه الكفاية ولذلك يجب أن يضربوا حتى يصلوا ... وأن يضربوا حتى يبكوا ...

وإذا كان حائط المبكى ليس « بصلا » فى عيونهم .... إذن فليبكوا على العذاب الذى سيعانونه قبل أن يظهر المسيح ... فاليهود ينتظرون المسيح الذى سيخلصهم من تعذيب البشرية لهم — فإذا جاء المسيح — الذى ينتظرونه أصبحوا سادة للبشرية . وأصبح من حق كل يهودى ألوف العبيد من المسيحيين والمسلمين ، وبظهور هذا المسيح اليهودى تنتهى مشاكل البشرية ويستريح اليهود وتتعذب كل الشعوب الأخرى . فظهور المسيح بداية السعادة اليهودية وبداية التعاسة الإنسانية — إلى آخر ما جاء فى التلمود .

ومن أهم الحكم التى جاءت فى التلمود : أعطنى شبراً واحداً من الأرض ... وا تركنى وأنا قادر أن أجعله لك ألف شبر .. لا تسلنى كيف .

واليهود ظلوا يبكون على جدار واحد حتى تسللوا إلى كل المعبد..وظلوا يبكون على معبد واحد حتى ابتلعوا القدس والأراضى المقدسة ... وهم الآن يبكون لأنهم لا يعرفون إلى متى يحتفظون بها .

وإذا كانت الدموع تروى عيونهم ... فإن النار تكوى عيوننا ...

العائلة الغنية ... فلوس وقضية ؟؟

الصهيونى هو كل أمريكى يهودى يدفع دولاراً ليهودى انجليزى ليعطيه ليهودى ألمانى لكى به يعيش يهودى بولندى فى فلسطين .

وقد حرص اليهود على تنفيذ هذه القاعدة من عشرات السنين . وألزمت العائلات الغنية أمام رجال الدين بأن يحققوا هذه الأمنية بالحيلة وبالمال . ومن بين العائلات اليهودية الغنية عائلة روتشيلد . وهذه ليست أغنى عائلة فى العالم ولكنها من العائلات الغنية .

وفى العالم العربى عائلات أغنى منها عائلة آل سعود وآل الصباح وآل خليفة .. وغيرها من العائلات التى تملك البترول . وإذا كان البارون روتشيلد قد دفع لإسرائيل مرة مليوناً من الجنيهات فإن العائلات البترولية العربية قد دفعت عشرات الملايين.ولكن آل روتشيلد قد دفعوا قبل ذلك مئات الملايين أيضاً . غير أن أفراد روتشيلد متماسكون وقد أوصاهم أبوهم أن يعتصموا بهذه القاعدة المكتوبة بالذهب فى بيت كل واحد منهم :

ألا يختلفوا وألا يعرف أحد أنهم اختلفوا وألا يقفوا أمام محكمة . وألا يبيع واحد منهم شيئاً يملكه لأجنبي يهودي أو غير يهودي ، وألا يعرف إنسان مقدار ثروتهم ... وأن يتمسكوا حتى الموت بالديانة اليهودية ...

وقد نفذوا هذه الوصية حرفياً وفي أقل من مائة عام أصبحت أسرة روتشيلد تملك ألوف الملايين من الجنيهات في أوروبا وأمريكا . لماذا ؟ لأن بينهم رباطاً له شكل الدين وقوة اليقين .

ونحن نطلب الفائدة من الصديق ومن العدو . وإذا كان الحب أعمى ، فالكراهية كذلك ولهذا يجب أن نتعلم بالعقل أي وعيوننا مفتوحة . فلا نهاية لمجال الرؤية . ولا نهاية للعلم ولا يزال هناك متسع من الوقت لكي نتعلم ... وهناك وقت لكي نمد أيدينا بعضنا إلى بعض من المحيط إلى الخليج ، فما أكثر ما سنواجه من صعوبات . وما أكثر حاجتنا بعضنا إلى بعض. ما أكثر حاجة أصحاب الآبار إلى أصحاب القناة. ما أكثر حاجة كل عربي إلى كل عربي ...

وهذه الصورة لأسرة روتشيلد النموذجية . للإصرار التجاري على النجاح وللإصرار الديني على البقاء وللرعاية القومية لكل يهودي في كل مكان . وقصة هذه الأسرة بدأت من إحدى حارات اليهود في مدينة فرنكفورت الواقعة على نهر الماين.ورأس هذه الأسرة أصلع . إنه رجل متوسط القامة كبير الرأس له عينا صقر وله أصابع حداد قروي يبيع كل شيء وعنده قصص ونوادر عن كل ما يبيعه وخصوصاً العملات الذهبية النادرة وله هدف واحد : أن يصل إلى قصر الأمير ويبيع له، وبعد ذلك يصبح مشهوراً في المدينة وفي ألمانيا بعد ذلك . أما كيف دخل قصر الأمير ؟ فقد دفع الباب ودخل وفي يده دوسيه مكتوب بخط أنيق ويصف تاريخ كل قطعة ذهبية معه . وتنقلت القطع الذهبية بين أصابع الأمير والحاشية وجيوبهم وأمضى الأمير قراراً بأن هذا الرجل اليهودي روتشيلد هو متعهد القصر

وظهر هذا القرار على شكل لافتة محل على دكان اليهودى وأصبح حديث المدينة وامتلأت جيوبه بالذهب وتزوج وأنجب خمسة من الأولاد ، وزعهم بنفسه على القارة الأوروبية مزودين بالنصائح والتجارب : ناثان إلى لندن وهو الذى حصل لليهود على وعد بلفور وسالمون إلى فيينا ... وجيمس إلى باريس ... وكارل إلى روما ... وأمسل إلى برلين ...

ونزل أولاد روتشيلد إلى السوق كما ينزل السمك إلى الماء .. يعرف طريقه وكان الطريق سهلا فكل شيء يصادفه الأبناء قد عرفه الأب قبل ذلك واصدر فيه رأياً مكتوباً .

مثلا : أهم مزايا الزبون أن تعرف عيبه . فالإنسان مغرور بطبعه . ونحن نبيع عادة لأناس عندهم غرور . فابحث عن نقط الضعف .

وناثان هذا كان له جاسوس خاص يتابع جيوش الإنجليز وهم يحاربون نابليون فى معركة واترلو وفى يوم ١٩ يونيو سنة ١٨١٥ بعث الجاسوس برسالة مع زوج من حمام الزاجل . أما الرسالة فهى الصفحة الأولى من جريدة ظهرت فى هولندا والجريدة تعلن أن نابليون قد انهزم ولما قرأ ناثان النبأ ذهب إلى البورصة فى اليوم التالى وباع كل ما عنده من سندات وأوراق باغلى الأسعار ... وهبطت الاسعار. وفى اليوم التالى اشترى كل الأوراق المالية وكسب مائة مليون جنيه،إنها صفقة واحدة . ومن وصايا الأب لأبنائه أن يتمسكوا بكتاب التلمود فهذا الكتاب ليس إلا مذكرات عدد من التجار الكادحين ... حاولوا أن ينجحوا بكل سبيل.فمن النصائح مثلا : إذا اقترض منك شخص غير يهودى مبلغاً من المال ، فلا تطلب منه هذا المبلغ وأنت تعلم أنه قادر على الدفع . فإنه إذا دفع لن يشعر بفضلك عليه . وقد يشعر بأن ربه أحسن من ربك ولكن اذهب إليه وأنت تعلم أنه عاجز،هنا يشعر المدين أنه أقل منك . وأنك صاحب فضل .. وربما يلعن دينه ويلعن الكتاب المقدس فإذا لم يكفر بدينه فهو على الأقل ساخط عليه ... ولا بد أنه يتطلع

إلى رب اليهود بشيء من الإعجاب .

وأكثر آل روتشيلد ارتباطاً بقضية فلسطين البارون الفرنسي إدموند روتشيلد فهو الذى احتضن أكثر من مائة يهودى روسى فى فلسطين أيام الانتداب . وأقام لهم المستعمرات . وعندما أفلست بعض المستعمرات تولى الإنفاق عليها . وهو الذى أقام شركات الكهرباء والملح والفوسفات واشترى لنفسه مستعمرات على حدود سوريا . وأنفق الكثير من المال ... الملايين من الجنيهات .

وفى سنة ١٨٨٩ فوجىء بوفد من رجال الدين يطلبون إليه أن يفصل جميع العمال وأن يترك الأرض بلا حرث ولا زرع ... ولمدة سنة كاملة والسبب هو أن هذه السنة اسمها السنة « السبتية » والسنة السبتية قد تحدث عنها سفر اللاويين وسفر «التثنية » فى التوراة : يحتم على كل يهودى أن يتوقف عن العمل سنة كاملة كل سبع سنوات..وكانت هذه مفاجأة كبرى . وأصر رجال الدين وأصر المليونير واحتكموا إلى حاخام لترانيا . وافتى الحاخام : بيعوا هذه الأرض كلها لأحد المسلمين لمدة ٢٤ ساعة . ثم اشتروها منه فى اليوم التالى . واستمروا فى الحرث والزرع من أجل بنى إسرائيل .

ومن العادات الدينية المعروفة الآن فى إسرائيل أن يبيع كل يهودى ممتلكاته مرة كل سبع سنوات لأحد المسلمين ثم يشتريها فوراً .. بذلك يتفادى أن يتعطل عن العمل سنة كاملة . ووقع الضغط الصهيوني على يهود أوروبا فى نهاية القرن الماضى ،فاليهود يبحثون عن وطن لهم هرباً من الاضطهاد الذى وقع عليهم فى أوروبا الشرقية. وذهب الزعيم الصهيونى هرتزل للمليونير ادموند روتشيلد . قال المليونير : ألا توجد طريقة الآن لكف اليهود عن المطالبة والتسول ... ورد الزعيم الصهيونى : أعطنى مفتاح خزائنك وأنا أطبق يدى وفمى . وتعلم اليهود قانوناً بسيطاً جداً وهو قانون يقول إن الأجسام تسقط على الأرض . انتهى القانون. وهم

تعلموا أن الأيدى إذا ملأناها بالذهب تخضع لقانون الجاذبية فهى تنحنى قليلا وعندما تنحنى الأيدى ، تنحنى وراءها الرؤوس أيضاً .

وذهب هذا البارون إلى القدس . ووقف عند حائط المبكى . وبكى وقرر شيئاً : أن يشترى الحائط وأن يشترى بيوت المسلمين المحيطة به . ووعد بأن يعطى المسلمين مستعمرة كاملة جديدة أنيقة . ورفضوا ... وأحس أن قانون الجاذبية لا يمكن تطبيقه فى هذه المدينة. واتجه البارون روتشيلد إلى أعمال الحفر والتنقيب فى عمل صبور يبحث عن « تابوت العهد » وهو الذي يشتمل على الوصايا العشر التى بقيت من هيكل سليمان ولم يجدها طبعاً . ولما سأله حاييم وايزمان وما الذى ستفعله بها ؟

قال : أمتلكها ... فقط .. الامتلاك متعة. وكان رد وايزمان : غريبة وقال المليونير : غريبة أن يكون الامتلاك متعة عند واحد من آل روتشيلد . إذاً لماذا تريدون أموالنا ... أليست لامتلاك هذه البقعة من الأرض ..؟

ومن وصايا روتشيلد الأكبر لأبنائه وأحفاده : كن أى شىء . ولا تنس أن تكون يهودياً . أنفق أى مبلغ ولا تنس أن تدفع شيئاً ليهودى فقير اختلف مع أى يهودى . ولكن لا تنس أنك ، يهودى أيضاً .

ولم ينس كل يهود العالم أنهم يهود ومهما اختلفت البلاد التى يعيشون فيها فهم فى الدرجة الأولى يهود وهم أمريكان أو إنجليز أو فرنسيون أو ألمان بعد ذلك . وكل يهودى له جنسيتان : الجنسية اليهودية وجنسية البلد الذى يعيش فيه . ولذلك ففى استطاعة إسرائيل أن تأتى بمتطوعين من أمريكا وأوروبا لأن اليهود فى أمريكا وأوروبا . وفى استطاعتها أن تأتى بمرتزقة يعملون بالساعة ويعملون بالشهر . يقومون بمهمة محدودة ويعودون إلى بلادهم بعد ذلك .

واليهود يذكرون دائماً أن موسى عليه السلام على الرغم من أنه نبى ، فإنه كان لا يحسن التعبير . والقرآن الكريم يقول على لسان موسى « واحلل

عقدة من لساني يفقهوا قولى ».أما الحكمة التى يراها اليهود فى ذلك فهى أن كل دين محتاج إلى داعية فصيح وفى نفس الوقت إلى نبى متواضع فلو اقتنع الناس بكلام موسى لظن موسى ولو لحظة أنه هو الذى اقنع الناس ، وليست رسالة السماء. واليهود يرون أنه لا دين بغير دعاية . وأنهم لم يفلحوا فى كل حيلهم إلا بالدعاية وإلا بالمناورة والضغط بالمال والجمال والعرق والدموع ... وكثير من الدموع ...

ومن أحد ذهب إلى إسرائيل إدموند روتشيلد -مفيد البارون إدموند روتشيلد وتبرع بمليون جنيه ... ولكنه راح يضغط على أصحاب الملايين من اليهود وغير اليهود فى أوروبا ليتبرعوا لإسرائيل . وجمع مئات الملايين من الجنيهات وكان من شعارات اليهود فى أمريكا: ادفع دولاراً تقتل لك عربياً ... أما شعارهم العجيب الغريب الذى نشرته « جويش أوبزرفر » فى عددها الأخير « إدفع دولاراً من أجل اللاجئين العرب ؟؟؟ »

ومن المعروف أن كل يهودى فى أى مكان يجب أن يدفع لإسرائيل بالأمر مرتب شهر أو مكافأة سنة... ولكنه لا بد أن يدفع . أما أصحاب الملايين فهم يدفعون بالملايين أيضاً . وبذلك تستطيع إسرائيل أن تبنى وتزرع أو تتسلح . وأن يستمروا فى إقناع العالم كله بأنهم ضعفاء مساكين أقلية مسحوقة فى العالم العربى وعندهم أجهزة الدعاية والصحافة فى أمريكا . وهى التى تقوم بدور هارون أخى موسى عليه السلام فى نشر الدعوة إلى إنقاذ اليهود من أنياب العرب .

ومن النصائح الذهبية التى جاءت من التلمود أيضاً والتى أوحى بها روتشيلد الأكبر : إذا كان جارك تاجراً مسيحياً ، يجب أن تقفل دكانك قبل أعياد هذا المسيحى بثلاثة أيام وبعدها بثلاثة أيام أيضاً . لأنه قد يحتاج إلى سلفة قبل العيد أو يحتاج إلى سلفة فى أيام العيد ومن الأسلم ألا تراه فى هذه الستة الأيام .

وقد تحايل اليهود على هذه القاعدة فهم لا يضعون الفلوس فى جيوبهم في أيام أعياد المسلمين والمسيحيين . وأعلنت إحدى المجلات الفرنسية عن طلب المساعدة لليهود فى إسرائيل فقالت : أسرع من الطائرات الميج المصرية يجب أن تصلنا مساعدتك المالية . لا نريد كلمات .. تعبنا..لا نريد دموعاً.. مللنا .. أعطنا اليوم وحاسبنا غداً .

● ● ●

ونحن ما الذى نعمله ؟ فى استطاعتنا أن نفعل الكثير . فعندنا قضية حياة أو موت : لكل العرب . قضية البترول والقناة والشعوب العربية . وعندنا ثروات وعائلات . وفى استطاعتنا أن نتقارب أكثر وأن نتماسك أشد . ويجب ألا نفقد الأمل . فالأمل ماء الحياة وهواؤها . ويجب أن نلقى عدونا متماسكين لا متفرقين .

ويجب أن نغير من قوانين الهجرة والعمل فى الخارج : يجب أن تكون لنا جاليات عربية فى كل مكان . إن وجود مليون عربى فى الخارج يساوى بترول الخليج . إن المليون عربى هم ثروة مالية وقوة دعائية. ونحن فى حاجة إلى الثروة والقوة والوعى . ولكن وجود العرب فى الخارج مرتبط بقضايا العرب الآن . وقضايا العرب سوف تبقى وقتاً طويلاً . ولكن مهما طال الوقت فمع الصبر والإصرار والوعي لا يكون طويلاً جداً . إننا صبرنا وانتصرنا . وفى استطاعتنا أن نصبر وأن ننتصر أيضاً . إن الذين غزوا هذه المنطقة العربية لا عدد لهم ... والذين طمعوا فينا كثيرون والذين احتلونا كثيرون . فأين ذهبوا ؟ ومن الذى بقى ومن الذى يبقى؟إنه نحن الذين سنبقى.لأن عندنا إرادة البقاء . وكما ذهب الغزاة ، ستذهب قوى إسرائيل عن أرضنا . لا بد أن تذهب. ولكن نحن فى حاجة إلى وقت وإلى مساندة من كل عائلة عربية ، غنية أو ذات قضية .

ويجب أن نتضافر فى وجه العدو المتحد ضدنا . إن العدو نفسه ممزق :

من كل بلد ومن كل جنس ومن كل لغة . ولكن الشيء الوحيد الذى أذابهم هو : حب البقاء فى وجه الخطر العربى ،ونحن يجب أن نتحد ضد الخطر الصهيونى . ويجب ألا ننسى أنه تحقق لنا الكثير وأننا ما نزال قوة وقاعدة وطليعة.هذه الحقيقة ، ولا نزال حقيقة،وفى استطاعتنا أن نبقى أكثر واقعية مما كنا وأكثر وزناً للأمور مما كنا ولا خوف علينا الآن إلا من التسرع .

ويجب أن نترفق بأنفسنا وأن نخف من الشعور بالذنب ومن الندم . فلسنا أول دولة فى العالم تخسر جولتها الأولى . فقد خسرت المانيا واليابان وخسرت بريطانيا وفرنسا وكل الدول الأوروبية خسرت وانكسرت وقامت . وألمانيا الغربية ما تزال محتلة واليابان ما تزال محتلة ... وهى التى حطمت كل القارة الأوروبية واليابان اكتسحت آسيا ... ولكنها لم تمت . إنها انتعشت وتحولت كل منها إلى دولة غنية ...

فكم ضربنا وانضربنا ، وانتصرنا وانكسرنا ... والحياة معركة طويلة ... والبقاء أقوى والقوة ، وهى : قوة العلم وقوة الاحتمال ...

سارتر... والمسألة اليهودية..؟

ليس من الضرورى أن نصدق هذه العبارة التى جاءت فى « التلمود » اليهودى : أن فلسطين قلب العالم . والقدس قلب فلسطين . والمعبد قلب القدس. وقدس الأقداس قلب المعبد .. وتابوت العهد قلب قدس الأقداس ... وفى قلب التابوت قطعة من الحجر هى أصل هذه الدنيا وأننا يجب أن نستردها وأن نبنى عليها عرشنا .

وليس من الضرورى أن نكذب هذه العبارة التى قالها سارتر من عشرين سنة فى كتاب له بعنوان « تأملات فى المسألة اليهودية »: لا حرية لأى فرنسى ما دام اليهود لا يتمتعون بحقوقهم كاملة ... ولا طمأنينة لأى فرنسى ،لا فى فرنسا وحدها وإنما فى العالم كله،ما دام اليهود يعيشون فى خوف ...

ولا من الضرورى أن نحترم ما يقوله سارتر فى نفس الكتاب عندما يصف كل عدو لليهود بقوله : إنه إنسان خائف من نفسه . من ضميره . من حريته . من غرائزه . من مسئولياته . من عزلته .. من المجتمع . من العالم .

إنه جبان ولا يريد أن يعترف بأنه جبان . إنه قاتل يكتم نزواته الإجرامية . إنه يريد أن يقتل فى الظلام ..

ولا يهمنا أبداً أن نفكر معه وهو يتساءل من عشرين سنة : كيف نكسب قضية بنى إسرائيل ؟ فى استطاعتنا أن نكسب نصف هذه القضية إذا تمكن أصدقاء بنى إسرائيل من أن .. يستعيروا الحماسة والإصرار والعناد الذى يتمتع به أعداء اليهود .

● ● ●

وسارتر فيلسوف حر . وفيلسوف للحرية . وهو فرنسى أوروبى ألمانى الأصل وعنده عشرات الأسباب التى تجعله يعطف على اليهود . وعلى إسرائيل . ونحن لا نريد أن نكرهه على أن يغير رأيه . ولكن يكفى أن نعرف ذلك .

وقد أصدر سارتر عدداً ممتازاً من مجلة « العصور الحديثة » التى يرئس تحريرها وموضوعه « النزاع الإسرائيلى العربى » فى حوالى ٩٩٠ صفحة . وفيه مقالات من العالم العربى ومقالات من إسرائيل . والمقالات متظاهرة أى وضعت ظهراً لظهر . فالعرب لا يعرفون ما كتب اليهود . واليهود لا يعرفون ما كتب العرب . وهذا نموذج للحياد والعمل الطيب (والإنسان الطيب هو الذى لا تعرف يمينه ما قدمت يساره) وعلامات التعجب هذه لا بد منها فقد كانت هذه الفكرة العادلة مادة للهمز واللمز فى المقدمة الأخرى التى كتبها مدير تحرير المجلة كلود لانزمان ... فهو يرى أن العرب لم يتفقوا فيما بينهم على موضوعات هذه المقالات ولذلك كان لا بد من ترتيبها حسب البلاد . والعرب لم يكونوا ديمقراطيين كاليهود . وهذا واضح عندما عرفوا أن جزائرياً اسمه رزق عبد القادر أراد أن يكتب مقالاً يطالب فيه بالصلح مع إسرائيل . فرفض العرب أن يكتبوا نهائياً . فقيل لهم : إذن ننشر مقاله بعيداً عنكم وفى نفس العدد . فرفضوا أن يكون لأي إنسان آخر عربى رأى خاص ويقول لانزمان : أما اليهود فقد كان لكل واحد رأى خاص . يعبر

عن وجهة نظره هو تماماً كأى أوروبىديموقراطى ؟

وجاءت مقالات العرب ١٧ ومقالات إسرائيل ٢٥ . ومن بين الإسرائيليين أربعة من العرب الذين يعيشون فى إسرائيل ويؤيدون الوجود الإسرائيلى؛ ويقول لانزمان : فإذا نحن أضفنا هؤلاء العرب الإسرائيليين إلى العرب الآخرين أصبحت لدينا معادلة رائعة ٢١ مقالاً ، إسرائيلياً و ٢١ مقالاً عربياً . وبذلك تحقق لدينا ما يسميه سارتر بالهندسة العاطفية . أو عاطفية الهندسة .

ولكى تتحقق هذه الهندسة العاطفية نشرت المجلة مقالاً لكاتب فرنسى يهودى يؤيد العرب ونشرت مقالاً آخر لكاتب فرنسى يهودي يؤيد الإسرائيليين ثم مقالاً لواحد من الدروز مؤيداً ، ومعارضاً .

ولكى تبلغ « الهندسة العاطفية » أقصى درجاتها نشرت المجلة خطاباً « للحبيب بورقيبه » كان قد ألقاه فى أريحا بالأردن بتاريخ ٣ مارس سنة ١٩٦٥ ونشرت المجلة أيضاً توضيحاً لحديث الحبيب بورقيبه نشرته مجلة « نوفيل أوبسر فاتور » بتاريخ ١٥ أبريل سنة ١٩٦٥. وهذا الكاتب كلود لانزمان قد جاء إلى القاهرة مع سارتر وسيمون دى بوفوار ... ونحن نعرف أنه يهودى وصهيونى . ونعرف أن سيمون هى عشيقة سارتر . ونعرف أيضاً أنها كانت عشيقة لأديب أمريكى . ونعرف أنها كانت عشيقة لانزمان هذا أيضاً . ولا يهم أبداً أن نرى فى هذا عيباً . ولكن المهم أن سارتر حر فى علاقاته الحرة . ونعرف أيضاً كل كبيرة وصغيرة عن سارتر . وأننا قرأنا له كل حرف كتبه . وأنه لم يضف إلى معلوماتنا شيئاً جديداً ونعرف أيضاً أن له فتاة إسرائيلية قد تبناها ونشرت الصحف المصرية جميعها صورة هذه الفتاة التى ترك لها كل ثروته وكل كتبه — وقد قال لى ألبرتو مورافيا ونحن فى كوبا إن هذه الفتاة التى تبناها سارتر هى عشيقته أيضاً — ومع ذلك فهو حر فى أن يعشق من يريد من الرجال ومن النساء ...

ونحن نعرف أن سارتر له رأى فى اليهود .. وأنه فى رواياته ومسرحياته

يعطف على اليهود والمومسات . وأن الشخصية المصرية الوحيدة التى جاءت فى مؤلفاته هى شخصية شاب ثرى خطف زوجة بطل رواياته وهرب بها إلى القاهرة .. فشكراً ...

وسارتر له تاريخه الفرنسى الأوروبى فأجداده قد عذبوا اليهود وأحرقوهم . لأسباب دينية ولأسباب أخلاقية أحرقوهم إبان الحروب الصليبية .. وجاء لويس التاسع وطردهم . وأجداد سارتر من الألمان قد أحرقوا اليهود قبل هتلر بمئات السنين . ولا شك أن ضمير سارتر ما يزال يوجعه لما حدث لليهود فى سنة ١٩٤٢ عندما أخرج اليهود جميعاً من باريس . ولا يزال ، اليهود يحاولون أن يؤكدوا أن ديجول مسئول عن طرد اليهود أيام الاحتلال النازي . وقد ظهر كتاب أخيراً بعنوان « المطاردة الكبرى » من تأليف كلود ليفى يقول إن أحد رجال ديجول كان مسئولاً عن طرد اليهود . وإن اثنين من رجال ديجول ايضاً قد وقفا فى بلكونة السفارة الإسرائيلية عندما جاءت جماهير الشعب الفرنسى تهتف باسم إسرائيل فى الشهر الماضى.وهذا الكتاب يحاول أن يضغط على ديجول لعله يكفر عن موقفه هذا فيساند اليهود . ولكن ديجول لم يفعل مؤكداً بذلك أنه أعقل رجل فى فرنسا وأنه آخر الرجال العقلاء فى أوروبا .

وإذا جاء سارتر إلى القاهرة وذهب إلى قطاع غزة ورأى وسمع ومع ذلك لم يغير رأيه فهو حر أيضاً . وليس من الضرورى أن يغير رأيه . بل إن سارتر عندما كان فى غزة قد تمسك برأيه أكثر وأكثر ،والصحفيون المصريون الذين رافقوا سارتر عادوا ليقولوا لنا إن سارتر نظر إلى خواتم اللاجئين فوجدها من الذهب الخالص ولاحظ أن بعضهم كانت له أكراش ضخمة ولاحظ سارتر أن بيوت اللاجئين كانت مصنوعة من الحجارة . وأن لها أسواراً من الحديد ... واستنتج سارتر أن اللاجئين قد قرروا البقاء . وأنهم لم يستعدوا لأية معركة . ولاحظ سارتر أيضاً أن فى الأسواق سلعاً ألمانية

وسلعاً أمريكية. وقال إن أمريكا هنا كما أن أمريكا فى إسرائيل أيضاً.

وعندما ذهب سارتر إلى الإسكندرية جاءت على لسانه هذه العبارة: إننى لا أستطيع أن أكون محايداً أمام قضية اللاجئين لقد كنت غائباً فقط.

وهذه العبارة قالها سارتر بشكل أوضح فى مقدمة العدد الممتاز من مجلة «العصور الحديثة».

فقد قال إنه بعد أن زار قطاع غزة ورأى الأطفال الجياع وآباءهم الجياع أيضاً؟؟ وبعد أن رأى إسرائيل وأطفالها الأصحاء ونظراتهم القلقة فإنه لا يستطيع أن يقف على الحياد، فالحياد هنا معناه اللامبالاة السلبية. وهو ليس سلبياً... وكل ما يستطيع أن يقوله هو أنه كان غائباً عن هذا الموقف. وهو يحاول الآن أن يكون حاضراً وان يستحضر كل شيء ليبدى رأيه وسوف يبديه فى الشتاء القادم.

ولما حضر سارتر إلى مصر ظل غائباً أيضاً... وعندما غاب عن إسرائيل كان حاضراً فيها أيضاً لأنه لم ير ما رأى ولم يسمع ما سمع... وإنما ظل على موقفه من عشرين عاماً: فرنسياً ألمانى الأصل أوروبياً. يعرف الكثير جداً عن قضية اللاجئين وهو فى ذلك مثل كل الأوروبيين، والعيب طبعاً ليس فيه. ولكن العيب فينا. العيب فى قدراتنا المحدودة على نشر هذه القضية وعلى تقديمها فى إطار موضوعى واقعى..

وتحول سارتر إلى مواطن أوروبى عادى ليست لديه أية معلومات. وعندما تتاح له الفرصة لكى يعرف فإنه لا يريد أن يعرف، وإذا أتيحت له الفرصة أن يأكل العيش والملح مع العرب فإنه يتظاهر بأنه لا يعرف معنى خيانة العيش والملح... فى حين أن غيره من السياح الأجانب يعرفون أن الذى يخون العيش والملح يصاب فى إحدى عينيه أو فى العينين معاً..

ومعنى ذلك أن سارتر لم يعد كسباً كبيراً ولا هو خسارة كبيرة فقد حذفنا من حسابنا واحداً أضيف إلى ملايين الأوروبيين والأمريكان الذين

يعطفون على مليونين من اليهود يجلسون على أكتاف ٥٠٠ مليون أمريكي وأوروبى .

● ● ●

ولم تكن مفاجأة أن يصدر سارتر وعشيقته المصون بياناً لتأييد كل مطالب إسرائيل .. ويجب أن نتساءل الآن وبعد الآن بوضوح وهدوء: هل نحن ضد اليهود؟ هل نحن ضد اسرائيل هل نحن ضد الساميين ؟

وهى أسئلة عادية . ولكن طرحها يدل على أن فيها شيئاً جديداً . وأنها توهم بأن هناك شيئاً جديداً.والحقيقة أنه يجب أن يكون هناك شيء جديد .. وأول هذه الأشياء الجديدة أننا نطرح هذه الأسئلة فى مواجهة رجل فيلسوف قد خذلنا . فى حين أنه هو لا يعتقد لحظة واحدة أنه خذل أحداً لأنه لم يعد بشيء وأنه ليس من الضرورى أن يؤيد وجهة نظرنا لمجرد أننا توقعنا منه ذلك . أو لمجرد أنه ابتسم . أو لمجرد أننا أطعمناه وأكرمناه ... فهو لم يخذل أحداً وإنما نحن الذين تطوعنا بخذلان أنفسنا أمامه ...

ونحن أيضاً نطرح هذه الأسئلة فى مواجهة النكسة التى أصابتنا . ويجب أن نقول إن إسرائيل لم تهزم شعباً فالشعوب لا تهزمها معركة — وقد ضرب الألمان فى الحرب الأخيرة كل الدول الأوروبية من السويد والنرويج حتى اليونان ومن فرنسا حتى الاتحاد السوفيتى الذى قتلوا منه عشرين مليون نسمة .

ولكن الألمان لم يهزموا شعوباً . وحتى الحلفاء عندما هزموا الألمان لم يحطموا شعباً فإسرائيل لم تحطم شعباً عربياً وإنما هى هزمت أسلوباً فى الفهم والتفاهم بين العرب وبين العرب واليهود .

وإسرائيل قد كشفت بوضوح عيوباً جوهرية عندنا : العلم والمعلومات ، وكشفت إسرائيل بمساعدة أمريكا : مدى الجدية فى أفكارنا .

وإسرائيل أيضاً انكشفت أمامنا. فنحن لم نعرف بالضبط شكل المساعدة الأمريكية لها وقد عرفنا وأصدقاؤنا السوفيت قد عرفوا . ولم نكن نعرف

الخلافات السياسية والدينية فى إسرائيل والآن قد عرفنا . ولم نكن نعرف بالضبط ما الذي يفعله اليهود عندما ينتصرون . ولم نكن نعرف مدى تمسك اليهود بتعاليم « التلمود » والآن عرفنا . فالتلمود ينصحهم بقتل غير اليهود . وأن القتل ليس حراماً.وينصحهم بالنهب والسلب وان هذا ليس حراماً.والنقوش الموجودة فى مصر فى « تل العمرنة » تصف اليهود عندما دخلوا مصر ماذا نهبوا وكيف نهبوا يوسف عليه السلام وقد دخل مصر سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد وموسى عليه السلام خرج منها سنة ١٥٥٠ قبل الميلاد .

والتلمود طلب إليهم أن يصنعوا فطيراً من دماء غير اليهود،ولا بد أنهم أكلوا هذا الفطير عندما دخل ربع مليون يهودى يتمسحون فى « حائط المبكى » ولا بد أن هذا الفطير مصنوع من دماء غير اليهود .

وأهل دمشق لا ينسون ما حدث سنة ١٨٤٠ عندما ذبح اليهود أحد القساوسة ومصوا دمه واعترف اليهود بذلك أمام القنصل الفرنسي واعترفوا بأنهم مصوا دماء عشرات من الأطفال الأبرياء . ونحن لم نكن نتصور ذلك ولكنه حدث .

فليست معركة هلال وصليب ... وإنما هى معركة نجمة داود دائماً .

فأمام هذه الأهوال نتساءل : هل نحن ضد الساميين ؟؟

وهذا السؤال يوجهه الأوروبيون لأنفسهم . فالأوروبيون ليسوا ساميين . واليهود ساميون وأعداء السامية هم أعداء اليهود .

ونحن لا ينطبق علينا هذا السؤال : فنحن أيضاً ساميون . فنحن لسنا ضد العنصر السامى بل أن اليهود يمكن أن يوصفوا أيضاً بأنهم أعداء للساميين ... أى أعداء للعرب .

فهذا التعبير لا معنى له عندنا.فهل نحن أعداء اليهود ؟ أى أعداء للديانة اليهودية؟والجواب : أننا لسنا ضد الدين اليهودى . مع أننا نعلم أن اليهودية الآن ليست ديناً وإنما هى أسلوب فى التعامل بين اليهود وأعداء اليهود،مسلمين

ومسيحيين ولا دينيين . واليهود هم أكثر الناس تعصباً فى العالم كله . واليهودية ليست ديناً فقط ... إنها قومية ... إنها وطن .

فأى يهودى فى أى مكان من العالم يحرص على أن يظل يهودياً مرتبطاً بكل اليهود الآخرين. ففى أمريكا نجد أن اليهودى لديه الجنسية الأمريكية ولكن جنسيته الحقيقية هى أنه يهودى ... وفى الاتحاد السوفيتى يوجد ثلاثة ملايين من اليهود وقد سألهم أخيراً إيلى فيسيلى مؤلف كتاب « يهود الصمت » عن جنسياتهم فقالوا : نحن يهود. ولذلك فأى يهودى على استعداد لأن يخون ويحطم البلد الذى يعيش فيه من أجل دينه ... من أجل يهوديته .. من أجل إسرائيل .

ولم يحدث أن شعر اليهود بالتسامح والسعادة كما حدث لهم فى ظل العالم العربى أو فى ظل الإسلام . يشهد بذلك فلاسفتهم والمعرفون : فيلون الإسكندرانى وموسى بن ميمون وابن جابيرول وسعديا وغيرهم ... ولذلك فكل المذابح التى يرتكبها اليهود ضد العرب انتقام لا يستحقونه وإنما هم ينتقمون من الأوربيين فى أجساد العرب . ثم إن أعداء اليهود ليسوا من العرب فقط ... فهناك شعوب أخرى فى آسيا وأفريقا وأوروبا وأمريكا ... والملايين منهم ضد اليهود .

فهل نحن ضد إسرائيل ؟

نعم .... إسرائيل صنعتها الصهيونية التى أعلنها الزعيم هرتزل قبل قيام إسرائيل بخمسين عاماً بالضبط ... فإسرائيل هى قاعدة الاستعمار الأمريكى... قاعدة تنطلق منها الطائرات والمؤامرات لتأديب غير اليهود ولتحطيم الشعوب المتحررة ...

وإسرائيل ليست هى مجرد الاسم فقط . ولكنها مجموعة من المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ... وهى متداخلة ومعقدة . ونحن فى مواجهتها فى حاجة إلى كثير من الهدوء والعقل .

ويجب أن يكون عندنا وقت .. فليست هذه القضية المعقدة جداً . المتعددة الأطراف مما يمكن حله في ساعة أو في يوم .. إنها تحتاج إلى وقت، فالأرض التي نعيش عليها أطول عمراً منا . والشعوب أطول عمراً من الأفراد ... وأعمارنا قصيرة ... ولكن الزمن طويل .

ولا شك في أن هذا العدد الممتاز من مجلة « العصور الحديثة » الذي يضم مقالات لكتاب من العرب هم خالد محيي الدين وأحمد بهاء الدين ولطفي الخولي وعلي السمان ولطف الله سليمان والدجاني ومجدلاني والكيالي وغيرهم، وعدد من الباحثين اليهود يستحق الدراسة والاهتمام .. ومن المؤكد أن موقف سارتر طبيعي جداً ... فهو لم يستطع أن يتخلص من فلسفته المؤيدة لليهود ولإسرائيل تحت تأثير أية عاطفة .. عابرة .. أو مجاملة سياحية .. ويدل أيضاً على أننا عاطفيون .. فقد تصورنا بحسن نية أنه يمكن تغيير فلسفة رجل لمجرد تغيير الهواء الذي يتنفس فيه .

إن مرحلة من التفكير المنطقي يجب أن تبدأ وأن نعمل جميعاً على مواجهة أنفسنا وغيرنا بصراحة وشجاعة وصدق . كلنا وطنيون ... وكلنا نريد أن نوقف ما وقع ... وأن نصلح ما فسد وأن نفيق من الصدمة ... بشرط ألا ننساها .. فنسيانها جريمة .. جريمة في حق الشعب والشعوب العربية .. ونسيانها محاولة لعدم الاستفادة منها ... والتاريخ دروس وأبقى هذه الدروس أكثرها مرارة ... وهذه النكسة هي المرارة نفسها ...

هذا الكتاب الممنوع

في مقدمة هذا الكتاب الضخم يروى المؤلف هذه النكتة : إن الكاتب الساخر برنارد شو بعث إلى تشرشل بتذكرتين لحضور إحدى مسرحياته ، ومع التذكرتين هذه الكلمات : إحدى التذكرتين لك . والأخرى لأحد أصدقائك — إن كان لك أصدقاء .

والمؤلف يحمد الله أن له أصدقاء كثيرين طيبين . مؤمنين بما يقوله .

وهذا الكلام الكثير عن الصداقة والأصدقاء في المقدمة وبعدها ، يجعلك تحس أن المؤلف يعرض عليك قضيته وليست قضية البشرية كلها في مواجهة يهود العالم .. والحقيقة أن الرجل يعرض القضيتين في وقت واحد .. فهو بسبب موقفه من المؤامرة اليهودية على العالم ، وجد نفسه وحيداً معزولاً منبوذاً . لا يستطيع أن ينشر مقالاً ولا تعليقاً في أية صحيفة سويسرية ضد اليهود . لأن اليهود في سويسرا — وهذه هي قضية الكتاب — قد سيطروا على البنوك والشركات والصحف والمطابع وشركات التوزيع والنشر . ولذلك

نلاحظ أن المؤلف قد كتب على غلاف الكتاب : المؤلف هو الناشر الوحيد ، أي لا بد من الاتصال بالمؤلف شخصياً لكي تحصل على نسخة من هذا الكتاب .

أما « غلطة » هذا الرجل فهي أنه أراد أن يصارح أبناء وطنه السويسريين بحقيقة الأوضاع : بأن اليهود قد تسللوا إلى كل شيء . وأن سويسرا ليست حرة . وأن دستورها ملحد . لأنه دستور بلا رب .. فالدستور مستوحى من الثورة الفرنسية التي اعترف اليهود أنهم صانعوها وأنهم كتبوا بدماء الفرنسيين حروفها الأولى — وقد جاء ذلك في الخطة السرية المعروفة باسم « بروتوكولات حكماء صهيون » التي ترجمت خمس مرات إلى اللغة العربية .

هناك — إذن — مؤامرة من الصحف حول هذا الكاتب السويسري د. ماتيز وحول كتابه الضخم « ماضي وحاضر المسألة اليهودية » في حوالي ٨٠٠ صفحة. ولذلك فالكتاب يوزع سراً وترفض الصحف طبعاً أن تشير إليه أو تعلن عنه .. ولكن الناس يسمعون عنه ، ويبحثون عنه . وارتفع سعر النسخة الواحدة إلى مائة جنيه .

● ● ●

ومنذ ثلاث سنوات عثرت على نسخة من هذا الكتاب . وقد أشرت إلى ذلك من قبل . ولما سافرت إلى سويسرا حاولت أن أعثر على المؤلف . فلم أستطع . واستعنت بسفيرنا توفيق عبد الفتاح . وكان يعرف المؤلف . واتصل به . ولكن المؤلف اعتذر عن عدم الالتقاء به بسبب مرضه الشديد . وحدد المؤلف موعداً بعد ذلك . وجاء الموعد قبل سفري بساعات . واعتذرت — مع الأسف — فقد كنت حريصاً على أن أستوضحه أكثر وأكثر . أو لعلي أردت أن أحقق له رغبة أعلنها في مقدمة كتابه وهي أنه يريد أن يعرف ما الذي فعله اليهود في بلاد غير سويسرا ، وأنه سوف يكون شديد الامتنان لمن يضيف إلى معلوماته شيئاً جديداً .

والخط الرئيسي في هذا الكتاب هو : أن هناك مؤامرة يهودية قديمة

جداً على العالم كله. وأن هذه المؤامرة قد وردت فى التوراة وتأكدت فى التلمود ووضحت في « بروتوكولات حكماء صهيون » .. وأن هذا المعنى واضح جداً فى الآيات التى وردت فى سفر « ميخا » حيث يقول : قومى ودوسي يا بنت صهيون لأنى أجعل قرنك حديداً وأظلافك أجعلها نحاساً فتسحقين شعوباً كثيرة وأحرق غنيمتهم للرب ورزقهم لسيد الأرض .. وأن هناك حكومة خفية هى التى تخطط للسيطرة اليهودية. وأنها تعمد إلى كل وسيلة. وأن هناك نماذج عديدة لذلك .. سويسرا مثلاً.

أما هذه الحكومة السرية فاسمها باللغة العبرية : القهال .. أي الجماعة .. أو الجامعة. وهذه الكلمة قد استخدمها اليهود فى القرن الخامس عشر فى بولندا. فقد تألفت « القهال » أو الحكومة الخفية لتضبط المعاملات بين اليهود وبين الحكومة. ولتجمع الضرائب من اليهود وتسلمها للدولة. ولتنظم المعاملات التجارية بين اليهود. وتضبط الموازين والمكاييل وتحكم بين الطائفة اليهودية. وتتولى رعاية المهاجرين من كل مكان. واستبدت هذه الحكومة الخفية. وقاومها اليهود ولكن هذه الحكومة انتصرت فى النهاية ..

ولم يكن أحد يدرى شيئاً عن « القهال » إلى أن انشق عليها يهودى روسى اسمه يعقوب جرافمان. فأصدر كتاباً فى سنة ١٨٦٧ اسمه « كتاب القهال ». وأعلن أن هذه الحكومة الخفية لها سياسة واحدة معروفة متفق عليها هى « ابتزاز » أموال كل من ليس يهودياً. وأن هذه الحكومة قد ارتكبت عدداً كبيراً من الاغتيالات السياسية والدينية فى روسيا وفى بولندا. وأن هذه الحكومة الخفية إذا تمكنت فسوف تصبح قادرة على أن تشعل النار فى أى بيت وأى بلد. وقد فعلت ذلك كثيراً .. وضرب أمثلة عديدة يؤكد بها ما يقول :

وهاجم اليهود هذا الكتاب. وبعد وفاة المؤلف أعلنوا أنه ليس صحيحاً. وإنما هو مزور ، واستطاعوا أن يجمعوه من كل دور النشر، وحتى من المكتبات العامة فى كثير من الدول الكبرى. وقد اكتشف بعض الباحثين

أن اسم هذا الكتاب موجود فى الفهارس فقط، ولكن ليس موجوداً فى المكتبة نفسها .

والدكتور ماتيز يؤكد فى كل صفحة أنه أينما وقعت كارثة عالمية فمن الواجب أن نتجه مباشرة إلى البحث عن الحكومة الخفية – القهال – وسوف نجد أن لها إصبعاً . وكما يقول المثل : إذا أردت أن تعرف من هو المجرم ، فيجب أن تبحث عن الذى يستفيد من وقوع الجريمة، وهذه الحكومة الخفية هى التى تستفيد من كل كارثة إنسانية . لأن اليهود أعداء البشرية .

أو كما يقول الأديب الروسى دستوفيسكى : إنها فارس اليهود .. بنوكهم وراء هؤلاء الذين يحكمون .. واليهود بفلوسهم سوف يحطمون الحضارة الإنسانية . ومن المؤسف : أن الاشتراكية إذا انتشرت فإن اليهود سوف يتقاربون أشد .. وإذا انتشرت الفوضوية فاليهود سوف يسيطرون .. وإذا خربت خزائن الدنيا ، فسوف يخرج اليهود فلوسهم من تحت الأرض .

ومن الملاحظ أن المؤلف السويسرى صارخ العبارة ، صاحب النبرة . وهو معذور لأن لديه إحساساً قوياً بأنه يؤذن فى مالطة .. والآذان فى مالطة لا يسمعه مؤمن واحد فكأنه يريد أن يتجاوز البحار لعله يجد آذاناً واعية ، وأخيراً وجدها .

ولكن من المؤكد أن المؤلف رجل مخلص . وهو ينذر أهله وينذر كل بلد آخر : احترسوا من هذه الحكومة الخفية . احترسوا من الأيدى التى تلعب بالمال والجنس وبالإرهاب والعناد، هناك، وراء كل الأيدى التى تحكم وتحرك الملايين من غير اليهود .

ولذلك لم يكد د. ثروت عكاشه يعثر على هذا الكتاب ويقلب فى كل صفحاته حتى قرر ترجمته ونشره على الناس بلغته الفرنسية وبلغتنا

العربية ليشهد العالم من الذى يتآمر علينا وكيف يتآمر .. ثم كيف تآمر على الشعوب وعلى القيم الأخلاقية والدينية . ولذلك جمعنا د. ثروت عكاشة فى مكتبه بعد وصوله بساعات : الدكاترة سهير القلماوى وعبد العظيم أنيس وريمون فرنسيس وسامية أسعد.. وأنا. وحدثنا د. ثروت عكاشة عن خطورة هذا الكتاب وضرورة الاطلاع عليه .. وإطلاع غيرنا عليه .. وضرورة تحطيم العزلة المفروضة على هذا الكاتب الذى أخلص النصح لوطنه ، ولكل وطن آخر .. وقد وجه إليه الدعوة لزيارتنا . وسوف يحضر المؤلف إلى مصر ..

وأولى القضايا التى يستأنفها المؤلف ويعود إلى شرحها والتدليل على صحتها . قضية : بروتوكولات حكماء صهيون .. فهذه البروتوكولات عبارة عن خطة سرية لإفساد الإنسانية وتمزيقها ليتمكن اليهود من السيطرة عليها بعد ذلك .. وعدد البروتوكولات أربعة وعشرون . وقد نشر المؤلف هذه البروتوكولات ووجد فى تاريخها تطبيقات دقيقة لها فى روسيا .وفى فرنسا وفى أمريكا .. فى الثورة الفرنسية والثورة الروسية وفى الحربين العالميتين ..

وقدم المؤلف أدلة قاطعة بأن هذه البروتوكولات صحيحة . وأن هذه الخطة السرية كان لا بد أن ينكرها اليهود بعد أن أصبحت معروفة . فليس من الحكمة أن يجاهروا الشعوب بهذا العداء أو أن يؤكدوا لكل شعوب العالم أنهم مغفلون . وأن اليهود سوف يستولون على ما فى أيدى الناس وما فى عقولهم .

ونقلت مناقشة هذه البروتوكولات إلى الصحف البريطانية . وتضاءلت الأدلة لصالح البروتوكولات وضدها،ولم تجد صحيفة التيمس إلا أن تحتاط فى تعليقها بتاريخ ١٨ أغسطس سنة ١٩٢١ فقالت : إذا صح أن هذه البروتوكولات من تأليف اليهود ، فهم إذن يستحقون كل ما قيل عنهم وكل ما ارتكبه الناس ضدهم . فهم الذين بدأوا بالتآمر السرى على كل الشعوب .

أما في مدينة برن فقد نوقشت « البروتوكولات » مرة أخرى وعلى سنوات طويلة . وأخيراً أصدرت محكمة برن في أواخر سنة ١٩٣٧ حكمها النهائي . وقطعت بأن هذه البروتوكولات صحيحة . وأن اليهود هم الذين ألفوها . ولما حاول يهود برن أن يستأنفوا الحكم أمام المحكمة الاتحادية رفضت المحكمة . واعتبرت حكمها نهائياً .

ويعود المؤلف ويناقش فكرة السيطرة على العالم .. ويلاحظ أن هذه فكرة قديمة عند اليهود . ويكفي للتأكد منها أن تقلب في التلمود الذي يمنع اليهود تداوله بين الناس .

ويلاحظ المؤلف أن الكاتب باروخ ليفي قد أرسل إلى كارل ماركس خطاباً يقول فيه : إذا كان في هذا العالم حكومة عالمية فسوف يستولي بنو إسرائيل على العالم . وبذلك تتحقق النبوءات التي جاءت في التلمود .

وعندما أنشئت عصبة الأمم أعلن اليهود في العالم أن هذه الهيئة تجسيم لأفكار الرئيس الأمريكي اليهودي ويلسون .. ولقد كان أول رئيس لعصبة الأمم رجلا بلجيكياً يهودياً هو هيمانس .. وأول سكرتير لها كان يهودياً بريطانياً هو درموند ..

وفي المؤتمر الصهيوني الذي عقد في كارلسباد في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٢ أعلن رئيس المؤتمر أن عصبة الأمم فكرة يهودية ، وحلم يهودي ، وأن نهضة بني إسرائيل تتمشى مع ما جاء في التلمود والمقصود بالنهضة طبعاً .. هي نهضة اليهود وعثرة كل من ليس يهودياً في العالم .

ومن عصبة الأمم ولدت الأمم المتحدة .. والتي قال عنها وزير خارجية البرتغال في سنة ١٩٦٥ إنها سببت الكثير من المشاكل للشعوب . وبغيرها سوف تكون هناك مشاكل أكثر ..

أما في أمريكا .. فإن الأمريكان كانوا أكبر ضحية لليهود الذين أقاموا مدينة نيويورك .. أول مدينة لهم في العصر الحديث .. وفي أمريكا حكومتان :

حكومة نيويورك وحكومة واشنطن .. وحكومة نيويورك هي « القهال » أو الحكومة الخفية التي اغتالت الرئيس كنيدى — ويرجوك المؤلف أن تعيد النظر إلى الصور الفوتوغرافية التي نشرتها مجلة « بارى ماتش » يوم ٧ ديسمبر ١٩٦٣ لترى بنفسك تراخي رجال الأمن هناك .. ولتعرف أن هناك قوة أخرى تشد أيدى رجال الأمن إلى الوراء..وتحولهم من حراس إلى مجرمين.

وقصة فورد معروفة .. فهذا المواطن الأمريكي أصدر كتاباً سنة ١٩٢٠ عن « اليهودى العالمى » ووصف اليهودى بأنه متآمر بطبعه ، جاسوس بالضرورة . لص ما فى ذلك شك .. يسرق كل ما يملكه غير اليهود ليعطيه لليهود .. وأن اليهودى ليس مخلصاً لأى وطن يعيش فيه .. لأنه ينتسب إلى حكومة خفية .. ويدين بولاء لقيم وأحلام لا نعرفها .. وأن الأمريكان يجب أن ينتبهوا إلى هذه الحقيقة الخطيرة .

وثار عليه اليهود . وقاطعوا بضائعه .. وضيقوا عليه .. وهاجمته الصحف .. وكان فى نيته أن يرشح نفسه للانتخابات فأرهبوه وكادوا يقتلونه .. وفى ٣٠ يونيو سنة ١٩٢٧ اعتذر فورد عن كل ما قاله ..

أما الفيلسوف الأمريكي فرانكلين فقد نصح الأمريكان بقوله : أيها السادة، إذا لم تسجنوا هؤلاء اليهود فإن أولادكم وأحفادكم لن يغفروا لكم أنكم لم تفعلوا ذلك .

وعشرات .. ومئات من الحوادث والأمثلة . والمؤامرات فى قصور الملوك والأمراء والوزراء والبنوك والصحف .. وألوف من الصرخات تخرج من قلب هذا المؤلف السويسرى الذى يتهم شعبه بالسذاجة والبلاهة والاستسلام للذئب . وهو لا يقف عند الصرخات والصفعات واللكمات والكلمات وإنما يقترح أساليب فى التربية وفى المعاملات وفى النشر لعلاج هذا المرض الوبيل الذى اسمه التآمر الخفى على البشرية .

● ● ●

وقد تفرقنا جميعاً . وفي يد كل صفحات من كتاب الدكتور ماتيز .. ولكننا اتفقنا على أهميته وعلى إخلاصه وعلى أنه نموذج واضح لما فعله « القهال » في سويسرا .. وما يمكن أن يفعله في أى بلد آخر .. بشرط أن ينسى الناس أن يواجهوا هذا الخطر الحقيقي .. وأن تتعب عيونهم من المواجهة. ولكن في اللحظة التي نغمض فيها عيوننا يتسلل إلينا مع الظلام شيء أكثر سواداً من الظلام .. وقد حدث ذلك كثيراً .. وسوف تراه « مفضوحاً » في ٨٠٠ صفحة .

إنهم أغرب شعب!

حرب الأيام الستة دارت على أرض ضيقة ، ولكن أثرها اتسع إلى العالم كله..واستغرقت وقتاً قصيراً،ولكن أثرها سوف يبقى عشرات السنين.

وحرب الأيام الستة لم تكن انتصاراً لإسرائيل على ١٣ دولة عربية فقط ، بل على ١٣ مليون يهودى فى العالم كله كان من رأيهم أن قيام إسرائيل خرافة يجب العدول عنها ..

وقد أدى النصر اليهودى إلى تماسك اليهود فى العالم كله . وإلى حرصهم على الإبقاء على إسرائيل مادياً وأدبياً . ولذلك تزاحم اليهود حول سفارات إسرائيل فى العالم يريدون التطوع للخدمة : مهندسين وأطباء وعمالا وطلبة .. حتى أسرة روتشيلد فى باريس قد باعت إصطبل الخيول من أجل إسرائيل ..

واليهودى فى أى مكان لا ينسى أنه يهودى . أنه قد لا يصلي . بل قد يكون ملحداً مثل بن جوريون ولكنه مع ذلك لا ينسى أنه يهودى . سواء كان أبواه يهوديين أو أمه فقط .. واليهودى فى أى مكان لا ينسى لحظة

واحدة أنه ينتسب إلى « شعب » واحد .. ودين واحد .. وجنس واحد .. على الرغم من أن اليهود ليسوا من شعب واحد ولا من لون واحد ولا يتكلمون لغة واحدة .. ولكن هناك شيئاً واحداً سرياً قوياً يربطهم جميعاً. ولا يستطيع أي يهودى أن يقتفى آثار أسرته إلى أبعد من ٢٠٠ سنة .. لأن اليهود مهاجرون مطرودون من كل مكان إلى كل مكان . وإن كان اليهود يؤمنون بأنهم جميعاً أولاد إبراهيم . وإبراهيم قد انفصل عن القبائل العراقية وحمل معه معتقداتهم . وهو يحفظ العهد الذى بينه وبين ربه بأنه سوف يعذبهم وسوف يحميهم لأنهم يمثلونه على الأرض .. وهو يطلب إلى إبراهيم : أن يمشوا أمامه فسوف يجعل منهم ملوكاً !

وعندما امتدت الحضارات القديمة إلى الغرب ، اتجه معها اليهود إلى البحر الأبيض وإلى اليونان .. ولما ظهرت الديانة المسيحية اصطدمت باليهودية مباشرة . ولكن المسيحيين عرفوا المذابح والإعدام بسبب ديانتهم الجديدة ، قبل أن يعرفهما اليهود .. ولما حاول الرومان سنة ١٣٢ م تحريم (الطهارة) قاومهم اليهود .. وهدم الرومان مدينة القدس وحولوا « قدس الأقداس » إلى معبد للإله جوبتر ..

وفى مواجهة الأناجيل ألف اليهود كتاب « التلمود » .. وقد اشترك فى إعداد هذا الكتاب ألفان من الكهنة فى مدى تسعة قرون . وفى التلمود كل ما يحتاج إليه اليهودى فى حياته اليومية منذ أن يصحو من النوم حتى يعود إلى فراشه وقد امتلأت جيوبه بفلوس المسيحيين . ففى التلمود نصائح وتجارب وقوانين ووصايا سرية . وكان اليهود يتهمون بالكفر كل من يقرأ الأناجيل !

وفى البلاد الإسلامية كانت لليهود حياة هابطة صاعدة .. ولكن حياة اليهود هدأت وازدهرت فى إسبانيا فى العصر الإسلامى . وقد ظهر لليهود فيلسوف معروف هو موسى بن ميمون . وهو مثل المسيح قد انحدر من

بيت داود .. كما ظهر الشاعر يهودا هاليفى الذى كان يتغنى بصهيون . وكان ينظم شعره بالعربية والعبرية ..

واصطدم المسيحيون باليهود .. وأحس المسيحيون أن اليهود لا يمكن احتمالهم .

ومع بداية الحملات الصليبية ظهر « الجتو » أى حارة اليهود — أى الانطواء والانكماش والعزلة والسرية التى هى أهم صفات اليهود — فى المدن الكبرى فى أوروبا ..

وبدأت العداوة المنظمة للساميين أى لليهود. وكان على اليهود فى أى مكان من أوروبا أن يشهروا يهوديتهم وذلك بأن يضعوا علامة صفراء على ملابسهم ..

وفى مواجهة القسوة والعنف والبغضاء التى أغرقت القارة الأوروبية فى عصر الإصلاح الدينى وحرب الثلاثين عاماً ، وجد اليهود أنفسهم منعزلين ومحتقرين أيضاً . ولكنهم كانوا ضروريين . فلم يكن هناك غنى عن غناهم ..

وتعلم اليهود فى ذلك الوقت أن يحتفظوا بثرواتهم على شكل « منقولات » من الذهب والسفن ليهربوا بها فى أوقات الخطر . ولكن استطاع اليهود أن يعيشوا فى أوروبا اعتماداً على كلمة شرف من ملك مفلس أو أمير مسرف .. واعتمد الملوك والأمراء على اليهود وفلوس اليهود فى ذلك الوقت .

ولقى اليهود فى أوروبا الشرقية ما لقيته الأقليات الدينية الأخرى : مثل البروتستانت فى بولندا ، والكاثوليك في السويد وانجلترا .. واليهود فى أى مكان !

وكان على اليهود أن يتناقشوا فيما بينهم : هل يبقون أقلية فى كل مكان ، هل يندمجون فى بحر الأغلبية ، ويتظاهرون بدياناتهم المكتسبة ويظلون يهوداً وراء ذلك !

وكل عصر يجد إجابة مختلفة عند اليهود . ولا يزال هذا السؤال بلا

جواب محدد ، وإن كان أغلب اليهود فى العالم قد عرفوا أنه من الضرورى أن يقفوا وراء إسرائيل لأنها الأمل والهدف والطريق إلى الاستمرار فى حياة أخرى فى أى مكان ..

وقد اعتاد اليهود من ألوف السنين أن يخفوا نشاطهم وأن ينعزلوا . وأن يتماسكوا سراً . أى أنهم لا يشاركون فى شىء من النشاط حولهم . وهذه العزلة قد فرضت عليهم الجمود والبلادة والتأخر . ولذلك يحاول اليهود الآن أن يندفعوا بقوة إلى الخروج من حوارى اليهود إلى المدن الكبرى ، ومن النسيان إلى التاريخ ، ومن الظلام الطويل إلى النور وإلى النار أيضاً . وإن كانت هناك أقلية يهودية تتمسك بالتعاليم القديمة وبحرفية التلمود وضرورة الانعزال وعدم الذوبان فى الأغلبية المسيحية . وعلى الرغم من الضياع صفة من صفات اليهود فى تاريخهم الطويل ، فإن الحياة المستقرة الغنية الطويلة فى أمريكا قد أعطتهم أسلوباً جديداً فى الحياة والتفكير .

وإذا كان اليهود ينتسبون إلى أكثر من شعب فهم « متشعبون » .. ولكن هناك عملية تحويل كبرى للعقلية اليهودية : أى تحويلها من التشعب إلى « التشعيب » أى تعميق الشعور بأنهم شعب واحد فى بلاد مختلفة وبلغات مختلفة وبألوان مختلفة ..

واليهودى فى أى مكان هو إنسان شديد التعقد . ولكن مهما تعددت عقد اليهودى فانها تلتف حول ثلاثة عناصر : إنه يهودى وإن له كتاباً وإنه يحلم بوطن . لا خلاف بين اليهود كلهم على ذلك فى أى عصر وفى أى مكان !

ومن الظواهر المعروفة فى أمريكا وأوروبا الآن أن اليهود يسكنون المدن الكبرى ، ويسكنون الأحياء المحصنة . ولا يحبون الإقامة فى الريف .. فهم يريدون أن يندمجوا فى الناس « بحساب » .. ولكنهم يحرصون على ألا يعرف أحد هذا الحساب !

والتاريخ اليهودى كان له أثره السيىء على المسيحية .. فقد اتهمتهم

المسيحية بأنهم صلبوا المسيح .. ولذلك استحق اليهود الطرد من انجلترا سنة ١٢٩٠ ومن فرنسا سنة ١٣٩٤ ومن النمسا سنة ١٤٢٠ ومن إسبانيا سنة ١٤٩٢ ومن ألمانيا سنة ١٥١٩ ومن روسيا سنة ١٧٢٧ . ولو قبل اليهود الذوبان فى المسيحيين لحرموا هتلر أن يعدم منهم بضعة ملايين !

وقد دفعتهم المذابح والطرد والتشريد إلى أن يتمسكوا بدينهم أكثر . فعكفوا على التلمود وعلى تطبيقه حرفياً على حياتهم وعلى علاقاتهم بالأديان الأخرى .. ورفض اليهود أية محاولة للتفكير الحر فى دينهم؛ حتى أنهم أحرقوا مؤلفات فيلسوفهم موسى بن ميمون سنة ١٢٣٣ .. وعلى الرغم من أن لهذا الفيلسوف كتاباً اسمه « دلالة الحائرين » يرتل اليهود صفحات منه فى صلواتهم اليومية ..

ولم يتنبه اليهود إلى أنهم المسئولون عن انتشار العداء للسامية؛ فهم الذين بادروا بالانعزال ، وهم الذين انصرفوا عن مشاركة الشعوب التى يعيشون فيها فى أى عمل وطنى أو قومى ، وهم الذين خوفوا الشعوب منهم .. ثم هم الذين يكسبون أموال الشعوب فى كل الظروف .. فهم صاحب البنك والتاجر والسمسار . وذلك بسبب علاقاتهم الدولية الواسعة. ويقال إن لليهود أسراراً خاصة بالمعاملات المالية .. وكل يهودى يؤمن بأن الله معه وأن الله يرافقه بانتظام من المعبد إلى البورصة !

وفى البلاد التى تشردوا فيها حرصوا على اللغة العبرية وعلى اللغة البديشية أيضاً، فاللغة العبرية هى لغة آدم وحواء وهى اللغة التى تكلم بها موسى مع الله ...

وظل اليهود فى كل العصور ينتظرون المعجزة . وكثيراً ما ظهر نصاب أو أفاق يدعى النبوة ويدعى أنه عرف طريق الخلاص وسار وراءه اليهود .. ولا يكاد هذا الداعية يختفى حتى يزداد شعور اليهود بخيبة الأمل ، وينتظروا المعجزة فى شخص آخر ..

وهذه العزلة اليهودية جعلتهم يتخلفون عن الحضارة الأوروبية . فلم

يظهر من بين اليهود شخص له قيمة عالمية فى القرنين الماضيين .. لا فيلسوف ولا موسيقار ولا رسام. وإذا كانت الشعوب الأوروبية ترى عظمتها فى إمبراطور مثل فريدريك الأكبر أو مثل نابليون ، فإن اليهود كانوا يتلمسون العظمة عند الملك داود وعند يوشع وعند باركوشبا .

وكان اليهود فى نفس الوقت يشعرون بشىء من السعادة وهم يطالعون وجوه العباقرة الذين كانوا يهودا ثم ارتدوا عن ديانتهم ليكون لهم نصيب أعظم فى حياتهم الاجتماعية والسياسية والمالية ..

وعلى الرغم من الخلافات الشديدة بين اليهود ، فإن هناك نوعين من اليهود : يهود أوروبا الوسطى والشرقية ويسمون أنفسهم « الأشكينازيم » .. وهى كلمة مأخوذة من اسم أشكيناز أحد أحفاد نوح . ثم أصبحوا يطلقونها على ألمانيا . وثلاثة أرباع اليهود فى إسرائيل من الأشكيناز ، ثم هناك يهود البحر الأبيض وإسبانيا والشرق الأوسط والأقصى ويسمون أنفسهم سفارديم . وعلى الرغم من أن هذه الكلمة أطلقت فى التوراة على مكان ، فإنها أصبحت تدل على إسبانيا . وكانت لهم لغة خاصة اسمها اللادينو .. وهى خليط من العبرية والإسبانية .. ويقال إن الأرمن من أولاد أشكيناز قد عاشوا فى أرض التوراة بالقرب من جبل أرارات ..

وأول شعاع من النور القوى على اليهود جاء مع القرن الثامن عشر فى فرنسا . فقد نادى الفرنسيون بالمساواة والعدالة الاجتماعية للجميع . وهنا توافق اليهود بسرعة مع المجتمعات الأوروبية . فوقف إلى جانب الفيلسوف العظيم « كانت » فيلسوف يهودى هو « مندلسون » وإلى جوار الشاعر الكبير «جيته» ظهر الشاعر اليهودى «هينه» وإلى جوار موسيقار عظيم مثل « بتهوفن » موسيقار يهودى هو « مندلسون » حفيد الفيلسوف الذى حمل الاسم ذاته إلى جوار سياسى إنجليزي مثل «بالمرستون» سياسى يهودى « دزرائيلى » وإلى جانب هيجل وقف فيلسوف يهودى هو كارك

ماركس يهود كانوا فى مقدمة الثورة الشيوعية، وكانوافى مقدمة معسكرات التمرد ... وكل هؤلاء اليهود قد ارتدوا عن الديانة اليهوديةواصبحوا مسيحيين أى مسيحيين فى الظاهر ويهوداً وراء ذلك !

وعلى الرغم من أن هؤلاء اليهود قد وجدوا حريتهم فى فرنسا ، فإن مركزهم الثقافى كان فى ألمانيا .. فقد كانت الثورة الفرنسية نسيماً هب على أرضهم فأنعشهم وأحياهم فى مواقعهم الفلسفية والفنية !

وفى سنة ١٨٤٨ كان اليهود فى مواقع الثورات فى كل أوروبا .. وفى كل مكان.لأن من صفات اليهودى أنه إذا لم ينتسب إلى مذهب فإنه يعارضه. أو ينتسب إليه ويعارضه فى نفس الوقت !

وإذا كان الضياع صفة من صفات الحياة اليهودية ، فإن هناك شعباً آخر مماثلا : الأرمن . .

فقد قتل ثلثهم بالتعذيب والتجويع ولذلك أحس اليهود بالتعاطف مع الأرمن وخصوصاً أثناء الحرب العالمية الأولى . عندما التقى اليهود الذين يحاربون فى الجيش البريطانى مع الأرمن .. وانتشر الأرمن فى العالم يتمسكون بلغتهم وحضارتهم ويحلمون بالوطن . وعندما استقلت الهند وباكستان سنة ١٩٤٧ اتجه الأرمن إلى الغرب .. وعندما أصبحت قبرص ميدان قتال اتجه الأرمن إلى إنجلترا .. ولكن الأرمن أحسن حالا من اليهود ، فلم يتهمهم أحد بصلب المسيح !

وتهمة صلب المسيح هذه قد مسحتها الكنيسة الكاثوليكية . وبدأ البابا يوحنا الثالث والعشرين هذا الطريق إلى غسل أيدى اليهود من دم المسيح .

فقد أنعم بصليب القديس سلفستر سنة ١٩٥٩ على السفير الإسرائيلى فى روما . وعندما قابله فى اليوم التالى عدد من اليهود الأمريكان قال لهم : إنما أنا أخوكم يوسف !

أى أنه يوسف الذى عفا عن إخوته الذين ألقوا به فى البئر وذهبوا

إلى أبيهم يقولون : قد أكله الذئب ونحن عنه غافلون !

أما الكاردينال النمساوى بيا الذى قدم الوثيقة الشهيرة بالعفو عن اليهود ، فقد كان له سكرتيران من أصل يهودى — إذن لقد تغيرت صورة اليهودى فى العالم عند المسيحيين وعند غيرهم ..

ولكن لا تزال أهم صفات الرجل اليهودى هى أنه يريد أن يستقر .. وأن يهدأ .. فقد تعب من السفر من بلد إلى بلد . . وقد تعب من الطرد من كل بلد .. ولذلك فهو شديد الخوف وسريع الفزع ... وأول ما يفعله اليهودى فى أى بلد هو أنه يحرص على أن يتوافق مع البيئة هو وأولاده وأسرته .. فهو يبعث بأولاده إلى أحسن المدارس ، ويسكن أفخم الأحياء .. وهو دقيق فى عمله .. وهو رقيق جداً مع جاره .. وهو لا يلفت أحداً إليه .. إنه يريد أن يعيش فى صمت وفى هدوء .. فكل إنسان فى الدنيا إذا لم تعجبه البلاد التى هاجر إليها ، ففى وسعه أن يعود إلى وطنه .. أما اليهودى فلا .. ولذلك يجب أن يستقر حيث هو .. وأن يستقر فى دينه وأن يتمسك به .

لأن اليهودى يؤمن بأن الدين هو حبل الله ، وأنه إذا أفلت منه هذا الحبل فإنه يضل ويضيع .. وكثير من التعاليم الدينية لا تقنعه . ولكنه يتمسك بها لأنها تعاليم دينية .. وأن الدين هو وحده الذى أبقاه رغم العذاب والهوان فى كل التاريخ وكل البلاد .. فالطهارة — مثلا — إجراء صحى . ولكن اليهودى يتمسك بطهارة الأطفال لأنها تعاليم الدين فقط !

واليهود يقولون إن نوحاً كان أعظم تاجر فى العالم لأنه أقام شركة عائمة ، عندما صفيت كل الشركات الأخرى !

وكل يهودى يريد أن يكون مثل نوح : يعوم حتى لو غرقت الدنيا كلها .. أو يغرق الدنيا كلها ليعوم بعد ذلك !

نيويورك عقل أمريكا
واليهود عقل نيويورك

من الذى يفتح الدكان ؟

سؤال يردده اليهودى لنفسه ولأولاده .. فالمفروض دائماً أن يكون هناك دكان في مكان ما ،ومن الضرورى أن يفتحه هو أو أحد من أولاده .. فلأن اليهود كانوا مطرودين من كل البلاد فقد اختاروا البيت هو مكان العمل .. واختاروا ثروتهم شيئاً يمكن حمله على الأكتاف وعبور الحدود بين بلدة وبلدة .. ودولة ودولة .. وأوروبا وأمريكا ..

ويقال إن أحد اليهود عندما أدركه الموت .. أخذ يتلفت حوله ويسأل أولاده فقال:أين زوجتى ؟ فجاءت الزوجة وقالت : هنا. وسأل عن ابنه كوهين : أين أنت ؟ قال : هنا.وعن ابنه يوسف : أين أنت ؟ قال : هنا .. وعن ابنته راشيل : وأين أنت ؟ قالت : هنا.فقفز الرجل من فراشه وهو يصرخ : ومن الذى سيفتح الدكان ؟

فإذا كان الدكان فى أمريكا فمن الذى يحمى إسرائيل .. وإذا كان الدكان فى إسرائيل وليس فى أمريكا فمن الذى يأتى لها بالأموال .. وإذا كان الدكان فى أوروبا فقط فلمن يتركون أمريكا .. لا بد أن يكون هناك دكان فى مكان ما ...

وفي كتاب « شعب غريب » للكاتب اليهودي بارنت ليتفينوف دراسة لأعماق المجتمع اليهودى العالمى .. مشاكله وعقده وتاريخه وخطته السرية فى أن يستولى على الناس .. وأن يظهر لهم بواجهة ويخفى الواجهة الأخرى .. فهم يطالبون بالمساواة .. وفى أعماقهم ينادون بالتسامى . ويطلبون الثورة والتمرد ، وهم أكثر الناس خوفاً من القلق والاضطرابات .. ويحركون الأقليات الدينية واللونية ، وهم الذين عانوا من هوان الأقلية الدائمة فى كل مكان .. إنهم شعب غريب .. شديد التعقد ..

* * *

ففي أمريكا مثلاً أحس اليهود أنهم في عالم جديد . . وأنهم أكثر أماناً . فليسوا هم وحدهم الأقلية . فكل الناس أقليات من كل البلاد ومن كل المذاهب الدينية . ولذلك فحماية الأقلية هى حماية للأقليات .. أى للشعب الأمريكى كله .. واليهود فى أمريكا استطاعوا بسرعة أن يتوافقوا مع المجتمع . وأن يتفرغوا للعمل والكسب . واليهود عندما ذهبوا إلى أمريكا لم يكونوا مهاجرين ولا مطرودين .. وإنما ذهبوا مواطنين . وهم مثل الأشجار انتقلت من الغابة إلى الحديقة .. أو من الحديقة إلى البلكونه . ليس هناك شعور بتغير التربة أو الجو .. والتغير الوحيد الذى أحس به اليهود أنهم أخيراً قد وجدوا المكان الهادىء .. والطريق المفتوح .. والسلم الممدود .

وبسرعة اتخذوا أماكنهم فى الدكاكين .. وفى المدارس .. وفى أماكن اللهو ..

واتجهوا إلى نيويورك هذه الأكثر يهودية من إسرائيل. بل إن عدد اليهود فيها أكثر من يهود إسرائيل . وفي نيويورك وحدها بوليس يهودي أكثر من الموجود في تل أبيب .. ومدرسون يهود أكثر من الموجودين في إسرائيل .. وصحف بالعبرية وصحف باللغة اليديشية .. وفي استطاعة أي إنسان أن يدرس الديانة اليهودية في نيويورك فلا يشعر أنه بعيد كثيراً عن القدس أو عن الجامعة العبرية . وعدد السكان اليهود في نيويورك هو مليونان و ٦٠٠ ألف يهودي .. كما أن هناك حوالي ثلاثة آلاف يتحولون إلى الديانة اليهودية كل سنة .. وهذه مشكلة لم تتفق المذاهب اليهودية على حلها .. وأصبحت اللغة الإنجليزية هي لغة اليهود .

وعلى الرغم من الاطمئنان والأمان والرخاء الذي يستمتع به اليهود في نيويورك وفي أمريكا ، فإنهم لا يكفون عن الرغبة في الاندماج أو في الذوبان في أمريكا كلها .. ولذلك نجد جمعيات يهودية كثيرة : أسبوع الصداقة .. التسامح بين الأديان .. المحبة المطلقة .. الماسونية .. شهود يهوه .. وغيرها .. واليهود ليسوا جادين في طلب المساواة ، ولا في طلب التسامح .. ولكنهم حريصون على هذا المظهر الإنساني الرفيع .. ثم إن اليهود يرفضون سيطرة الدين على الدولة .. أو الكنيسة على الدولة لأن هذا معناه أن تصبح الديانة المسيحية مفروضة على أولادهم .. ولذلك كانوا أول من نادى بفصل الكنيسة عن الدولة في أمريكا ..

واليهود هاجروا إلى آمريكا من إحدى المستعمرات الهولندية في البرازيل .. وكان ذلك سنة ١٦٥٤ . واتجهوا إلى نيويورك وسمحت لهم هولندا التي كانت تملك نيويورك في ذلك الوقت .. فقد يكون من بينهم أحد يملك اسهماً في الشركة الهولندية — شل الآن .

وفي نيويورك تلاشى اليهود في المسيحيين وذلك عن طريق الزواج المشترك . ولكن عادت أمواج اليهود إلى السواحل الأمريكية عندما اشتعلت

الثورات في أوروبا في سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ .. وكان أكثرهم من ألمانيا والمجر ..

أما أيام الحرب الأهلية في أمريكا .. فقد اختار اليهود أن يبيعوا الأقمشة والأطعمة بين خطوط المتحاربين من الجانبين . وكان من المشاهد المألوفة أن يجد المحاربون رجالا يركبون الخيول والحمير ويخلعون قبعاتهم وينحنون إلى ما يقرب من الأرض .. هؤلاء هم اليهود جاءوا يبيعون الملابس والطعام . لأنهم مساكين لا دخل لهم بما يجرى في أمريكا بين الأمريكان . وقد حاول المحافظ ستيفزانت أن يطردهم بالقوة وأصدر قراراً يمنعهم من التجول بين الجنود .. لأنهم جواسيس . ولكن الرئيس لنكولن أصدر قراراً بالعفو عنهم .

وكذلك كان موقف اليهود من الأقليات في أمريكا .. فالإيرلنديون أعداء الإنجليز .. وهم في نفس الوقت لا يحبون الألمان .. وانصرف اليهود عن هذه المعارك الدامية واتجهوا إلى جهات تجارية أخرى .. فقد قرر اليهود أن يركبوا كل المواصلات إلى كل الأهداف .. وإلى كل الناس .

وفي سنة ١٨٧٠ وما بعدها احتكر اليهود بسرعة تجارة الحديد الخردة .. وكان عددهم في ذلك الوقت ٣٠٠ ألف وأكثرهم من السماسرة ..

وبدأ اليهود يتطورون في هدوء وبعيداً عن الأنظار . حتى الديانة اليهودية تطورت .. واستعارت الكثير من الطقوس المسيحية في الصلاة .. وفي الصلاة الجامعة .. وفي المناداة على المصلين .. بل إن اليهود ألغوا نظام الرهبانية .. فلم يكن هناك متسع من الوقت لأن يتفرغ الناس للصلاة . فالصلاة هي العمل . والإيمان هو الربح . والجنة هي السوق ..

ومعظم أصحاب الملايين من اليهود كانوا تجار أقمشة ، أي أصحاب سلع منقولة .

وأول شركة كبيرة أنشأها اليهود في أمريكا هي شركة «ماسي» لثلاثة من

الإخوة اليهود من أسرة أشتراوس .. وهم أصحاب أكبر محلات أقمشة في نيويورك وغيرها من المدن الكبرى .. وقد اختارت أمريكا واحداً من هؤلاء الإخوة سفيراً لها لدى الباب العالي في تركيا .. فقد كان الأتراك يعادون المسيحية .. وكان أول موضوع ناقشه السفير الجديد مع الباب العالي هو مشروع بحماية اليهود في فلسطين .

واتجه اليهود بسرعة عجيبة إلى أجهزة الإعلام . فأنشأوا الصحف : نيويورك ورلد .. ونيويورك تيمس .. وواشنطون بوست ..

ولذلك لم يعد اليهود في حاجة إلى صحف بلغتهم أو صحف طائفية فهذه الصحف الكبرى تعبر عن رأيهم وتحمى مصالحهم وتدافع عنهم ، وتتستر على سياستهم الدولية والأمريكية .. ومنذ وقت مبكر جداً اتجه اليهود إلى المحاكم . فكان منهم عدد كبير من المحامين . وكان أكثر رؤساء المحكمة العليا من اليهود — حتى اليوم .

واحتكر اليهود العلماء من جميع انحاء العالم .. فقامت مؤسسة جو.بنهايم صاحبة المناجم الواسعة ، باستدعاء العلماء والمتخصصين للبحث والدراسة في أمريكا وفي بلادهم أيضاً ..

ولم يظهر من اليهود شاعر كبير أو مفكر كبير .. حتى الذين ظهروا في القرنين الماضيين في أوروبا كانوا من اليهود الذين تحول آباؤهم إلى المسيحية مثل : كارل ماركس والشاعر هينه والفيلسوف مندلسون وحفيده الموسيقار مندلسون أيضاً..ومعظم الذين ظهروا من المفكرين اليهود في أمريكا كانوا حريصين على أن يحتفظوا بجنسياتهم الأوروبية .. فالشاعرة جرترود أشتاين لم تكن تحس بأنها سعيدة عندما يصفها أحد بأنها أمريكية .

وانتقل اليهود إلى مرحلة أخرى .. فقد كان من عادة اليهود أن يعملوا كل شيء بأيديهم .. فالذى لا يعمل بيديه يموت من الجوع . ولا توجد دراسة نظرية عند اليهود، فكل إنسان يجب أن يكون صانعاً، ثم أى شيء

بعد ذلك . فالكهنة والعلماء والفلاسفة والشعراء كلهم من أبناء الحرف .. وكان من عادة اليهود عندما وصلوا إلى أمريكا ، أن يقفلوا بيوتهم عليهم ويعملوا جميعاً حتى الفجر .. ويتناوبوا العمل والسهر .. ولكن بعد أن امتلأت أيديهم بالفلوس توقفوا عن الأعمال اليدوية . فلم يعد من بين اليهود عامل واحد في أمريكا. إنهم أصحاب مصانع أو مديرون لها.. وهم مسيطرون على نقابات العمل وليسوا عمالاً ..

وعندما جاء المليونير هيرش إلى أمريكا .. أطلق اليهود على المدن الأمريكية الكبرى يمسحون أسواقها ويكتبون عن احتياجاتها .. ويعودون بالسلع والنقود والسماسرة ..

وأفلست بعض الجاليات الأوروبية أمام الشبكة اليهودية المحكمة .. فقد هاجر من أمريكا في سنة ١٨١٨ عشرون ألفاً من الإيطاليين .. ومثلهم من الفرنسيين والإسبان واستولى اليهود على المصانع التي كان يملكها الإيطاليون . مع أن اليهود كانوا موظفين صغاراً بها .

وفوجىء الناس بزحف شديد على المدارس والجامعات .. ففي الوقت الذي كان فيه الإيطاليون — مثلا — يعملون بأيديهم كان اليهود يدرسون فن إدارة الأعمال وفن تسويق السلعة .. والقوانين الدولية .. وقوانين الملاحة .. ولذلك أفلح اليهود في أن يجعلوا خبراتهم ضرورية لغيرهم من الأقليات الأخرى .

وبنفس البراعة التي أنشأوا بها الصحف واحتكروها اتجهوا إلى السينما ..

وتاريخ السينما الأمريكية يعرف كيف أصبح أصحابها أثرياء يملكون ألوف الملايين. فقد كان صاحب السينما يقف على الباب .. وكانت زوجته تقطع التذاكر .. أما أولاده فيكنسون الصالة ..

فشركة مترو يملكها الثلاثة مترو .. جولدوين .. ماير ..

ووارنر يملك شركة وارنر .. وهو واحد من اثنى عشر أخاً كانوا يعيشون فى كندا وقد هاجروا من بولندا ..

وعن طريق الزواج بين أصحاب الملايين أصبح زوكور يملك شركة برامونت .. وفوكس يملك شركة فوكس ولميله وسلزنيك يملكان شركة يونيفرسال .. والأخوان جاك وهنرى كوهين يملكان شركة كولومبيا .. وشركة يونيفرسال هى أول من أقام استديو فى هوليود وصاحب الشركة أتى بابن خالته المخرج وليام ويلر ..

وكانت الأفلام الأولى لهذه الشركات تمجيداً لتاريخ أمريكا وامتناناً لها .. وإعادة لكتابة تاريخها .. ومحاولة مستمرة للضغط على العالم الخارجى ..

وظهر التلفزيون بعد ذلك طفلا يرضع من صدر السينما .. ويتمدد على حجر أصحابها . .

وظهر ممثلون يهود من مثل : آل جونسون .. ويول ميونى .. وأيدى كانتور ودانى كاى وأخوان ماركس .. وظهر موسيقيون من مثل أيرفنج برلين وجورج جروشوين .

ولم يكن اليهود سعداء تماماً بكل ما حصلوا عليه .. وهذا واضح من حزن رجال الدين العميق .. ثم هم ما يزالون ينتظرون يوم الخلاص . ويوم اشتعلت الثورة الروسية ويوم إعلان وعد بلفور .. أحس اليهود أن السماء قد اقتربت من الأرض .. ولكن السماء لم تقترب من الأرض.. إنها انطبقت عليها وعلى اليهود أيضاً .. فقد ظهرت نزعات دينية متعصبة فى أوروبا وفى أمريكا .. واتخذ الناس موقفاً معادياً من اليهود .. وقيل إن اليهود دبروا انقلاباً شيوعياً فى أمريكا .. وأعلن هنرى فورد صاحب مصانع السيارات المعروف أنه قد نذر ثروته كلها من أجل القضاء على اليهود .

وأبعد اليهود عن الجامعات .. ولم يعد أحد يتردد على طبيب يهودى .. بل أصبح من الصعب على أى يهودى أن يكون طبيباً .. فاتجه اليهود إلى

أوروبا لدراسة الطب .. وأدرك اليهود أن « القومية » والنزعات القومية خطرة عليهم .. لأن هذه النزعات ترفضهم فوراً .. وتضعهم فى مواجهة الأغلبية الساحقة في أمريكا وفي أى مكان آخر ..

وأمام هذا الموقف العدائى – حتى فى أمريكا – احتمى اليهود فى دينهم .. وعاودتهم بشدة أحلامهم القديمة: يوم الخلاص .. وأرض المعاد .. وشعب الله المختار ..

وأقبل رجال الدين يشعلون القلوب .. ويمدون أيديهم يطلبون المال لمساعدة يهود فلسطين على أن تكون لهم أرض .. وبيوت ومعابد .. ومزارع جماعية . ومستعمرات .

حتى أن بن جوريون وحايم وايزمان عندما وصلا إلى أمريكا فى سنة ١٩٤٠ وراحا يتحدثان عن موطن اليهود ، التفت إليهم بعض الناس وهذا البعض كان نحولا دامآً ، لأن الصهيونية لم تكن تهم الأمريكان.فعندما كانوا يسمعون هذه الكلمة يعرفون ما سوف يجيء بعدها : عرض أفلام عن المزارع والمستعمرات في فلسطين ..وصور لحائط المبكى .. وصور لفقراء اليهود .. ثم طلب تبرعات سخية لليهود في فلسطين .. وكان اليهود ينفرون من منظر بن جوريون ووايزمان فقد جاء الاثنان. من لندن بلد الدمار والجوع .. ثم هما يطالبان بإنشاء جيش يهودى لمحاربة هتلر .. وكان هذا هو الستار الذى يخفيان وراءه جيشاً يهودياً يكون مستعداً للقاء العرب بعد إلغاء الانتداب على فلسطين ..

إلى أن هاجمت الطائرات اليابانية ميناء بيرل هاربور فى ديسمبر سنة ١٩٤١ .. ودخلت أمريكا الحرب ..

ولم يكن يهود أمريكا يتصورون أن أمريكا سوف تحارب .. وتغير الموقف لصالح الصهيونية العالمية .. ووجد بن جوريون من يستمع إليه إذا تحدث .. وتحدث وأطال .. وطالب بالمال الكثير ..

ولم تدخل بريطانيا فى صراع مكشوف مع أمريكا من أجل اليهود .. ولكن استطاع اليهود أن يجدوا سبلا أخرى .. وجدوا ترومان وساندوه .. وكان أول من اعترف بإسرائيل . وأول من وضع قاعدة أن تتلقى إسرائيل أكبر المساعدات . فأخذ من النقطة الرابعة ما يعادل ما أخذته كل الدول العربية رغم أن هذه الدول يبلغ عدد سكانها ما يعادل إسرائيل أربعين مرة ..

وأصبحت أمريكا هدفاً منظماً لكل المسئولين من وزراء وموظفين صغار .. كلهم يحاضرون عن إسرائيل ويشرحون قضيتها ويجدون المساعدات المالية والأدبية .. وتشكلت جمعيات نسائية تجمع التبرعات وتدعو إلى إسرائيل .. وكانت هذه الجمعيات تتردد على الهيئات المسيحية .. والرياضية .. والمستشفيات ..

أما فى داخل أمريكا فكانت لليهود مواقف شديدة التعقيد .. فاليهود أقلية والزنوج أقلية أيضاً .. ولكن الزنوج أقلية فقيرة .. واليهود أقلية غنية .. واليهود أقلية بيضاء .. فهم أقلية حتى بين البيض .. وهذا ما يضايق اليهود فهم يريدون أن « يتلاشوا متماسكين » فى المحيط الأبيض ..

ولذلك وعد اليهود الزنوج منذ وقت طويل بأن يقفوا إلى جوارهم . لأنهم قد تعذبوا مثلهم . واتجه الزنوج إلى اليهود .. ولكن اليهود ارتقوا السلم الاقتصادى وابتعدوا ..

ففى مدينة نيويورك يوجد مليون ونصف مليون زنجى .. يخضعون لسيطرة البوليس اليهودى والمدرس اليهودى والمحامى اليهودى وصاحب المحل اليهودى .. وصاحب البيت وصاحب الدكان والسمسار والطبيب .. وكلهم من اليهود . ولذلك كانت كراهيتهم لليهود أقوى من كراهيتهم للأمريكان المسيحيين .. وعندما نشبت حرب يونيو تظاهر الزنوج ضد إسرائيل .

وحدثت مشكلة أخرى .. لقد تحول عدد من الزنوج إلى الديانة اليهودية . وهؤلاء الزنوج لا يعتبرون أنفسهم زنوجاً ..

ثم أن هناك ثلاثين ألف طفل غير شرعي من آباء زنوج .. وهؤلاء الأطفال يجب أن يدخلوا مدارس اليهود . وأن يتلقوا المساعدات اليهودية وأن يعاملهم اليهود على أنهم من لون آخر ..

وفي سنة ١٩٥٤ أصدرت المحكمة العليا قراراً ببطلان قرار سابق بأن الزنوج متساوون ولكنهم منفصلون . واعتبرت هذا القرار خرقاً للتعديل الرابع عشر للدستور الأمريكي . وجاء هذا الحكم عادلا .. ولكن كثيراً من الأحكام القانونية اسعدت رجال القانون فقط . ولكن ليس لها أي تفسير في الحياة العامة .. فالزنوج في عزلة معقدة مريضة ، ويزداد اليهود تعالياً وثراء في أمريكا ..

ومن أهم صفات اليهود أيضاً أنهم لا يتركون هيئة أو مذهباً لا يتسللون إليه ويتعصبون له كأنهم أصحابه .. أو ينسفونه من الداخل .. وفي الحالتين يحاول اليهود : أن يوجهوا كل شيء إلى ناحية خاصة تنفعهم — كل دين وكل مذهب .. بما في ذلك الديانة المسيحية .

فهم الذين أثاروا الشبان في ضاحية جرينتش في نيويورك .. وهم الذين مزقوا ملابس الشباب تحت شعارات مختلفة : الوجودية .. والإباحية .. والحرية العارية .. والعراء ..

وهم الذى يصدرون كل الصحف والمجلات العارية ..

وهم الذين يسيطرون على تجارة الدعارة ..

ويملكون ويديرون الكباريهات .. وهم الذين يسيطرون على تجارة النساء في أمريكا وأوروبا .

وهم الذين نشروا الخنافس في أوروبا وأمريكا ..

وهم الذين اخترعوا ظاهرة « الهيبيز » .

والطبيب الذى أعاد تركيب حقن الهلوسة هو أستاذ جامعي يهودى .

وهو الذى أقام مستعمرات للهذيان .. ومحطات لتدخين الحشيش .. والوصول إلى القدر وأنت فى مكانك .. والسفر إلى العالم الآخر وانت على قيد الحياة .. ومن الذى قال إن أمك وأختك وابنتك حرام عليك — وشعارات أخرى كثيرة .

وكذلك مظاهرات الطلبة فى فرنسا وفى ألمانيا ..

وهم الذين ثاروا على بوريت كيندى سنة ١٩٤٨ .

وهم الذين دفعوا مؤلفة يهودية هى بربارا جارسون لأن تهاجم جونسون فى مسرحية « ليدى ماكبرد » التى تتهم فيها جونسون بأنه هو الذى قتل كنيدى وليس القاتل اليهودى أوزوالد .. وقاتل القاتل اليهودى روبنستين ..

ومن الواضح بعد الحرب العالمية الثانية أن اليهود اتجهوا إلى إعادة كتابة تاريخ المسيحية .. وتأكيد أن الدين — وليس التفكير الحر المستقل — هو الذى جعل المسافة بين اليهود والمسيحيين عميقة .. وأن هذا التعصب الدينى هو الذى جعل اليهود مسئولين عن صلب المسيح .. ولذلك جاءت كتب ومسرحيات وأفلام ما بعد الحرب تحاول بكل قوة أن تغير هذا المعنى .. واتجه اليهود أيضاً إلى الفاتيكان يحاولون أن يجدوا وسيلة للعفو عن اليهود وتبرئتهم من دم المسيح .. وقد ذهب المليونير جاكوب بلاوشتاين وعضو وفد أمريكا فى الأمم المتحدة لمقابلة البابا فى سنة ١٩٤٩ — وبحث مشروع العفو عن اليهود .

وتجددت المحاولات التى انتهت بقرار المجمع المسكونى فى جلسات متعددة بالعفو عن اليهود ..

وشىء آخر قد ظهر على الشاشة وقبل الشاشة ظهر على أقلام الكتاب اليهود — وهم كثيرون الآن فى أمريكا؛فقد رأينا أفلاماً تمجد اليهود .. بل كثيراً ما رأينا البطل أو البطلة تقول : لى الشرف أننى يهودية وهذا ما حدث فى فيلم «فتاة مرحة » بطولة اليهودية بربارا استريزاند وعمر الشريف ..

وحتى على مستوى الأمم المتحدة لم يجد أرثر جولدبرج رئيس الوفد الأمريكى فى الأمم المتحدة حرجاً فى أن يقول إنه يهودى وأمريكى فى نفس الوقت .. ومن المعروف أنه منذ طفولته وهو من أشد المتعصبين للصهيونية .. وكذلك الأخوان رستو المستشاران للشئون الخارجية ..

أما الأدباء والشعراء فهم أكثر وضوحاً وإلحاحاً فى المباهاة بأنهم يهود أولا وأمريكان ثانياً .. والأسماء كثيرة : سالنجر .. ونورمان مايلر .. وبيلوا .. ومالمود .. وأودتس كوفمان وبن هشت وشولبرج ووبدمان .. وغيرهم ..

وعادت القبائل اليهودية إلى برج بابل مرة أخرى .. عدة لغات وألوان وعقائد ومذاهب .. وتناقضات .. ولكنهم هذه المرة يعرفون المكان الذى يريدون بعد ذلك .. إن اليهود يعيشون فى جزيدة محاطة بأناس يحقدون عليهم ولا يصدقونهم .. ومن المستحيل أن يعطفوا عليهم .. إنهم شعب غريب فى ظروف أشد غرابة .. فهم يحاولون أن يكون لهم مستقبل وأن ينسوا ماضيهم .. ولكن ماضيهم هو الذى دفعهم إلى مستقبلهم .. ومستقبلهم هو الذي يخيفهم أن يرتدوا إلى ماضيهم مرة أخرى .. وإذا حاولوا أن ينسوا .. فالشعوب الأخرى لن تنسى ..

يهودية أطلقت الرصاص على لينين

اليهود يصفون أنفسهم بأنهم زنوج الاتحاد السوفيتي : فليس مسموحاً لهم بتشكيل جمعيات أو هيئات أو الاتصال بالهيئات اليهودية في العالم .. ثم إن الصهيونية ممنوعة قانوناً !

والعداء للصهيونية قديم في روسيا، فمنذ أيام القيصرية يلقى اليهود أنواعاً من العذاب والهوان لا مثيل لها في تاريخ أوروبا . ففي أيام القياصرة حددت المدن التي يعيش فيها اليهود .. وسحبوا من القرى .. وأقفلت الدكاكين والفنادق التي يملكونها .. وصدرت قرارات عسكرية بتجنيد اليهود في سن الثانية عشرة ولمدة ٢٥ سنة ، حتى لا يتجمع اليهود في شكل خلايا نشطة في جسم روسيا .. وعندما طالب اليهود بوطن داخل روسيا أعطتهم الحكومة إحدى الولايات على أطراف سيبيريا .. على حدود الصين واليابان .. حتى لا يفكروا في وطن آخر خارج روسيا .

ولكن اليهود في كل العصور كانت لهم سياسة واحدة : أن يتسللوا

إلى تنظيم ، ووراء التنظيم ينظمون أنفسهم ..

ففى ظل القيصرية : تآمروا عليها .. وفى ظل الشيوعية : تآمروا عليها .. وكانت طاعتهم المطلقة للحكومة السرية المعروفة باسم « القهال » وهى التى تخضع للحاخام الأكبر فى كل بلد ..

وفى أى مكان يختاره اليهود يقيمون حول أنفسهم حائطاً ويبكون وراءه وهم يتآمرون .. حدث ذلك فى روسيا القيصرية وفى الاتحاد السوفيتى .. وكل مؤامرة سارع اليهود إلى الاشتراك فيها ..

فالإمبراطور الكسندر الثانى الذى اغتيل فى أول مارس سنة ١٨٨١ كان من بين الذين تآمروا على قتل فتاة يهودية اسمها خاسيا هلفان ..

وعلى أثر هذا الحادث انتشرت موجات الكراهية ضد اليهود ،وطردوا ونقلوا من كل المدن الروسية ..

وقبل ذلك فى سنة ١٨٧١ عرف اليهود أولى المذابح الهائلة فى مدينة أوديسا بروسيا .

● ● ●

وما زالت حوادث الطرد والتعذيب تنتشر ضداليهود فى روسيا وبولندا وأوروبا الشرقية إلى أن بلغت قمتها يوم ٢٥ مارس سنة ١٩١١ عندما وجد البوليس طفلا مسيحياً عمره ١٢ سنة وقد نفذت السكاكين فى لحمه ٤٧ مرة . أما دمه فقد امتصه اليهود . وصنعوا منه الخبز التقليدى فى أحد الأعياد الدينية ..

وانتشر الرعب والعداء لليهود فى كل المدن الروسية ..

وبنفس الروح الدموية عند اليهود اشتركوا فى مؤامرة الأطباء المعروفة والتى أعلنتها صحيفة برافدا يوم ١٤ يناير سنة ١٩٥٣ ، فقد تآمر الأطباء اليهود على قتل زعماء السوفييت من الساسة والعسكريين ، واعترف الأطباء اليهود بأنهم على صلة بهيئات أمريكية، وقطعت روسيا علاقتها بإسرائيل فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ .

وأمام الإرهاب فى روسيا القيصرية وأوروبا الشرقية لم يكن أمام اليهود إلا أن ينطووا على كتبهم وعلى دينهم فظهرت فى وجه العذاب الخارجى نزعات دينية متعصبة جامدة . وعلى الرغم من أن أوروبا اجتاحتها نزعات تحررية منذ الثورة الأمريكية فى سنة ١٧٧٦ والثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ فإن اليهود كانوا فى حالة خوف دائم . فهم – بالتجربة – قد لاحظوا أنهم ضحايا كل انقلاب ، وكل ثورة . وأنهم وقود كل حرب . لذلك ينكمش اليهود دائماً . ولكن من بين اليهود أيضاً من يتسللون بسرعة إلى كل معسكر جديد .. لعل حادثاً يحررهم من الشعوب التى يعيشون بينها .. ويهود أوروبا الشرقية هم أجداد يهود العالم كله .. ولولا يهود روسيا وأوروبا الشرقية ما قامت اليهودية العالمية ولا كانت إسرائيل ..

وعندما اشتعلت الثورة السوفيتية فى روسيا ، أحس اليهود أن يوم الخلاص قد جاء . وأن هذه الثورة سوف تنقذهم من عذاب القياصرة والكنيسة المسيحية ولذلك سارعوا بالانضمام إليها وطالبوا بسرعة مساواتهم ببقية الشعوب السوفيتية ، فأصدر لينين القرار التاريخى بالمساواة بين القوميات ، وتحريم العداء العنصرى ، وتحريم قيام القوميات فى نفس الوقت وانتهى العداء للسامية – أى اليهودية فى ذلك الوقت .. ولكن الثورة المضادة فى روسيا استغلت الموقف بسرعة .. ففى نفس العام الذى اشتعلت فيه الثورة فى روسيا أعلن بلفور وعده المشهور بإنشاء وطن قومى لليهود .. فوصف المسيحيون الثورة السوفيتية بأنها ثورة يهودية فقد كان من بين زعمائها عدد من اليهود مثل: سفردولوف رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ومثل زينوفييف رئيس الدولة الثالثة .. ومثل تروتسكى الذى أنشأ الجيش الأحمر .. ولكن اليهود ظلوا يحلمون بالترابط والتماسك وراء ستار الشيوعية التى ساوت بين كل القوميات .

واليهود كعادتهم – لا يضيعون وقتهم، فقد انشغلوا بإقامة المحلات

التجارية حتى كانوا يملكون ثلث دكاكين موسكو .. واتجهوا إلى الطب .. فمن بين كل سبعة أطباء فى روسيا طبيب يهودى .. ومن بين كل تسعة محامين واحد يهودى .. واتجهوا إلى التدريس .. ولكن ظل العالم الخارجى يجهل الكثير عن يهود روسيا .. ويقال إن عددهم كان ستة ملايين عندما وقعت الحرب العالمية الثانية ..

ومن بين اليهود شيوعيون مخلصون يرفضون النزعات القومية - كالصهيونية. ولذلك قدر لهم أن يرتقوا إلى أقصى الدرجات فى روسيا مثل الكاتب إيهر نبورج وخبير الدعاية فيرجيلس والزعيم السياسى كاجانوفتش ..

وظلت روسيا مصممة على ألا يكون هناك تنظيم خاص لليهود ، أو صلات خاصة بيهود العالم .. ولم ير الأمريكان شخصية يهودية روسية إلا فى سنة ١٩٦٨ عندما ذهب حاخام موسكو إلى أمريكا ليؤكد ليهود أمريكا أن يهود روسيا بخير ما داموا بعيدين عن النفوذ الأمريكى .

ولكن سمح الاتحاد السوفيتى لليهود بأن تكون لهم صحفهم الخاصة التى تنشر بلغتهم .. وتركت لليهود الحرية فى إقامة معابدهم .. ولكن الدولة نفسها لا تتعهد بشىء أمام المعابد ، لا مساعدة مادية ولا أدبية .

● ● ●

وعندما نجحت الحركة الصهيونية خارج روسيا . وعرف اليهود فى العالم أنهم فى الطريق إلى أحلامهم . بدأوا يتحدثون عن يهود روسيا . وإمكان مساعدتهم . أو تهجيرهم إلى فلسطين.ولكن روسيا مضت تعارض الصهيونية ففى تشجيع الصهيونية كقومية يهودية تشجيع لعشرات القوميات الموجودة فى روسيا وفى ذلك تمزيق للاتحاد السوفيتى وفى نفس الوقت خلق تناقض هائل فى قلب الفلسفة الشيوعية التى ترفض الفوارق بين الشعوب على أساس من اللون أو الدين أو الجنس .

وعادت روسيا تحاول شيئاً جديداً مع اليهود فى سنة ١٩٢٧ فقد سمحت

لهم بأن يستوطنوا ولاية بيربيجان ومساحتها ١٥ ألف ميل وهى فى الجانب الشرقى من سيبيريا . وكان اليهود ثلث سكان هذه الولاية . فهاجر بعض اليهود إلى هذه الولاية .. وعادوا يفتحون الدكاكين وفتحوا الشوارع .. وأطلقوا اسم الأديب اليهودى المعروف « سلام عليكم » على أحد الشوارع الرئيسية،وأقاموا مسرحاً باسم الزعيم اليهودى سفردولوف . ولكن هذه التجربة أيضاً لم تنجح فلم يذهب كثيرون إلى هذه الولاية النائية رغم حرص يهود أمريكا على مساعدة أهل الولاية .. ولم يصدق اليهود أن السوفييت جادون فى مساعدة اليهود ليقيموا فى مكان أو مدينة أو ولاية وإنما حاولوا فقط إسكانهم . ولذلك لم يسكت اليهود خارج روسيا عن مطالبة يهود روسيا بالهجرة .. ولم يسمح السوفييت إلا بهجرة كبار السن فقط . ومن بين الذين سمحوا بهجرتهم أخ لرئيس وزراء إسرائيل .

حتى لينين الذى كان صارماً فى موقفه من التفرقة العنصرية والذى رفض العداء للسامية نهائياً .. لم يسترح إليه اليهود فاشتركوا فى التآمر على حياته . فأطلقت عليه الرصاص فتاة يهودية اسمها دورا كابلان ، وقد جرح لينين .. ومات متأثراً بجروحه ..

ولم يكن اليهود يطمعون فى أكثر من الذوبان بين الشعوب حتى لا ينتبه أحد إليهم .. فالأقلية لا تكره شيئاً مثل كلمة الأغلبية .. وإذا حدث الذوبان والاندماج فلا أقلية ولا أغلبية وإنما الكل أمام وتحت وخارج القانون سواء ..

ولكن اليهود لا يريدون إلا أن يستفيدوا من المساواة لكى ينفردوا بالتماسك والتسلط لا على روسيا ولكن على العالم كله تحت شعار الصهيونية .. واليهود يبالغون عادة فى كل شىء . فإذا كان من بينهم أديب فهو أعظم أديب . وإذا كان من بينهم سياسى فهو أعظم سياسى .. ولذلك فهم قد بالغوا أيضاً فى دورهم القيادى والزعامى والفكرى فى الاتحاد السوفيتى وفى غيره من الدول القوية ..

● ● ●

وفى الأيام الأخيرة للينين – فى سنة ١٩٢٣ – بدأ الصراع على المكتب السياسى . وكان من بين الستة المتنازعين ثلاثة من اليهود تروتسكى وزينوفيف وكامينوف ولكن ستالين اعتبر نفسه الوريث الشرعى للينين.. فأطاح بالثلاثة .. أما تروتسكى فقد طرده خارج روسيا واغتاله أيضاً . والأخوان نقلا إلى وظائف ثانوية .. وبدأ اليهود يتآمرون على ستالين أيضاً .. وكانت مؤامرة الأطباء ..

أما اليهود الذين ذهبوا إلى فلسطين سنة ١٩٣٠ فكان من بينهم شيوعيون ودوليون وكان من بينهم متدينون متزمتون وكان أيضاً رؤساء .. « اتحاد الملحدين » الذى كان يعمل على تقويض أية نزعة دينية . وكان لهذا الاتحاد دوسيهات ضافية . هذه الدوسيهات قدموها لحكومة ستالين فاعتمدت عليها فى سجن وتشريد ألوف الأبرياء من الروس وغيرهم .. وكان من المعروف فى ذلك الوقت أن اليهود الروس يتجسسون ضد الاتحاد السوفيتى وربما كان التجسس أهم معالم اليهود ، ولذلك حرص الروس على أن يبعدوا اليهود من السلك الدبلوماسى نهائياً .

ولكن بعد الحرب العالمية الثانية وبعد مذابح هتلر ارتفع صوت اليهود .. وبدأوا يتحدثون عن « لم الشمل » وعن ضرورة الإبقاء على البقية التى عاشت رغم الحرب الثانية .. وضرورة أن يكون هناك وطن للمشردين .

ولما قررت الأمم المتحدة الاعتراف بإسرائيل اتفقت أمريكا وروسيا على ذلك . وكان هذا اتفاقاً نادراً بين أعظم دولتين فى العالم .

ولما أقامت إسرائيل سفارة لها فى موسكو . كانت السفارة تخضع لرقابة شديدة . وحرص موظفو السفارة الإسرائيلية على أن يترددوا على أماكن العبادة ، لا إيماناً ولكن حرصاً على التقاليد وتحدياً للسوفيت .. وعطفاً على اليهود الموجودين فى أماكن نائية من روسيا .. وإذا حدث أن عثر البوليس السوفيتى على أى منشور لسفارة إسرائيل عند أى يهودى فمصيره

الاعتقال أو الفصل .

وكان اليهود يفسرون موقف روسيا من قبول التقسيم سنة ١٩٤٨ أن روسيا حريصة على أن تكون هناك دولة عربية مستقلة .. أى على زيادة الدول المستقلة في المنطقة .. وعلى أن تكون هناك إسرائيل اليسارية للتوازن مع الإمارات البترولية الرجعية . ولكن بشرط ألا يكون هناك أى اتصال بين يهود إسرائيل ويهود روسيا .

وجاءت الثورة المصرية ورفضت الوضع القائم فى الشرق الأوسط .. ورفضت النفوذ البريطاني والأمريكي فى المنطقة . ورفضت حلف بغداد .. ورفض جمال عبد الناصر كل المساعدات التى عرضت عليه من الأمريكان، ولم يقع فى أى إغراء غربى ليتزحزح عن موقفه ضد الوضع القائم فى الشرق بعد إسرائيل .. وسارعت روسيا ووقفت وراء العرب ووقفت وراء مصر باعتبارها دولة غير منحازة .

وفى سنة ١٩٥٥ انكسر احتكار السلاح . وارسلت روسيا عن طريق تشيكوسلوفاكيا أسلحة جديدة إلى مصر ، وعندما انسحبت أمريكا من تمويل السد العالى « تقدمت روسيا » وأصبح واضحاً أن روسيا تساند كل قوى التحرر العربى فى المنطقة .. وأصبح الشعار المرفوع فى الشرق الأوسط : أن الصهيونية نازية عنصرية .

ومنذ سنة ١٩٦٠ لم تسمح روسيا إلا بهجرة ثمانية آلاف يهودى كبير السن إلى إسرائيل،وكان من المألوف فى كل مرة يذهب خروشوف إلى أوروبا أن يلتف حوله الصحفيون ويسألوه : وأين يقيم اليهود فى بلادكم . وكان يرد بأن نائب رئيس الوزراء يهودى ، وأن نائب رئيس تحرير برافدا يهودى وأحياناً كان يقول إن زوجة ابنه ليونيد يهودية . وكان من المعروف ان ابنة ستالين التى ذهبت إلى أمريكا قد تزوجت أربع مرات .. مرتين من اليهود .

وكان خروشوف قد سمح للشاعر يفتشنكو – وهو متزوج من يهودية بأن يمتدح اليهود .. وأن يعلن بأنه يدرس اللغة العبرية .. وبأن ينشر قصيدته المعروفة « بابى بار » التى يستنكر فيها مذابح اليهود فى روسيا وفى غيرها .. فى العالم .. وفى مصر الفرعونية .. وأصبح الشاعر يفتشنكو شهيراً بعد أن نظم هذه القصيدة فى سنة ١٩٦١ .

ولم يتوقف الاتحاد السوفيتى فى موقفه العدائى لإسرائيل باعتبارها قاعدة للصهيونية التى هى حيلة استعمارية للقضاء على وحدة الطبقة العاملة فى العالم كله .. وفى سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ اتهمت روسيا إسرائيل بنزعاتها التوسعية على حساب العرب .. وتهديد السلام العالمى واضطرت روسيا إلى إبعاد اليهود الرسميين من الدول الأوروبية الشرقية لموقفهم الصريح المؤيد لإسرائيل .

وواضح جداً أن الاتحاد السوفيتى يقاوم بشدة كل نزعة صهيونية فى داخل روسيا وفى كل الدول الاشتراكية الأخرى ..

ولكن المشاكل كلها انتقلت إلى إسرائيل : الألوان والمذاهب واللغات والفقراء والأغنياء والمهاجرون والمواليد والذين يحلمون بالهدوء والذين يريدون أن يفروا من الحرب .. وأصبحت الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية فى حاجة إلى معجزات لكى ترضى جميع الأطراف .. وكان لأديب الروسى الذى اسمه سلام عليكم (١٨٥٧ – ١٩١٦) يسخر من الخلافات والمنازعات التى بين اليهود .. فهم لا يتفقون على رأى ولا على مصلحة ولذلك كانوا فى حاجة إلى أنبياء فى غاية القسوة .. ومع ذلك كانوا يقتلون أنبياءهم . ويقول سلام عليكم : إن اليهود فى إحدى المدن الروسية أقاموا لهم حماماً عمومياً .. وبعد أن تم بناء الحمام اختلفوا على الدكك التى يتمدد عليها المستحمون : هل نجعل خشبها ناعماً أو نتركه خشناً كما هو .. وفى الحال انقسم اليهود إلى حزبين : حزب تنعيم الخشب ..

وحزب تخشين الخشب .. وأنصار التنعيم يحرصون على ذلك حتى لا يصاب جسم المستحم بجروح .. وأنصار التخشين يرون أن الخشب الناعم سوف يؤدى إلى أن ينزلق المستحم إلى الأرض .. ولم يتفق اليهود على رأى .. وجاء أحد الحاخامات وانهال ضرباً على الجميع . ثم أعلن أنه وجد الحل وكان الحل هو : أن نجعل الدكك ناعمة من وجه واحد فقط .. وأن نجعل هذا الوجه في اتجاه الأرض حتى لا ينزلق أحد فتنكسر رقبته... ووافق اليهود .

وفى كل مكان يلتقى فيه اليهود فى العالم يبحثون دائماً عن أين يوضع الجانب الناعم أو الجانب الخشن من الدكك .. أو الدين أو السياسة ..

لليهود كأفراد : أى شىء
لليهود كشعب : لا شىء

فرنسا دولة عريقة فى عدائها لليهود ..

فلم تسمح لليهود بأن يكون لهم كيان سياسى قوى ، ولا نظام اجتماعى متين .. بل كان على يهود فرنسا أن ينتظروا الثورة الفرنسية .. التى وضعت العقل فوق القلب ، والشعب فوق النبلاء ، والضمير فوق الكنيسة وساوت بين اليهود والمسيحيين .

وعلى الرغم من أن أربعة رؤساء وزراء لفرنسا حتى سنة ١٩٣٠ كانوا من اليهود ، وأن عدداً من الموسيقيين مثل أوفنباخ وبيزيه والأدباء مثل مونتنى وبروست وموروا وكيسل وديهامل ورومان ومن الرسامين مثل بيسارو ومود ليانى ، والفلاسفة مثل برجسون ، فإن فرنسا كانت منبع نظريات التفرقة العنصرية وسيادة الجنس الآرى على الجنس السامى — أى على اليهود ..

ويمضي المؤلف اليهودى باريت ليتفينوف الإنجليزى اللغة الروسى المولد ، والذى أول من أصدر كتاباً عن بن جوريون وكان ضابطاً فى الجيش الإنجليزى ضد رومل ، فى عرض كتابه « شعب غريب — دراسة فى قلب العالم اليهودى اليوم » ويقدم لنا فى هذا الكتاب معلومات وأفكاراً غريبة . كثير منها نعرفه لأول مرة .. وهو بذلك يعرض لنا صورة سرية لما يدور فى عقل اليهود .. ومن الضرورى أن نعرف ما الذى يدور فى عقل اليهود أعدائنا اليوم وغداً وبعد غد، أعداء الإسلام ومقدسات الإسلام ..

فمنذ الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ حتى دخول الألمان فرنسا سنة ١٩٤٠ استقبلت فرنسا مئات من اليهود الممتازين ، ولكنها لم تتحمس للمجموعات اليهودية .

فلا يزال المثل الأعلى للمواطن الفرنسى هو : المدرس الكافر بالأديان والذى يعتقد أن فرنسا هى أم الدنيا ، سواء كان بها يهود أو لم يكن ..

أما اليهود أنفسهم فلم يفلحوا فى تحقيق شىء له قيمة .. بل إنهم كانوا فى أقصى درجات الميوعة لأنهم تحولوا عن دينهم إلى المسيحية . وجعلوا الكهنة خداماً لهم . ولم يسفر أى نشاط لليهود إلا عن « اتحاد فرنسى إسرائيلى » سنة ١٨٦٠ من أجل تعليم أبناء اليهود فى شمال أفريقيا والبلقان والشرق الأوسط..

ويحرص اليهود على أن يصوروا نابليون كأحد أعدائهم .. ولكن نابليون لم يكن يفكر فيما يدور فى رؤوس اليهود .. وإنما هو رجل سياسة يريد أن يلعب بهم وبغيرهم من أجل أن يحقق أطماعه السياسية والمالية . وقد عاد اليهود إلى نابليون يطلبون إليه أن يحقق المساواة لليهود . وكانت الثورة الفرنسية قد وعدت بذلك وأصدرت قراراً بأن اليهودى مواطن فرنسى . ولكن الشعب لا يزال يرى اليهودى مواطناً لا ولاء له ولا أمان له .. وكان قرار الثورة الفرنسية المشهور قد صدر يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩١ .

وفى ٣٠ مايو سنة ١٨٠٦ اجتمع ١١٢ يهودياً غنياً فى باريس بدعوة

من نابليون وكان عليهم أن يجيبوا عن ١١٢ سؤالا . من بينها : إن كان الدين اليهودى يسمح بتعدد الزوجات وإن كان يسمح أيضاً بالزواج من مسيحية أو من مسيحى .. وإن كان اليهودى يشعر بأى إخلاص أو ولاء لفرنسا .. هل صحيح أن الربا حلال إذا كان من اليهود ..

وأجاب اليهود . وبعثوا بالرد إلى نابليون .. وأعلن مندوب نابليون فى هذا المؤتمر اليهودى العالمى الذى ليس له نظير فى كل تاريخهم بأن الإمبراطور يمنح اليهود شرف المواطن الفرنسى ، ويسحب هذا الشرف إذا خانوا فرنسا .

وفى ١٧ مارس سنة ١٨٠٨ أصدر نابليون القرار التاريخى الذى وصفه اليهود بأنه « قرار شائن » فقد كان على كل يهودى يريد أن يفتح دكاناً أن يثبت حسن سيرته وسلوكه لدى الهيئة الدينية ولدى الإدارة المحلية .. أما إذا قرر اليهود أن يعيشوا فى منطقة الراين ، فلا بد أن يعملوا فى فلاحة الأرض ، وليس فى التجارة أو السمسرة .

وانطلقت العبارة اليهودية المشهورة : إن فرنسا صحراء يهودية .. أما الواحة الوحيدة فى هذه الصحراء فهى : منطقة الألزاس واللورين التى تعيش فى ظل الاتفاقية المشهورة التى تفصل بين الدولة والكنيسة .. وبذلك أمكن أن يتعايش فيها الكاثوليك والبروتستانت واليهود ..

وحتى يهود فرنسا لم يكونوا على وفاق تام فهناك اليهود الشرقيون الهاربون من اضطهاد محاكم التفتيش فى إسبانيا .. وهم الذين يطلق عليهم اسم : سفرديم .. ومن بينهم الرئيس منديس فرانس، الطيار الذى جاء يقضى إجازته فى باريس تاركاً موقعه فى سوريا عندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية .. وهناك اليهود الغربيون الذين يطلق عليهم اسم : اشكنازيم .. ويمثلهم الرئيس رينيه ماير وهو العدو اللدود لمنديس فرانس ..

وحول هذين اليهوديين تمزق شمل اليهود فى فرنسا .. وعندما دخل

الألمان فرنسا سنة ١٩٤٠ أحس اليهود أن هذه هي نهايتهم .. وأحس الفرنسيون أن اليهود هم السبب . ولم يكن يجمع بين هؤلاء اليهود شيء : سوى الخوف المشترك من النازية ثم حدث ما هو معروف .. اعتقل مئات الألوف وشحنوا إلى معسكرات الاعتقال والسجون وهرب من البلاد كثيرون .. وهرب منديس فرانس .. وهرب رينيه ماير .. وهرب الكاتب أندريه موروا إلى أمريكا ..

أما القنصل الأمريكي في مارسيليا فقد كان يساعد الجميع على الهرب إلى أمريكا .. فهرب الرسام الروسي اليهودي مارك شاجان إلى أمريكا .. وهرب الفيلسوف المسيحي جاك ماريتان ومعه زوجته اليهودية واسمها رئيسة التي توفيت في سوريا بعد ذلك ..

وكانت تعاسة الفرنسيين لا حد لها .. فقد أيقن الفرنسيون أن اليهود هم مصدر البلاء على البلاد .. وأن الجمعيات الماسونية وغيرها من الجمعيات السرية هي التي أغرت هتلر بتحطيم فرنسا بحثاً عن الأعداء الحقيقيين للشعب الفرنسي وللإنسانية كلها .. وتحول كثير من اليهود إلى المسيحية .. أما أطفال اليهود فقد هربوا إلى سويسرا وإلى إسبانيا .. أو إلى الأديرة المسيحية .. أو تبنتهم عائلات فرنسية ..

وتزاحم اليهود في مدينة « كان » لدرجة أن أحد الفرنسيين اقترح أن يكتب الفرنسيون اسم هذه المدينة هكذا : كاهن ..

ومن القصص الغريبة التي يرددها اليهود قصة أطفال أسرة فنالي .. هؤلاء الأطفال أرسلهم أقاربهم إلى أحد الأديرة هرباً من النازي ومات الأب والأم في معسكرات الاعتقال ..

ولكن أقارب آخرين في نيوزيلندا شرعوا في البحث عن هؤلاء الأطفال . وبعد ثماني سنوات عثروا عليهم في أحد الأديرة المسيحية . وطالب اليهود بأطفالهم وضرورة عودتهم إلى الديانة اليهودية . وكان ذلك

سنة ١٩٥٣ .. وكان أحد رجال المليونير اليهودى روتشيلد رئيساً للوزراء فى ذلك الوقت . ولذلك أفلح فى العثور على الأطفال . وثار اليهود فى أمريكا وطالبوا بضرورة إعادة الأطفال إلى أقاربهم وإلى دينهم ..

ولكن يهود أمريكا الذين تحمسوا أيضاً لإنقاذ الزوجين اليهوديين جوليوس روزنبرج المتهمين بالتجسس . فقد أعدم الاثنان . ولم يثر يهود أمريكا .. فاندهش يهود فرنسا ويهود العالم أيضاً .

وحدث فى فرنسا أثناء الحرب وبعدها ما حدث قبل ذلك عند إثارة قضية الضابط اليهودى دريفوس . فقد ارتفعت النزعة القومية ضد اليهودية ، والدينية ضد اليهودية ..

فقضية ضابط المدفعية دريفوس قد أثيرت سنة ١٨٩٧ عندما وجهت إليه تهمة التجسس ضد فرنسا لصالح ألمانيا . فحوكم واتهم بالخيانة وجردته المحكمة من ألقابه ونياشينه وكسروا سيفه وأدخل السجن .. فأدى ذلك إلى إشعال العداء ضد اليهود فى فرنسا وفى شمال إفريقيا .. وصدرت صحف ضد اليهود .. وصحف مسيحية متعصبة ضد اليهود .. وتعالت نفس الصيحات التى تعالت فى روسيا عندما اعتدت فتاة يهودية على القيصر وقالوا : الموت لليهود الذين قتلوا سيدنا المسيح وأبانا الإمبراطور !

وما حدث فى فرنسا كان لا بد أن يكون له صدى قوى فى شمال إفريقيا .. ففرنسا حكمت الجزائر سنة ١٨٣٠ .. وحكمت تونس سنة ١٨٨٠ وحكمت مراكش سنة ١٩١٢ ..

وفى الجزائر كان اليهود مواطنين فرنسيين .. وفى نفس الوقت كانوا معزولين عن الفرنسيين وعن المسلمين .. ويهود الجزائر أيضاً هم سلالة يهود إسبانيا الهاربين من محاكم التفتيش . وكان على يهود الجزائر أن يرتدوا زياً خاصاً : طاقية سوداء وعباءة رمادية وحذاء من غير كعب . لكى يتميزوا عن الناس .. ويتركز عليهم احتقار الشعب لهم ..

وفى مراكش كان اليهود متخلفين اجتماعياً وعلمياً . وعلى الرغم من المحاولات اليهودية العالمية لتطويرهم فقد بقى اليهود على حالهم من العزلة فى المدن أو فى الصحراء .. واليهود يذكرون أن بعضهم حاول أن يوقف الفتح الإسلامى فى القرن السابع .. وحاولت سيدة اسمها « كاهينا » أن تنظم جيشاً صغيراً .. ولكنها فشلت وقتلت هى ورجالها ..

وفى العصر الحديث كان اليهود يخضعون لإشراف السلطان نفسه وكان العداء لهم شديداً . ولذلك قيد السلطان حريتهم حتى لا ينتشروا فى البلاد ويستولوا على أسواقها التجارية ويشيعوا فيها الانحلال الأخلاقى والدينى ..

أما بعد الحرب العالمية فقد أصبحت اليهودية قضية عالمية .. ونشط اليهود وغيرهم لينتقموا من الألمان .. وليتقاضوا ثمن الأرواح التى قتلها الألمان .. واشتغل فى العالم العربى كله لليهود ..

وعندما ظهر جمال عبد الناصر وهو أول زعيم عربى له أهمية عالمية ، بلغ العداء لليهود أقصى درجاته . وتحول الشرق العربى إلى ميدان قتال . وأحس اليهود فى فرنسا أنهم سيكونون ضحايا لهذا الصراع مرة أخرى ..

وفى سنة ١٩٥٦ أمم جمال عبد الناصر قناة السويس فانتقلت بسرعة طائرات المستير من مدينة طولون إلى تل أبيب ..

ومن المؤكد أن الصراع الفرنسى فى الجزائر قد ضاعف من عداء العرب لليهود ، وأحس الفرنسيون أنهم لا بد أن يقفوا وراء إسرائيل التى تعادى العرب . وانتشرت موجة وراء موجة من العطف على اليهود ، والإشادة بالفكر اليهودى .. وأصبح ظهور الباعة المتجولين فى أحياء فرنسا مشهداً يثير الشفقة والإعجاب أيضاً .. وسافر كثير من الفرنسيين إلى إسرائيل .. وسافر أحفاد روتشيلد إلى إسرائيل ليروا المستعمرات التى أقامها أجدادهم فى فلسطين منذ أكثر من سبعين عاماً ..

ولكن اليهود فى فرنسا تساءلوا : إلى متى يدوم شهر العسل بين فرنسا

وإسرائيل ؟ ولما جاء ديجول إلى الحكم واستقلت الجزائر انسحب ٩٠٠ ألف فرنسي ومن ورائهم اليهود إلى فرنسا . وكان هذا حادثاً مفزعاً لليهود في جميع أنحاء العالم .. فهذه أول مرة في التاريخ يكتشف اليهود أن هناك عدداً كبيراً من اليهود لم تجتذبهم الصهيونية العالمية ..

فليس من بين هؤلاء اليهود واحد يريد أن يهاجر إلى إسرائيل .. بل إن هؤلاء اليهود الفرنسيين قد تفرقوا في كل فرنسا .. وعاشوا في قرى ومدن لم تر يهودياً واحداً في كل تاريخها .. ومن الغريب أنه في سنة ١٩٦٧ لاحظ الفرنسيون أن إحدى المدن في غرب فرنسا كان كل رجال الشرطة فيها من اليهود الجزائريين !

وعندما تعرض ديجول في سنة ١٩٦٨ لمظاهرات الشوارع في باريس ، وتزعم اليهود هذه المظاهرات ضده .. وأحس ديجول أنه وقع تحت ضغط وإلحاح وحرب أعصاب يهودية قال عبارته المشهورة الساخرة : إنهم شعب مختار مغرور متسلط !

وانتقلت هذه العبارة إلى كل الدنيا وهاجمها اليهود بكل لسان . وتحمس المفكر اليهودي ريمون آرون وأصدر كتاباً هاجم فيه ديجول ووصفه أنه يريد أن يجعل من « اليهودية » قضية ..

ولا يزال اليهود يحاولون أن يجعلوا من الفرنسيين حليفاً ، مثل أمريكا وبريطانيا ولكن الفرنسيين لا يستجيبون لهذه النزعات الصهيونية — أي القومية اليهودية — ولا يزال الفرنسيون يوازنون بين ما أصابهم على أيدي الألمان بسبب اليهود وما يمكن أن يصيب مصالحهم في العالم العربي ، بسبب اليهود مرة أخرى .

واليهود يرون أن ألمانيا هي التي زودتهم بالفكر وأوروبا الشرقية زودتهم بالرجال وأمريكا بالمال ، وبريطانيا بوعد بلفور ، وإسرائيل هي التي أشعلت النيران القومية .. أما فرنسا فلم تقم بالدور الذي يحلم به اليهود ..

ويريدون أن يكرهوها عليه ..

والعبارة التى قالها أحد اليهود إبان الثورة الفرنسية ما تزال إلى حد كبير كالشعار .. يحمله الفرنسيون: من أجل أى فرد يهودى، أى شيء ... ومن أجل الشعب اليهودى : لا شيء ! !

الجيل الجديد يفضل الحياة بعيداً عن إسرائيل

أكثر الناس إيماناً بالمعجزات هم يهود بريطانيا وعددهم مائة ألف . فقد كان هتلر على الجانب الآخر من بحر المانش ولم يفلح فى أن يضعهم فى غرف الغاز .. بل إنه خسر الحرب كلها . هذه المعجزات لم يعد يؤمن بها الجيل الجديد من اليهود الإنجليز .

وفى سنة ١٩٤٥ كان يهود بريطانيا يملكون ما هو أكثر من الدموع حزناً على ما أصاب ملايين اليهود فى أوروبا ..

فقد خرج أغنياء اليهود فى بريطانيا من الحرب العالمية الثانية أكثر غنى بينما كانت بريطانيا محترقة جائعة ...

ولكن يهود بريطانيا عاشوا أكثر من ثلاثة قرون دون أن يتحطم لهم معبد ودون أن يختنق لهم طفل ..

بل إن المسرحية التى أخذت من قصة الفتاة اليهودية البولندية (آن

فرانك) عندما عرضت فى لندن بعد الحرب الثانية ، لم يذهب لمشاهدتها يهودى واحد ! !

إن يهود بريطانيا طراز آخر عجيب من يهود العالم ...

ويمضى المؤلف الإنجليزى اليهودى بارنيت لتفينوف في عرض كتابه « شعب غريب » فيروى لنا أعجب وأغرب الأحداث فى تاريخ الشعب اليهودى فى العالم كله ويقول لنا إن يهود بريطانيا تغير موقفهم فجأة وبعنف فى مايو ويونيو سنة ١٩٦٧ . فقد أحس اليهود أن حرب يونيو أقسى وأعنف من موقعة دنكرك سنة ١٩٤٠ . وأن خطراً عالميا يتهددهم بالضياع والتشريد من جديد ... ولذلك تطوع للقتال أكثر من ثلاثين ألفاً من اليهود . وتبرع بالمال عشرات الألوف من النساء والأطفال من أجل فقراء وأطفال إسرائيل . وإذا كان عدد كبير من اليهود الإنجليز واجه الحكم النازى فى ألمانيا بالتحول إلى المسيحية والشيوعية والزواج من المسيحيين ، فإن حرب يونيو قد جعلت اليهود يشعرون بأن مرحلة تاريخية عنيفة قد بدأت . فهتلر قد أنهى مرحلة التعذيب والهوان ، وإسرائيل بدأت مرحلة أخرى فى حاجة إلى كل مال وخبرة من كل يهود بريطانيا ويهود العالم ...

وبنهاية حرب يونيو ، ارتبط يهود بريطانيا بيهود إسرائيل .

وتاريخ يهود بريطانيا غريب فى نوعه . فقد بقى اليهود ثلاثة قرون من أيام كرومويل لم يمسهم أحد بسوء . وإن كان اليهود قد حاولوا كثيراً أن يتساووا بالمواطنين الإنجليز . وقد فشلت هذه المحاولات الواحدة بعد الأخرى . ولم يعرف يهود بريطانيا اليأس. فقد قرر اليهود فيما بينهم أنه من الضرورى ألا يواجهوا الشعب الإنجليزى ولا أن يعارضوه .. وإنما من الضرورى — ما داموا أقلية ضعيفة — أن يستخدموا نفس القوانين وأن يتضامنوا عن طريقها . وأن يشد كل واحد منهم الآخر إلى أن يصبحوا قادرين على الجلوس على مائدة واحدة وإملاء شروطهم ..

وأول محاولة جادة للمساواة بين اليهود وبين الإنجليز كانت فى سنة ١٧٥٣ ؛ فقد صدر مشروع بقانون الجنسية الذى يساوى بين اليهود وبقية الشعب. وثار الشعب على هذا القانون . وامتلأت الشوارع بالمنشورات التى تفضح السماسرة وتجار الرقيق الأبيض من يهود بريطانيا .. وارتسمت على الجدران صور فاضحة وساخرة لليهود وكل من يقف وراءهم أو أمامهم .. وبعد أن وافق البرلمان على هذا المشروع ، عاد فسحب هذا المشروع لكى تهدأ خواطر الناس . وعاد اليهود يطالبون بالمساواة بعد أن ظهر منهم عدد كبير من الأثرياء ذوى النفوذ المالى فى بريطانيا والمستعمرات مثل : ناثان روتشيلد وسالموتز ومونتفيورى ...

وفى سنة ١٨٣٠ أعيد المشروع إلى البرلمان الذى رفضه مرة أخرى أمام سخط الجماهير .

وجاء لورد ماكولى وأيد المشروع . فوافق مجلس العموم . أما مجلس اللوردات فقد أوقف المشروع ، ووجد اليهود فى بريطانيا صعوبات فى الحياة العامة. ففى كثير من الوظائف لا بد أن يقسم اليهودى : أن يكون مخلصاً للديانة المسيحية الحقة ... وهو عادة يرفض القسم فلا يفوز بالوظيفة . ولم يتمكن المليونير روتشيلد أن يكون عضواً فى مجلس العموم لأنه من الضرورى أن يقسم بإخلاصه للمسيحية الحقة، ولما أصبح دزرائيلى رئيساً لوزراء بريطانيا وزعيماً للمحافظين – وهو يهودى حوله أبوه إلى المسيحية وهو فى الثالثة عشرة – ألغى هذا القسم سنة ١٨٥٥ . فدخل اليهود مجلس العموم . دخله ليونيل روتشيلد .. وأصبح عددهم الآن ستين عضواً أى بزيادة أربعة عشر عن الكاثوليك الذين يبلغ عددهم أكثر من اليهود ١٦ مرة.

وكما هى العادة بين الأقليات : تماسكوا سراً . ولذلك تأسست « هيئة المندوبين » فى سنة ١٧٦٠ وهذه الهيئة تضم عدداً من الشخصيات اليهودية ، وكان من أهم ما تقوم به هذه الهيئة تهنئة الملك الجديد ، وتأكيد ولاء اليهود

له وللعرش والامتنان للشعب البريطاني .

وعدد أعضاء هذه الهيئة ٤٠٠ عضو. وهذه الهيئة لها صلات واسعة بجميع الهيئات اليهودية في العالم . ولها سلطان قوى على أفراد الشعب اليهودى .. وهي التي تقرر المعونات المالية لإسرائيل .. ولكن هذا لا يمنع أن يقوم الأفراد بتقديم المعونة التي يرونها . فأسرة روتشيلد هي التي تبرعت بإنشاء جديد في إسرائيل .. وحرصت هذه الهيئة أيضاً على أن تضم عدداً كبيراً من الكفايات العلمية والأدبية . فضمت الأدباء والفنانين وأساتذة الجامعات . ولم يكن من الضرورى قبل حرب يونيو الأخيرة أن يعلن العضو أنه يهودى . ولكن بعد حرب يونيو لا بد أن ينتهز العضو أية فرصة ليشهر أنه يهودى، وأنه من أشد الناس حرصاً على إسرائيل. والزعيم المعروف وايزمان لم يكن عضواً في هذه الهيئة رغم أنه كان يستمتع بالجنسية البريطانية منذ سنة ١٩١٠ وهو روسى المولد ولكن أعوان وايزمان من هذه الهيئة استطاعوا أن يقهروا كل معارضة لإنشاء إسرائيل .

وهذه الهيئة يعيب عليها اليهود أنها يهودية ضيقة الأفق . وإن كانت قوية النفوذ . فهي لا تبدى رأيها إلا فيالقضايا التي تهم اليهود . ولا رأى لها في فيتنام ولا في التفرقة العنصرية ولا في الانحلال الخلقى في بريطانيا ولا في الأسلحة النووية .. حتى الفاتيكان عندما ناقشوا قضايا اليهود في سنة ١٩٦٢ ، لم تتحرك هذه الهيئة..ولكن يبدو أن الطابع الإنجليزى قد غلب عليها : برود ولا مبالاة . لأن اليهود الإنجليز قد عاشوا في مجتمع التقاليد، وفي مجتمع التسامح الديني ، بعيداً عن الاضطهاد والخوف من الأغلبية !

ولذلك عندما افترس هتلر يهود أوروبا لم تتحرك هذه الهيئة . ولكن روتشيلد واللورد صمويل قد حاولا مقابلة تشرتشل يعرضان عليه حلولا عملية ومادية لإنقاذ يهود أوروبا . ولكن تشرشل اعتذر عن المقابلة . وقابلهما أنتونى إيدن . وكانت بريطانيا مشغولة بالحرب.

وكان من رأى اللورد صمويل إعادة النظر فى قضية فلسطين وتوطين ثلاثة ملايين من اليهود فى فلسطين ولو أثناء الحرب فقط (؟ !) أما الألمان فقد عرضوا استعدادهم لبيع اليهود ، بعد أن أيقنوا أن الحرب لم تعد فى صالحهم ! وأقام اليهود فى بريطانيا وفى العالم أسبوعاً للحداد على ما أصابهم فى أوروبا النازية .

وبريطانيا لم تكن على صلة بالصهيونية العالمية الا فى منتصف القرن العشرين؛ فالصحفى النمسوى هرتزل هو أكبر أبناء الصهيونية وأكبر الحالمين بالوطن القومى لليهود . وقد ذهب إلى بريطانيا سنة ١٨٩٥ .

وحاول أن يجعل الصهيونية أحد أحلام الإنجليز أيضاً ...

ولكن العالم الكيميائى وايزمان هو أيضاً أحد الذين ساهموا فى تحقيق حلم اليهود. ففى الحرب العالمية الأولى كان وايزمان يعمل فى أحد المعامل التابعة للبحرية البريطانية ونقصت مادة الأسيتون الضرورية للمتفجرات .

وهنا تقدم وايزمان بطريقة جديدة لاستخراج الأسيتون بشكل أسرع وأرخص . وساوم على هذا الاختراع . وعندما جاء وايزمان ــ المولد من سويسرا ــ سنة ١٩٠٥ ليعمل مدرساً فى جامعة مانشستر اتصل بثلاثة من الأقارب هم: سيمون ماركس واسرائيل سيف وهارى ساخر.. والثلاثة قد تزوجوا ثلاث أخوات . وهم الآن من أغنى أغنياء بريطانيا . فماركس هو صاحب محلات ماركس واسبنسر لبيع الأقمشة فى بريطانيا .. وقد انضم إلى الثلاثة يهودى رابع . وولفسون الذى يملك أكبر عدد من المحلات التجارية فى بريطانيا وفى مستعمراتها أكثر من ٢٤٠٠ فرع .. وكذلك ليونز صاحب محلات الشاى المشهورة .. وقد حاولوا جميعاً مساعدة وايزمان كفرد وكصاحب قضية .

ولم يكن فى استطاعة وايزمان أن يحقق حلمه وحده . وإنما بمساعدة هؤلاء اليهود الأثرياء .

وفى هذا الوقت قوى نفوذ اللورد صمويل والذى ظل وزيراً من سنة ١٩٠٥ حتى سنة ١٩١٦ . وهو أول يهودى يبقى وزيراً كل هذه الفترة الطويلة . وحدث شيء هام أيضاً وهو أن بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى أصبحت مسئولة عن دفن الإمبراطورية العثمانية . واللورد صمويل صهيونى متعصب . وهو الذى استطاع أن يعرض قضية « الوطن اليهودى » على اللورد أسكويت رئيس الوزراء في سنة ١٩١٤ . وبعد ثلاث سنوات من العمل الشاق على كل المستويات اليهودية المالية والسياسية والدينية والمحلية والعالمية صدر الوعد المشهور من أرثر بلفور وزير الخارجية بأن بريطانيا لا يسعها إلا أن تؤيد مطالب اللورد روتشيلد فى أن يكون لليهود وطن قومى فى فلسطين ..

وبهذ الوعد دخلت بريطانيا فى قلب الصهيونية العالمية . وبلغت الصهيونية قمتها عندما أقيمت إسرائيل سنة ١٩٤٨ .

وفى ذلك الوقت أيضاً سقطت بريطانيا كدولة عظمى ، فانتقل النشاط الصهيونى إلى نيويورك والقدس .. وإذا كان أصحاب الملايين الكبار قد عاونوا وايزمان على تحقيق أحلامه ، فإن أولادهم وأحفادهم قد ساروا فى نفس الطريق .. بل إن النساء اليهوديات قد ساهمن بنشاط هائل فى الجمعيات الدينية والرياضية والسياسية ...

وبعد أن مات ماركس — التاجر المليونير — فى سنة ١٩٦٤ أصبح اللورد سيف أميراً للصهيونية البريطانية .

وعلى الرغم من المساعدات الضخمة التى يقدمها يهود بريطانيا فإن بن جوريون عندما زار بريطانيا يطلب مساعدات كإنشاء « جامعة النقب » استنكر موقف يهود بريطانيا قائلا : ليس الصهيونى هو الذى يقيم فى بريطانيا ويساعد يهود إسرائيل ... الصهيونى هو الذى يقيم فى إسرائيل !

وإذا كانت بريطانيا هى التى وعدت بإنشاء وطن لليهود ، فهى أول من

طرد اليهود وعذبهم فى كل القارة الأوروبية . فقد طردت اليهود فى سنة ١١٤٤ ثم أعادت طردهم وذبحهم سنة ١٢٩٠ فى عهد الملك إدوارد الأول ... فلم يبق فى بريطانيا غير اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية .

وظلت اليهودية لعنة لليهود وظلت الهيئات الدينية اليهودية جامدة متزمتة ... ولكن اليهود كانوا يتطلعون إلى أى انقلاب يخلصهم من رجال الدين، حتى أن الكاتب إسحاق دزرائيلى — ووالد السياسى المعروف — قد أعلن أنه سيترك دينه فراراً من تزمت رجال الدين .... وأخذ ابنه إلى الكنيسة . وتم تعميده وأصبح مسيحياً. وله رسالة مشهورة فى لعن اليهود وخوفهم وجبنهم وضيق أفق رجال الدين ... وكتب استقالته من عضوية الهيئات الدينية كلها سنة ١٨١٣ .

ومن الغريب أن هذا هو أيضاً ما انتهى إليه اليهود بعد الحرب العالمية فهم لا يرتبطون برجال الدين ولا يترددون على الكنيس .. وليس من أعضاء البرلمان سوى ثلاثة أعضاء فقط فى (هيئة المندوبين) .. ولا أحد من يهود بريطانيا يريد أن يهاجر إلى إسرائيل . فهم سعداء فى مكانهم . والذين ذهبوا إلى إسرائيل فى محنتها ، عادوا إلى بريطانيا . ويمكن تقدير عدد اليهود الإنجليز فى إسرائيل بحوالى عشرة آلاف فقط .

وقد نادى آبا إيبان وهو بريطانى الجنسية اليهود الإنجليز بالهجرة إلى إسرائيل . ولكن أحداً لم يذهب .

ومنذ سنوات أعلن اللورد جودمان رئيس مجلس الفنون وهو يهودى ، أن الأدباء الشبان اليهود لا يكتبون لليهود ولا يعرضون قضية اليهود ، بل إنهم ينادون بالذوبان فى المجتمع الإنجليزى . والتزاوج بين الأديان الأخرى .. وكل ما يريده هؤلاء الشبان هو أن يعيشوا كانجليز . وأن يتذكروا من حين إلى حين أنهم يهود فقط .

ومن مثل هؤلاء الأدباء : ارنولد وسكر وبرنارد كويسر وليونيل

بارت وفرانك ماركس وهارولد بنتر وبيتر شافر . بل إن أحد هؤلاء الأدباء قد أعلن أن كل ما يريده هو أن يكون مثل وكالة رويتر — ورويتر يهودى — أن يكون عالمياً فقط .

وقد أضيف إلى يهود بريطانيا عنصر جديد : لكن ظهرت فى بريطانيا أقليات جديدة من السود من البحر الكاريبى وعدد من الإيطاليين ... وهذه الأقلية أصبحت لها حارات مثل حارات اليهود .. وأصبح الإنجليز يتحدثون عن الأقليات . ولا يقصدون اليهود من ضمن هذه الأقليات . وأصبح الإنجليز يتحدثون عن التفرقة العنصرية ولا يقصدون اليهود طبعاً . وهنا أيقن اليهود أنه ليس من الحكمة أن يحرصوا على أن يكونوا أقلية مهما كانت مزاياها وإنما خير لهم أن يذوبوا وأن ينعزلوا .. فإذا كانت بريطانيا جزيرة ، فإن الإنجليزى نفسه أيضاً جزيرة محاطة بالتقاليد من جميع جوانبها ... ولذلك فاليهود الإنجليز متطرفون فى شعورهم بالوحدة والرغبة فى العزلة — أو هذا هو منطق الجيل الجديد من اليهود الذين يشتركون فى الجمعيات الدينية ولا يترددون على المعابد ولا يربدون .

ويحاول كبار اليهود أن يعيدوا التعاليم الدينية إلى هذه الأجيال الضالة عن الصهيونية ، والبعيدة عن إسرائيل ، والتى لا تفكر فيما أبعد من الجزيرة البريطانية .

وكبار اليهود لا يتعبون من نشر سيرة الزعيم اليهودى مونتفيورى الذى كان مستشاراً للملكة فكتوريا والذى أضاء شوارع لندن بمصابيح الغاز التى انتجتها المصانع التى يملكها ... وأهم ما فى سيرة مونتفيورى أنه عندما وقعت المذابح فى دمشق سنة ١٨٤٠ بين اليهود والمسيحيين والمسلمين ذهب إلى السلطان وإلى محمد على . وكانت هذه المذابح بسبب أن اليهود قتلوا طفلا وامتصوا دمه .. واعتصروا ما تبقى فيه من دم ليعجنوا به طعامهم المقدس ... فثار العرب ضدهم .. ولكن الزعيم اليهودى مونتفيورى استطاع

بضغط الملكة فكتوريا وبانفلوس أن يجعل السلطان يصدر قراراً بعدم المساس بممتلكات اليهود فى الشام ...

ولكن الجيل الجديد من اليهود يريد أن يعيش فى سلام .. وأن يختفى بعيداً عن المناورات والدسائس .

أما إذا كان يهود إسرائيل يريدون مالا ، فيهود بريطانيا على استعداد لأن يدفعوا .. ولذلك فبريطانيا تجىء فى المرتبة الثانية بعد أمريكا ونفوذهم القوى فى إسرائيل ...

أرض تزرعها بيدك هي أرض مقدسة

مشاكل اليهود فى البلاد الكبرى أصبحت صغيرة .. أما فى البلاد الصغيرة فقد أصبحت كبيرة .. وهذا واضح فى كندا وأستراليا وجنوب إفريقيا وفى جمهوريات أمريكا اللاتينية .

ويعرض المؤلف الإنجليزى اليهودى بارنت ليتفينوف تاريخ وقضايا اليهود فى العالم فى كتابه الكبير الذى عنوانه (شعب غريب) .. ويقدم لنا الكثير الذى لا نعرفه عن عدونا . ومن الضرورى أن نعرفه .. لأننا يجب أن نعرف من هو هذا الذى احتل أرضنا ودنس تاريخنا .. من هو هذا الذى سوف نواجهه زمناً طويلا .

فعندما هبط الجنرال ديجول من البارجة الحربية فى يوليو سنة ١٩٦٧ ، ولمس الأرض الكندية قال : عاشت كيوبك حرة !

وكان هذا الهتاف قنبلة ... تفجرت لها عيون بالدموع .. أما اليهود فقد أسندوا ظهورهم إلى جدران من اليأس والفزع وأعلن الحاخام : لقد

جعلها ديجول مأساة لليهود مرة أخرى !

فديجول أراد أن يشجع الجالية الفرنسية فى كندا التى تركزت فى كيوبك . وأغضب بذلك الجالية الإنجليزية فى كندا .. واليهود يقيمون فى مونتريال ، أى فى الجانب الإنجليزى . والمأساة هى أن الحياة فى كندا عجيبة وغريبة .. فكندا هى دولة الأقليات التى أقفلت على نفسها باباً اسمه : التعصب الدينى .. فالكاثوليك يتعصبون ضد البروتستانت .. واليهود يتعصبون ضد الجميع .. وأهل كندا يحبون بلادهم . ولكنهم لا يحبون بعضهم البعض . ولذلك لم يجد اليهود صعوبة فى أن ينعزلوا . وأن تكون عزلة قوية وعلنية .

وكندا تختلف عن معظم الدول الأوروبية والأمريكية .. فهم فى كندا يسألون المواطن عن دينه وعن أصله وعن لغته . ولذلك فعدد يهود كندا معروف بالضبط . وليس معروفاً عدد يهود بريطانيا أو حتى أمريكا ..

وكندا هذه ليست لها صفات خاصة تنفرد بها . ولكن يمكن أن يقال إنها ليست مثل أمريكا .. وليست مثل بريطانيا .. ولكن من المؤكد أنهم يميلون إلى أمريكا .. والإنجليز منهم يرون أن أمريكا ، والحياة الأمريكية هى مثلهم الأعلى .. أما اليهود فقد جاءوا إلى هذه البلاد منذ قرنين .. وهم لا يحاولون أن يذوبوا فى الآخرين .. بل إنهم أحياناً يتباهون بأنهم شعب مختار .. وقد سخر ديجول مرة أخرى من اليهود عندما أعلن فى نوفمبر سنة ١٩٦٧ قائلا : إنهم الغرور والتعالى والتسلط .. إنهم ذلك الشعب المختار !

واليهود ميالون إلى أمريكا . وكل رجال الدين قد تعلموا فى نيويورك . والأمريكى اليهودى يقول عن نفسه إنه أمريكى فقط .. واليهودى الكندى يقول : إنه يهودى فقط . ولكن مهما تنوعت الألوان والأشكال والبلاد فهم لا ينسون أنهم يهود ...

وبعد الحرب العالمية الثانية هاجر إلى كندا أكثر من ستين ألفاً من يهود أوروبا ...

وبعد حرب يونيو سنة ١٩٦٧ عاد إلى كندا أكثر من عشرين ألفاً من يهود إسرائيل .. وهذا موقف عجيب من مواقف اليهود . فعندما لا يكون لهم وطن يحلمون بأرض المعاد .. وعندما يكون لهم وطن يعودون إلى الشتات والهجرة !

فالهجرة من أهم معالم النفسية اليهودية ..

ولأن المهاجرين من اليهود إلى كندا من الطبقة المتوسطة، فإن تناسلهم قليل .. لأن أموالهم لا تمكنهم من الإنفاق على عدد كثير من الأطفال .. واليهود فى كندا سنة ١٩٢١ كانوا الجالية رقم ٣ فى كندا .. أما الآن فهم الجالية رقم ١٠ بعد أبناء أوكرانيا وإيطاليا وهولندا واسكندناوة وبولندا . وعدد اليهود الآن فى كندا هو ٢٨٠ ألفاً يتركزون فى مونتريال ومعظمهم من يهود أوروبا الشرقية ..

وقد فزع اليهود من هتاف ديجول بحياة مدينة كيوبك .. ففى هذه المدينة يتعصب المواطنون للديانة الكاثوليكية . ورجال الدين أعلى مقاماً من رجال الحكومة . وهذا يجعل اليهود فى وضع غريب . ولا يوجد زواج مدنى ، بل كله فى الكنيسة والمدارس تحتم تدريس الدين المسيحى .. وفى كيوبك تعصب بروتستانتى أيضاً .. وأمام حالات التعصب الشديد لا تملك الأقلية إلا أن تذوب فى الأغلبية أو تتظاهر بذلك .. فالذوبان — هرب — والهرب خير وسيلة للدفاع ..

وظل الأطفال اليهود يترددون على نفس المدارس المسيحية إلى أن صدر قانون بتكوين مدارس يهودية سنة ١٩٦٥ ، وأعلنت حرية العقيدة فى كندا .. وأصبح لليهود مدارس ومستشفيات وفنادق وأندية يهودية خاصة ..

وفى كندا لافتات كثيرة تطلب من المواطن أن يكون كندياً طيباً نظيفاً .. أى أنه ليس مقبولا من اليهودى الكندى أن يكون مبهدل المظهر — وهذه حسنة يستحق عليها الكنديون امتنان التجار اليهود !

ويذكر يهود كندا أنهم ساهموا فى إنشاء إسرائيل .. فلا أحد يعرف أن اليهود قد عينوا حاكماً عسكرياً سنة ١٩٤٨ له سلطات مطلقة أسمه دوف يوسف .. وأن هذا الحاكم العسكرى من كندا . وأنه صهيونى متطرف . وأنه أرغم ابنته على أن تحارب فى الصحراء حتى قتلت برصاص المصريين فى صحراء النقب .. وإذا كان من أهداف اليهود أن يذوبوا في الحياة الكندية ، فإن الحياة الكندية لها تاريخ دينى طويل .. وهذا التاريخ يحتم على كل الأقليات الموجودة أن تحتمى فى دينها .. وأن تنعزل فيه وبه .. وأن تصبح الأقليات على شكل قلاع متينة .. متواجهة .. وفى نفس الوقت متعارضة وفى غاية الحساسية !

وإذا كانت كندا من وجهة النظر اليهودية هى دولة الأقليات المتعصبة المنعزلة ، فإن جنوب إفريقيا هى دولة التمييز العنصرى .. ومن الكلمات التى يخاف منها اليهود ككل الأقليا ت : التعصب الدينى .. التمييز العنصرى .. القومية والوطنية ..

ولذلك فهم فى جنوب إفريقيا يواجهون مجتمعاً من البيض والسود والصفر .. ومن النازيين السابقين .. ولكى يعيشوا فى جنوب إفريقيا يجب أن يسايروا التيارات الحاكمة ، رغم أنها ضدهم جميعاً . ولذلك تمزق اليهود في داخل الأحزاب السياسية المتعارضة . وعندما عرض سنة ١٩٦١ مشروع بإدانة جنوب إفريقيا فى الأمم المتحدة كانت إسرائيل ضمن ٦٦ عضواً استنكروا التفرقة العنصرية .. فأصبح موقف يهود جنوب إفريقيا صعباً . وأعلن رئيس وزراء جنوب إفريقيا : أن هذا القرار مأساة لليهود .

والمليونير أوبنهايمر صاحب مناجم الماس قد استنكر قرار إسرائيل .. وكذلك فعلت الهيئة اليهودية المعروفة باسم « هيئة المندوبين » استنكرت القرار الإسرائيلي ..

ولم تكن حياة اليهود فى جنوب إفريقيا هادئة معظم الوقت . فأول

المهاجرين إليها كانوا من لتوانيا .. واليهود يهاجرون على شكل عائلات ـ أو قبائل ـ ولا يكاد يستقر الواحد منهم حتى يبعث فى طلب أقاربه .. وكان اليهود يسلكون طريقاً ثابتاً : يخرجون من لتوانيا ثم يذهبون إلى بريطانيا ينزلون ضيوفاً على الهيئات الدينية اليهودية ليلة أو ليلتين ثم يستأنفون السفر إلى جنوب إفريقيا .. وأول يهودى استدرج أبناء لتوانيا إلى جنوب إفريقيا اسمه : صموئيل ماركس .. وقد بلغ عدد الذين أتى بهم إلى هذه البلاد أكثر من أربعين ألفاً .. انعزلوا بسرعة وعكفوا على العمل فى مواجهة الجاليات الهندية والملاوية والصينية . وقامت قيود كثيرة ضد الشرقيين الذين يهاجرون إلى هذه البلاد والذين لا يعرفون اللغات الأوروبية . وكانت هذه مشكلة جديدة ليهود أوروبا الشرقية الذين يتكلمون لغة اليديش ويكتبونها بحروف عبرية .. ولكن بعد الحرب العالمية ألغى هذا القيد عن يهود أوروبا الشرقية .

وكان الجنرال الفيلسوف سمطس أحد الذين يسروا إقامة اليهود فى هذه البلاد . فقد كان وزيراً فى وزارة الحرب العالمية الأولى .. وهو أيضاً أحد الذين ساهموا فى إصدار وعد بلفور المشهور سنة ١٩١٧ ..

وقد حاول اليهود أن يساهموا فى الحياة السياسية العامة .. ولكن القانون كان يمنعهم . فالقانون ينص على أن يقسم عضو البرلمان أن يكون مخلصاً للمسيحية الحقة ـ ورفض اليهود هذا القسم ، فرفضهم البرلمان .

وعندما استقلت جنوب إفريقيا عن الكومنولث أعلن الحاخام الأكبر أن هذه كارثة .. فاليهود عندما جاءوا إلى جنوب إفريقيا كانوا يحلمون بمجتمع يذوبون فيه .. فوجدوا مجتمعاً متعصباً .. وكانوا يحلمون بالارتباط ببريطانيا ، فوجدوا دولة تستقل عن بريطانيا ..

وعندما اكتشفت الحكومة مؤامرة ضدها سنة ١٩٦٠ واتهمت عدداً من المواطنين بالخيانة العظمى ، كان من بين المتهمين : اثنان من اليهود ..

رجل وامرأة . واعتقل البوليس عدداً كبيراً من الأوروبيين ثلثهم من اليهود .. أما المحاكمة فقد أجريت فى بناء قديم كان معبداً يهودياً قبل ذلك !

ومن سوء حظ اليهود أيضاً فى هذه البلاد أن الذين يحكمونهم أناس كانوا يتمنون النصر للألمان فى الحرب الثانية .

من أشهر أبناء جنوب إفريقيا : أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل .

وبالعمل المستمر والحيل والمال استطاع يهود إفريقيا أن يفتحوا باب التطوع للتجنيد فى الجيش الإسرائيلي فى حرب يونيو.. وكذلك استثمروا أموالهم فى مدينة عسقلان .

ومن أشهر يهود جنوب إفريقيا أيضاً رجل اسمه ليفى شاوول سولومون الذى حاول تهريب نابليون من جزيرة سانت هيلانة .. واكتشفت هذه المحاولة وأعدم الرجل اليهودى .. أما سبب ذلك فلأن نابليون كان قد وعد اليهود بشيء من الأرض مقابل مبلغ من المال .. وأخذ المال ولم يعطِ الأرض الموعودة !

أما أستراليا تلك الجزيرة القارة فهى مفتوحة على الآخر لكل المهاجرين من كل البلاد ..

وفى كل يوم من أيام الأسبوع يحتشد عدد من سيارات المدارس لنقل ١٨٠٠ طفل ، كان من الممكن أن يولدوا فى أوروبا لولا هتلر .. هؤلاء الأطفال يذهبون إلى مدرسة اسمها « مدرسة جبل التجلى » خارج مدينة ملبورن . هذه المدرسة هى أكبر مدرسة يهودية فى العالم فعدد طلبتها يبلغ ٢٤ ألفاً ..

وهذه المدرسة تعلم اللغة العبرية سبع ساعات من كل أسبوع . وتصدر مجلات وصحفاً باللغة العبرية . وتعلم الطلبة تاريخ إسرائيل وتاريخ اليهود . والديانة اليهودية إجبارية : عشر ساعات فى الأسبوع . وتقدم الطعام «الكوشير» — أى الطاهر — وتقام الصلوات بانتظام بين الحصص والصلاة إجبارية أيضاً .

وتعود السيارات إلى البيوت التى يسكنها آباء وأمهات أنقذوا من معسكرات الاعتقال النازية بإحدى المعجزات ..

وكان عدد اليهود فى سنة ١٩٣٠ حوالى عشرين ألفاً .. ولكن هذا العدد تضاعف عشر مرات .

ومن أهم الشخصيات اليهودية المعروفة فى أستراليا إسحق إسحق الذى كان أول حاكم عام لأستراليا . وكذلك كان أول قائد لأسطولها واسمه سير جون موناش ..

وقد زاد عدد سكان أستراليا فى العشرين عاماً الماضية من ثمانية ملايين إلى عشرة ملايين وجاء أربعون ألفاً من المهاجرين اليهود .

و ٩ ٪ من يهود أستراليا يعيشون فى مدينة سيدنى .. ومن المشاهد المألوفة منظر اليهود وهم يذهبون إلى معابدهم مساء الجمعة . وفى أزياء ملونة ملفتة .. إنهم فى أستراليا آمنون من التعصب ومن التفرقة .. ولا شىء يضايقهم إلا أن أستراليا تتأرجح بين التقاليد البريطانية والأحلام الأمريكية .. ويهود أستراليا يفضلون الارتباط ببريطانيا .. وفى نفس الوقت يكرهون الشعور العام بالتعالى على ما هو بريطانى !

أما فى أمريكا اللاتينية فالموقف غريب وعجيب وصعب فلو قرأنا مثلاً هذه العبارة فى إحدى الصحف لكان من الصعب على أى إنسان أن يعرف أين ومتى حدث ذلك . هذه العبارة تقول : هاجم المارة فتاة يهودية ومزقوا ملابسها . رسموا الصليب المعقوف على صدرها .. هاجمت الجماهير أحد متاجر اليهود وكسروا زجاجه وسحبوا صاحب المحل وداسوه بالأقدام .. اعتداء آخر على فتاة يهودية وتعذيبها ورسم الصليب المعقوف على صدرها العارى . من السهل أن يقال إن هذا حدث فى ألمانيا النازية . وقد حدث ..

ولكن الغريب أنه حدث فى البرازيل وفى مدينة بونس أيرس سنة ١٩٦٠ . فقد كان فى البرازيل حزب نازى قوى اسمه « تاكوارا » ..

وإن كان هذا الحزب قد انحل سنة ١٩٦٥ .. ولكن بقى الشعور العدائى لليهود قوياً ..

ففى البرازيل عدد كبير من الألمان الذين هاجروا إلى هذه البلاد قبل وبعد الحرب العالمية الثانية ..

وفى الأرجنتين كثيرون لا يرفعون عيونهم عن ألمانيا ولا يخفون حزنهم على ما أصاب هتلر .. وهذا الموقف من ألمانيا يمس بالنار عدداً من اليهود يقرب من ٣٨٠ ألفاً .

ولا يزيد عدد اليهود فى أمريكا اللاتينية كلها على مليون ونصف مليون بين ٢٥٠ مليوناً من المسيحيين .. ويزعم اليهود أنهم كانوا من أوائل الذين وصلوا إلى أمريكا ، فيقال إن أحد بحارة خريستوف كولمبس كان يهودياً ؟!

ويهود أمريكا اللاتينية قد جاءوا إلى هذه القارة هرباً من محاكم التفتيش التى نصبها الكاثوليك فى إسبانيا ..

وظل يهود أمريكا اللاتينية منعزلين تماماً فى مواجهة هذا المجتمع العدائى وهذا الانعزال فيه خطورة على اليهود وقد جربوه فى أوروبا . وعانوا منه كثيراً . ولذلك فيهود أمريكا اللاتينية من أشد الناس إيماناً بالصهيونية .. فيما عدا اليساريين ..

وإذا كانت أمريكا اللاتينية تعيش على المعونة الأمريكية التى تبلغ عشرة آلاف مليون دولار سنوياً ، لكى تظل بعيدة عن الشيوعية ، فإن يهود أمريكا اللاتينية يعيشون أيضاً على المعونات اليهودية العالمية . لأن هناك خطراً يتهدد يهود أمريكا اللاتينية فقد اتجهوا إلى الذوبان فى الأغلبية المسيحية .

وهذا الذوبان هو نوع من الانتحار الاختيارى . ولذلك فاليهودية العالمية تساعدهم بالمال وبالتوعية الدينية المستمرة . وإسرائيل تبعث إليهم بعدد من مدرسى اللغة العبرية حتى يظل اليهود متماسكين ملتفين حول التوراة واللغة العبرية وأرض المعاد ..

ويرى اليهود فى العالم كله أن أمريكا اللاتينية من الممكن أن تكون قاعدة لإمداد إسرائيل بالرجال من العمال والفلاحين والمهاجرين .. كما أن الخبراء يجربون نظرياتهم على التربة والتشجير واستزراع البحيرات فى أمريكا اللاتينية وعلى نطاق واسع وسرى أيضاً ..

ومن الغريب مرة أخرى أن الأرجنتين وحدها قد بعثت بعشرين ألف مهاجر يهودى إلى إسرائيل ، وسبب ذلك أن اليهود قد كرهوا الإقامة فى الأرجنتين . ربما كانت حالة اليهود النفسية والاجتماعية عالية فى عصر الرئيس جوان بيرون . فقد كانت زوجته إيفا بيرون تتردد على الهيئات الدينية .. وتحرص على أن تبدو متسامحة مع اليهود .. وساءت حالة اليهود عندما سقط بيرون سنة ١٩٥٥ ..

وأحس اليهود فى أمريكا اللاتينية بصعوبة موقفهم من العالم بعد عدوان سنة ١٩٥٦ .. وبعد أن وقف العالم العربى كله وراء الرئيس جمال عبد الناصر. وبعد أن أصبح جمال عبد الناصر رمزاً حياً مناضلاً للتحرر من العدوان الإسرائيلى على العرب وعلى الأرض العربية ..

وقد وقع يهود الأرجنتين فى مأزق ضيق وعميق فى نفس الوقت عندما أعلن بن جوريون يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٦٠ أن أدولف إيخمان الذى خطفه اليهود من الأرجنتين مسئول عن كثير من ذبح اليهود فى ألمانيا .. ومن المعروف أن إيخمان قد خطفوه وهو واقف ينتظر الأوتوبيس ليذهب إلى مقر عمله فى إحدى شركات السيارات .. وانتظرت إسرائيل رد الفعل العالمى .. وحوكم إيخمان على جريمة لم يرتكبها فى إسرائيل ، واستدعى مجلس الأمن بناء على طلب الأرجنتين وقطعت الأرجنتين علاقتها بإسرائيل ، وأيدت روسيا وبولندا موقف إسرائيل ..

وأهم ما فى حادث الاختطاف هذا أن اليهود قد أشاروا بصورة صارخة أين يعيش النازيون القدامى .. وفى نفس الوقت أين يعيش أكثر الناس عداوة لليهود ..

أما الأسلوب الذى اتخذه اليهود للهجرة إلى هذه القارة ، فقد بدأ سنة ١٨٨٩ عندما ذهب عدد من اليهود المهاجرين من أوكرانيا .. واشتروا قطعة أرض بالقرب من بونس أيرس . وكان عددهم ٨٠٠ نسمة ، ولم تكن لهم أية دراية بالحياة فى هذه المنطقة الحارة ولا بهذه التربة ، ولكنهم حاولوا وتعلموا ، ورفعوا شعاراً فى التلمود يقول : من زرع أرضاً بيديه فهذه الأرض مقدسة .. ولذلك زرعوا الأرض وربوا الماشية .. وقد مات كثير من أولادهم بسبب المرض ، وأطلقوا على مستعمرتهم الصغيرة هذه اسم « مدينة موسى » ولكن كانت حياتهم قاسية جافة مؤلمة . وجاء يهودى من باريس وعرف عذابهم فذهب إلى مليونير معروف هو البارون هرش يطلب معونته ، وأعانهم بكثير من المال ، وجاء يستثمر الأموال فى البرازيل ..

وبعد الحرب العالمية الأولى جاء فلاحون يهود عددهم أربعون ألفاً فضاعفوا مساحات هذه الأراضى « المقدسة » ..

◉ ◉ ◉

إنها نفس القاعدة يمشى عليها اليهود .. تماماً كما حدث أيام السلطان سليمان القانونى ، فقد منح السلطان سليمان رجلاً يهودياً اسمه يوسف ناس قطعة من الأرض حول بحيرة طبرية ، ويوسف ناس هذا جاء من البرتغال ودفع مبلغاً كبيراً من المال لحاشية السلطان وحريمه ، وذهب إلى فلسطين واختار قطعة الأرض .. وحصل على ترخيص من السلطان بأن يأتى لها بأى عدد من اليهود. وجاء باليهود وعندما مات السلطان سليمان سنة ١٥٦٦ ذهب يوسف ناس الى تركيا وطلب من حاشية السلطان أن توافق له على أن يعلق لافتة بها آية من التلمود تقول : من زرع أرضاً بيده ، فقد زرع أرضاً مقدسة — ولكن الحاشية رفضت والسلطان الجديد رفض أيضاً .. وكانت هذه أول مستعمرة أقامها اليهود وحرموا دخولها على المسلم والمسيحى ؟! لأنها أرض مقدسة ! .

الأغنام التائهة في الشرق الأوسط

تاريخ اليهود فى الشرق الأوسط مثل سجادة عجمية ، تغيرت ألوانها وتمزق نسيجها وضاقت مساحتها . وأصبح من الصعب على أكثر الناس دراية بتاريخ اليهود أن يعرف من أين وإلى أين جاءوا وذهبوا من العراق وإيران وتركيا ومصر والهند والحبشة .. فاليهود فى هذه المنطقة متنافرون .

فيهود إيران يرون أنهم أحفاد اليهود الذين طردوا من بابل وأشور وأنهم لذلك اليهود الحقيقيون .. ويهود اليمن والحبشة يرون أنهم أحفاد سليمان وبلقيس ملكة سبا (بلقيس لم يرد اسمها فى القرآن الكريم . وإنما بلقيس كلمة يونانية معناها : الفاتنة أو الغاوية أو الغائية) ... ويهود مصر لا يؤمنون بما جاء فى التلمود .. ويهود تركيا من بينهم طائفة اسمها السباتيون نسبة إلى سبتاى زفى أحد الذين ادعوا النبوة فى القرن السابع عشر .. وسار وراءه ألوف اليهود فى مصر والشام وتركيا وهذه الطائفة تحتم الزواج من بين اليهود. وهى أول من أنشأ جمعية اسمها « جمعية تبادل الأزواج » فكان من عادتها

أن تقيم عيداً فى كل سنة يتبادل فيه اليهود زوجاتهم ليضمنوا بذلك نسلاً يهودياً طاهراً .

وكما اختلطت وتمايزت الألوان اختلطت وتنوعت اللغات أيضاً . فيهود يتكلمون العبرية مع الآرامية .. ويهود يتكلمون لغة الأدينو من إفريقيا إلى منتصف آسيا .. ويهود يتكلمون اللغة اليديشية .. ثم يتكلمون لغات عشرات البلاد التى جاءوا منها .

ومن بين يهود الشرق عائلات : ساسون وقدورى وجباى وهم جميعاً تجار أقطان وأفيون وقد انتشروا حتى هونج كونج . ولكنهم جميعاً يؤمنون بضرورة مساعدة الفقراء اليهود على الطريق .

ولم يشعر يهود هذه المنطقة بأنهم غرباء إلا عندما ظهرت إسرائيل . فقط أحسوا بالغربة عن البلاد التى عاشوا فيها وكان لا بد لهم أن يختاروا . وأن يضعوا قلوبهم فى المكان المناسب واختاروا إسرائيل وكان من الطبيعى أن تنبذهم البلاد التى عاشوا فيها .

ويقول الكاتب بارنيت لتفينوف : إن تاريخ اليهود في الشرق الأوسط مثل جبال الجليد ، أكثره مغمور تحت الماء . . والأكثر هو الخرافة ، والأقل هو التاريخ . والبلاد التى انتشرت فيها الصهيونية هى التى أرسلت أقل عدد من سكان إسرائيل فالأغلبية فى إسرائيل من الشرقيين والأقلية من الغربيين المتعالين على النشاط الصهيونى فالشرقيون يمنعون هذه الحركة منعاً باتاً ، لا باعتبارها حركة سياسية قومية ولكن باعتبارها نوعاً من التسلط على المواطنين وتحويل قلوبهم عن وطنهم . ولذلك لا يساهم اليهود الأتراك فى أى مؤتمر دولى يهودى من أى نوع . واليهود يتكلمون الفرنسية ، وقد انقرضت لغة الأدينو عن ألسنتهم كما انقرضت اللغة اليديشية عن ألسنة الأوروبيين الشرقيين أيضاً .

واليهود فى تركيا يفضلون الذوبان الذى يضمن لهم الحياة فى هدوء .

ويكفى أن تركيا قد أنقذت اليهود من مخالب النازية .. ولا يزال اليهود الأتراك يذكرون بالفزع والرعب يوم احتل النازى نصف مدينة سالونيكا سنة ١٩٤١ وترك نصفها الآخر حيث كان يعيش خمسون ألفاً من اليهود الأتراك .

ومع ذلك فاليهود فى تركيا لا يشغلون المناصب الرسمية ، والزواج هناك مدنى . ولا يتزوج اليهود من غيرهم إلا سراً . ولا توجد أية لقاءات دينية .. ولا أية مراسم علنية . وهم فى جميع الأحوال غير محبوبين وغير محترمين .

واليهود فى العالم قلقون على مستقبل اليهود الأتراك . فمن يريد منهم أن يظل تركياً فعليه أن يبقى أما الباقون فلا بد أن يهاجروا إلى إسرائيل ، لأن اليهودية العالمية تضغط عليهم بعنف .

والحكومات التركية ثائرة على إسرائيل . لأن إسرائيل حاولت أن تتقرب إلى الأسقف مكاريوس ولذلك اتجه اليمين واليسار فى تركيا إلى العرب وإلى الإسلام . وقد أحس يهود اسطنبول بما سوف يحدث فى تركيا وفى المنطقة . ولذلك بدأوا يهربون أموالهم إلى البنوك العالمية وبدأوا يحولون أموالهم إلى منقولات من الذهب والفضة .

وإذا كان اليهود الأتراك لا يزالون يذكرون تلك الحاشية اليهودية التى أحاطت بالسلاطين فإنهم الآن لا يجدون مثل هذه الحاشية .. وليس أمامهم إلا أن يذوبوا فى الشعب التركى ... وإلا أن يهربوا إلى إسرائيل .

أما أتعس أنواع اليهود فهم يهود إيران وعددهم ثمانون ألفاً . فالعالم الخارجى لا يعرف عنهم شيئاً . كما أنهم لم يتأثروا بشىء مما يجرى فى الدنيا عندهم أو حولهم . فلم يهتزوا لهجرة يهود العراق وافغانستان إلى إسرائيل .

وعلى الرغم من المساعدات المادية والأدبية التى تتساقط عليهم من العالم كله ، فإنهم لم يتطوروا إلى ما هو أحسن . فهم فقراء ومرضى واختاروا

الخرائب والحارات المظلمة سكناً تقليدياً لهم ولأولادهم . وهم يعددون الزوجات . ويؤمنون بأنهم أبناء اليهود الذين طردوا لأول مرة فى التاريخ . وأنهم لا يريدون أن يطردوا بعد ذلك .. ولهذا اختاروا أن يعيشوا تحت الأرض .. وليس من بينهم موظف واحد فى الدولة .. وهم يعيشون فى بلاد تقدس الحاكم ولذلك عكفوا على مقدساتهم وخرافاتهم أيضاً ، ومن المعروف أن إيران دولة إسلامية شيعية . وكثيراً ما وقع الخلاف بين السنة والشيعة . وكان اليهود ضحاياه . وكما حدث فى مراكش كثيراً فقد كان الحاكم الإيرانى هو الذى يصدر القرارات لحماية الأقلية اليهودية . ولذلك فهم يتطلعون إلى الحاكم وحده ، دون الشعب . مما ضاعف من عزلتهم وهوانهم على الناس وعلى أنفسهم أيضاً .. والإمبراطور رضا شاه بهلوى قد أصدر قراراً بتحريرهم سنة ١٩٢٥ وأصبح من حق أى يهودى أن يكون مواطناً من الدرجة الأولى ولكن هذا الحق لم يستخدمه أحد حتى الآن . وبعض اليهود قد قطع نصف الطريق إلى الإسلام عندما اعتنق الديانة البهائية وهو فى نفس الوقت قد ابتعد عن اليهودية أيضاً .

ولا ينسى اليهود ما حدث لهم سنة ١٨٣٩ فى مدينة مشهد على حدود أفغانستان فقد دخلوا الإسلام بالألوف ولكن أبناء هؤلاء اليهود المسلمين يعيشون الآن فى إسرائيل ويحتفظون معهم بوثائق مكتوبة تؤكد أنهم تظاهروا بالإسلام فقط . وأن إسلامهم لم يكن سوى مظلة تحميهم شمس الطريق .

وعندما زارت إيران بعثات المبشرين الإنجليز والأمريكان فى القرن التاسع عشر كانوا يشعرون بالقرف لحياة اليهود فى حوارى إيران . كان الإيرانيون يمنعون اليهود من السير تحت المطر حتى لا تتلوث مياه الأنهار . وكان اليهود ممنوعين من التعلم . ولذلك جاءت بعثات التبشير وحولتهم إلى المسيحية .. ولكن هؤلاء الذين تحولوا إلى المسيحية مارسوا اللعبة اليهودية وهى « ازدواج الولاء » .

أى أن تكون ألسنتهم مع المسيح وقلوبهم مع موسى .

وحاول المليونير اليهودى الإنجليزى موسى مونتفيورى أن يساعدهم مادياً . وفعل الكثير . وأرسل « الاتحاد الفرنسى الإسرائيلى » الذى أنشىء سنة ١٨٩٨ أول مدرس لهم ... واستقبله اليهود على أنه مبعوث السماء . ولا يزال هذا الاتحاد هو المسئول عن يهود إيران حتى اليوم .. وجاءت هيئات أخرى عالمية وساعدتهم بإشراف سير إسحاق ولسوف الذى أرسل إليهم المال والملابس والكتب والأدوية . ويتلقون معونة سنوية تصل إلى مليون دولار ..

ويهود إيران يتركزون فى طهران وشيراز وأصفهان .

ويهود إيران ينظرون إلى ممثليهم فى البرلمان على أنهم أعلى سلطة فى البلاد يلجأون إليها فى حل قضاياهم . ولكن لا توجد هيئات دينية لحل مشاكلهم وخصوصاً مشكلة المرأة ... فاليهود فى إيران يعددون الزوجات والمرأة مجرد شيء يلقى به فى البيت لا حقوق لها فى العمل أو الكسب أو الوراثة أو الطلاق . وفى سنة ١٩٦٦ سافر وفد من يهوديات إيران إلى أوربا وأمريكا يطلبن المساعدة . وأفلحت الهيئات الدولية فى أن ترغم يهود إيران على العدول عن هذه الأفكار المتزمتة . ولكن اليهود أصروا على أن تظل حياتهم فى الحوارى .. والمرأة التى تعيش خارج هذه الحوارى ليست يهودية . وركزت الهيئات اليهودية أضواءها على يهود إيران ، فأصبح للوكالة اليهودية مركز فى طهران . وأصبح فى استطاعة أى يهودى أن يهاجر إلى إسرائيل . ومع ذلك فلم يهاجر أحد إلى إسرائيل . لماذا ؟ لأن اليهود فى إيران يشعرون بالمساواة بينهم وبين المسلمين . ولكن هذه المساواة لن يكون لها أى وجود فى إسرائيل فهم يسمعون عن التفرقة العنصرية واللونية والطائفية واللغوية والتاريخية .. وهم سعداء بأنهم أحفاد « المطرودين الأوائل » من بابل وأشور .. ثم أنهم — وهذا هو المهم — يخافون من المجهول .

وفى القرن الثانى عشر التقى الرحالة اليهودى بنيامين التوديلى بعدد

من اليهود الهنود قالوا إنهم من سلالة بنى إسرائيل الأوائل واستمع إلى قصص من البطولات والخرافات ليس لها أى أساس تاريخى .

وهذا طبيعى .. فليس أكثر من الجائع أحلاماً .. وليس أكثر من الفاشل أوهاماً .. فهؤلاء اليهود يعوضون أنفسهم بأنفسهم عما أصابهم من تشريد وتعذيب فى طريقهم من الشرق الأوسط إلى الشرق الأقصى .. ولا بد أن جنكيز خان قد أبادهم ذهاباً وإياباً .. ولم يبق منهم إلا القليل جداً يعيشون فى شبه القارة الهندية ...

وعدد اليهود فى مدينة كراتشى ومدينة كوتشن فى أقصى جنوب الهند حوالى عشرين ألفاً وهم ممزقون لغة ولوناً وطبقة وطائفة .

ويهود الهند لم يعرفوا الاضطهاد وإنما هم طائفة ضمن ألوف الطوائف ثم أنهم ليسوا طرفاً فى أى نزاع طائفى هندى . ولكن هذه الخلافات الطائفية وهذه المذابح الطائفية لم يستفد منها اليهود شيئاً . فلم يتحدوا . بل أن هذه الطائفية قد انعكست عليهم بصورة مضحكة .

ففى مدينة كوتشن ، إحدى مدن ولاية كيرالا ، يوجد ثلاثة أنواع من اليهود : اليهودى الأبيض واليهودى الأسود واليهودى البنى . واليهودى البنى اللون هو أحط اليهود . ويتحكم فيه اللونان الآخران الأبيض الصريح والأسود الصريح .. وعدد هؤلاء اليهود جميعاً لا يزيد على ألف شخص .

أما اليهود السود فقد هاجروا إلى إسرائيل . واليهود السود يرون أن اليهود البيض دخلاء على الهند ، وعلى اليهودية وأنهم جاؤوا إلى الهند فقط فى القرن السادس عشر أما اليهود السود فقد جاءوا إلى الهند بعد انهيار هيكل سليمان . وأن هؤلاء البيض جاءوا إلى الهند وسرقوا أموال السود واستعبدوهم ثم أقاموا المدن على أكتافهم .

واليهود البيض والسود يصلون فى معابد مختلفة . ولا يتزاوجون مطلقاً . ولكن البيض والسود يؤمنون بأنهم اليهود الحقيقيون . أما اليهود الآخرون فهم

سلالة منحطة . وقد جاءوا من أمهات غير يهوديات أى من العشيقات أو يهود سود. ولم يسمح مطلقاً لهذه الطائفة المنحطة أن تصلى فى معابد البيض أو السود إلا فى سنة ١٩٤٧ عندما أعلن أحد زعمائها الإضراب عن الطعام حتى الموت .

وفى مدينة بومباى طائفة أخرى من اليهود عددها عشرة آلاف نسمة اسمها بنو إسرائيل وملامحهم هندية ومتماسكون تماماً . ويؤمنون بأنهم أحفاد اليهود الذين هربوا بعد سقوط الهيكل .. وهؤلاء اليهود لم تعترف بهم الهيئات اليهودية العالمية إلا أخيراً جداً . وقد أدت مشكلة « بنى إسرائيل » إلى أزمة وزارية فى إسرائيل سنة ١٩٦٤ .

وبنو إسرائيل هؤلاء يجهلون الكثير من التعاليم اليهودية والتقاليد اليهودية التى تغيرت بمرور الزمن ولكنهم ظلوا يتزوجون فيما بينهم ثم يطهرون أطفالهم بعد ولادتهم بأيام .. وقد هاجر منهم سبعة آلاف إلى إسرائيل . ولما حاولوا الزواج رفضت الهيئات الدينية بحجة أنهم ليسوا يهوداً وإنما هم من وجهة نظر دينية يعتبرون: لقطاء، والتلمود ينص على أن اللقطاء الذين تحولوا عن اليهودية لا يمكن اعتبارهم يهوداً : وثار اليهود الهنود وعادوا إلى الهند وأخذوا يتزوجون من غير اليهود .

ومن أشهر يهود الهند عائلة بغدادية جاءت إلى الهند منذ قرنين . وفى مقدمتهم المليونير داود ساسون الذى أنقذ اليهود من الجوع والوباء سنة ١٨٢٢ . وساسون هذا له ثمانية أولاد وأربع بنات كان لهم نشاط تجارى فى شمال الهند . وقد تسللوا إلى داخل الحكومة البريطانية فى الهند وإلى بلاط الملك إدوارد السابع. وفازوا بألقاب النبلاء. ومن بين أبنائهم سير فيليب ساسون أحد وزراء ما قبل سنة ١٩٣٩ .. والشاعر سيجفريد ساسون . وإحدى بنات ساسون قد أصدرت صحيفتين أسبوعيتين متنافستين .

وهؤلاء البغداديون تحكموا فى بنى إسرائيل وكان عددهم فى بومباى

وحدها أربعة آلاف . وأحس البغداديون هؤلاء أنهم بريطانيون . وليسوا هنوداً . والبغداديون يتكلمون الإنجليزية . وكانوا يؤكدون دائماً أن « بنى إسرائيل » عبيد لهم وأن هناك نصوصاً فى التلمود تؤكد ذلك .

وجاءت عائلة أخرى غنية هى عائلة « قدورى » لتخليص بنى إسرائيل من البغداديين ... وأما أسرة قدورى هذه فتتركز فى هونج كونج والصين .. ومن الشخصيات المشهورة سير أليس قدورى وهو أول من أنشأ كلية الزراعة فى فلسطين .. وأول من فتح المدارس لبنى إسرائيل فى الهند.وكان من الممكن أن يظل هذا التمزق والصراع بين يهود بومباى على هذه الحال ، لولا انقسام الهند سنة ١٩٤٧ وقيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ .. ومن الطبيعى أن يمشى البغداديون وراء ...البريطانيين ولم يتركوا إلا القليل وراءهم ...

وذهب (بنو إسرائيل) مع كل مشاكلهم وخلافاتهم الملونة والطائفية والعنصرية والتاريخية إلى إسرائيل .. وتحت الضغط العالمى اعترفت المحاكم اليهودية فى إسرائيل ، بأن بنى إسرائيل يهود شرعيون وليسوا لقطاء .

أما علماء التاريخ فهم مشغولون بالبحث عن الأغنام الضالة من القطيع الإسرائيلى .. ومشكلتهم ليست فقط أن يجدوا واحدة من الأغنام ولكن أن يحصلوا بعد ذلك على قرار بأنها يهودية .

فاليهود الذين يذهبون إلى إسرائيل لا يجدون حقوقهم جاهزة فى انتظارهم بل عليهم أن يثبتوا أنهم يهود من ألوف السنين .. فكيف يثبت يهودى من سامرا أنه من أحفاد أبناء « الشتات الأول » .. كيف يثبت ذلك يهودى من الصين .. فقد كانت فى الصين ، وعلى النهر الأصفر قبيلة يهودية ضالة اسمها قبيلة « طاى فونج فو » أى كوهين فونج فو — هذه القبيلة لم يعد أحد يسمع عنها منذ القرن السادس عشر .. وأغلب الظن أنها ذابت فى الملايين الصينية ... ثم من الذى يستطيع أن يقرر أن يهود الحبشة هم سلالة يهود اليمن وأن تحولاً دينياً .. لم يطرأ عليهم . فإذا حدث فما حكم الدين ؟

وإن هيئات دينية قوية متعصبة فى إسرائيل تصر على الصفاء الدينى ونقاء السلالة مع أن إسرائيل كلها ليس فيها سلالة واحدة ولا جنسية واحدة ولا لغة واحدة ولا لون واحد ولا تاريخ واحد .. إنهم فى إسرائيل ليسوا سجادة عجمية واحدة .. ولكنهم أكوام من خيوط نزعت من سجاجيد وملابس وعروق وشعور وأشجار بلاد وشعوب مختلفة . ومطلوب معجزة أو أكثر من معجزة لتذويب الفوارق الهائلة فى الدين واللون واللغة والطبقة والطائفة بين الأقلية الأوروبية المتغطرسة والأغلبية الشرقية المنحطة ...

البارود ...
تحت جذور الشجر

اليهود هم أغرب شعب .. وإسرائيل هي أغرب تكوين سياسى ودينى واجتماعى ولغوى .. ففى إسرائيل ٧٢ لغة والأبناء لا يعرفون لغة الآباء.. الأبناء يتكلمون العبرية والهيئات الدينية تحلم باليوم الذى يطبقون فيه الدين حرفياً وبشدة . فلا يعمل الناس يوم السبت . ولا يتزوج اليهود من غيرهم . ولا تقدم المطاعم إلا الوجبات « الكوشير » – أى المطهرة .

وفى القرن ١٩ أقبل اليهود على الصهيونية لأنها كانت (الوصفة الطبية) لأمراض يعرفها اليهود ويشربون بسببها المر فى كل دولة : الضياع والشتات والتيه .. والعزلة التامة والتعالى والجبن والتآمر والبيع والشراء فى كل الظروف التى تحيط بالبلاد التى يعيشون فيها .. والمكسب دائماً لأنهم لا يتكلفون شيئاً .

ولم يؤمن بالصهيونية إلا الحالمون الواهمون . ومن أشهر الحالمين الصحفى النمساوى تيودور هرتسل . وكان يرى أن الصهيونية هى : أن يكون لليهود وطن . ولا يهم أن يكون هذا الوطن : فى روديسيا أو أستراليا أو كندا ..

وبعد ذلك تركزت الصهيونية حول فلسطين ..

وقد حاول اليهود بأساليب ملتوية معقدة أن يحققوا أهدافهم السياسية الموضوعة فى إطارات دينية مجنونة وأن يظهروا أمام العالم كله فى صورة المساكين الأبرياء الواسعى الأفق — مع أن هناك حقيقة مؤكدة وهى أن اليهود مهما اختلفت ألوانهم ولغاتهم وبلادهم ومذاهبهم السياسية هم يهود أولا وأى شىء بعد ذلك .. والتاريخ من أوله لآخره يقطع بأنهم تآمروا وخربوا وأفسدوا البلاد التى يعملون فيها من أجل دينهم ومن أجل إسرائيل .. وإذا كان هناك أفراد قلائل ينادون بأنهم ليسوا متعصبين لإسرائيل ، فهم قلائل .. ولا سلطان لهم ..

والكاتب اليهودي لتفينوف لم يرفع عينه عن يهود العالم فقد تابع قومه في طول التاريخ وعرضه ومشى وراءهم إلى باب كل حاكم وسلطان ، ومقر كل حزب ، وطرق كل صحراء وكل غابة ، وتحت مداخن كل مصنع ، وأمام مذبح كل معبد يسمع ويرى ويكتب ويقدم لنا هذه الصورة العجيبة الغريبة لأناس تربطنا بهم الحياة والموت .. لأنهم لا يريدون إلا الموت لنا نحن العرب ، ويضمرون الموت لكل الشعوب الأخرى . فليست الأرض العربية هى التى يريدونها وإنما يريدون الأرض ومن وما عليها .. كل أرض .

ومن الضرورى أن نعرف أى نوع من الناس هذا العدو الإسرائيلى . أن نعرف ذلك بأنفسنا ، وأن نعرفه أيضاً بغيرنا من أصدقائهم ومن أعدائنا ومن أصدقائنا أيضاً ..

فالصهيونية علاج لمرض الضياع اليهودى ..

ففى روسيا القيصرية عرف اليهود شيئاً جديداً فى تاريخهم اسمه : الحظيرة اليهودية .. فقد حددت الحكومة لهم مساحة من الأرض لا يخرجون منها . ووزعت عليهم أسماء عدد من المدن يعيشون فيها . وذكرت لهم

عدداً من الشوارع لا يقيمون فيها متاجرهم .. وحرمتهم من شراء الأرض أو زراعتها .. وحرمتهم أيضاً من شراء البيوت .. أما فى أوروبا الشرقية فكانوا يقيمون فى « الحوارى »، وقد تكون هذه الحوارى أحياء كاملة . ولكنها مغلقة عليهم . ولا حياة لأحد غيرهم فيها . وفى الحوارى يحتشد اليهود بعيداً عن المجتمع الكبير .. أو يعزلهم المجتمع الكبير عن نفسه .. فهم يبقون هناك بعيداً عن بقية الناس ..

ولم يتحمس اليهود أول الأمر للصهيونية لأنها حلم بعيد .. ولأنها ستوقعهم فى مشاكل كثيرة مع البلاد التى يعيشون فيها ، ويخافون على أنفسهم من غضب الجماهير ، وحرارة الأديان .. ولذلك كان اليهود يخافون من الصهيونية لأنها خطر عليهم .. ولذلك تقدم يهود آخرون بحلول غير الصهيونية ..

فبعضهم رأى أن اليهود يجب أن يذوبوا فى الناس . وأنهم ما داموا قد عاشوا الوف السنين فى عزلة منبوذين من كل الشعوب ، فلماذا لا يذوبون فى الشعوب . ويختفون كما اختفت شعوب أخرى كثيرة . مع أن اليهود ليسوا شعباً بل عشرات الشعوب . لماذا لا يذوب دينهم فى المسيحية وبذلك ينتهى الحقد والكراهية التاريخية لهم فى كل الدنيا ..

وبعضهم طالب بأن تكون لهم دولة ــ وليس من الضرورى أن يكون ذلك فى فلسطين ــ وفى أى مكان . فعندهم المال . وعليهم أن يعتمدوا على مساعدة كثير من الأثرياء لهم. وفى هذه الدولة يحاول اليهود أن يحققوا كل أحلامهم القديمة فى الدين والسياسة . ورأى البعض الآخر أنه أفضل لليهود أن يشاركوا فى إشعال الثورات فى البلاد التى يعيشون فيها . وعن طريق هذه الثورات يحققون العدالة بين الأغلبية والأقلية ويحققون المساواة بين الجميع . فإذا أصبح اليهود متساوين مع بقية المواطنين فى أى بلد فعلى اليهود بعد ذلك أن ينادوا بمساواتهم فى كل مكان ..

أما بالنسبة لفلسطين وهى أرض ذات قداسة دينية وذات وضع اقتصادى

فريد فقد دارت حولها أحلامهم وجنون اليهود . فيمكن إثارة الشعور الديني عند اليهود الذين لا يربطهم بعضهم ببعض إلا الدين وإلا الرغبة فى الخلاص من البلاد التى يعيشون فيها .. ثم أن أثرياء اليهود يحلمون بأن يكونوا على مقربة من أرض البترول .. ليستولوا عليها أيضاً . وليس هذا سراً . فقد أعلنوا ذلك كثيراً .. وهذا يجعل اليهود خطراً على كل العرب فى كل مكان ..

وبعض اليهود رأى أرض فلسطين غير مناسبة لأن تكون ضحيتهم أو تكون أملهم المنشود . فجوها وأرضها لا يناسبان الأوروبيين الشماليين . كما أن موارد الحياة فيها ضئيلة . وموارد المياه نادرة .. وأهم من ذلك لن توجد بها لغة واحدة تجعل التفاهم سهلا بين اليهود المهاجرين من أوروبا الشرقية ومن روسيا .

والمتطرفون من دعاة الصهيونية فى القرن ١٩ وأوائل العشرين نادوا بضرورة تعلم اللغة العبرية مع أن أغلب اليهود لا يتكلمون إلا اللغة اليديشية .. وهى لغة اليهود الأوروبيين ..

وهذا التطرف أخاف اليهود الأوروبيين من الهجرة سراً أو علناً إلى فلسطين .

ثم أن اليهود لا يعرفون معنى القومية . فليس لهم وطن . ولا يعتبرون مواطنين من الدرجة الأولى فى البلاد التى كانوا يعيشون فيها . ولم تكن عليهم أية واجبات وطنية . فهم لا يحملون السلاح ولا يدافعون عن البلاد التى يعيشون فيها . كما أنهم لا يعرفون حمل الفأس . لأنهم ممنوعون من شراء الأرض . وكل يهودى يقع فى أزمة فإنه يتجه إلى واحد من رجلين فى العالم كله . أحدهما إنجليزى هو : سير موسى مونتفيورى والآخر فرنسى هو : أدولف كريميه . وكانت لكل منهما سلطة دولة .. أو سلطة أكبر من الدولة .

والصهيونية دين . أو لها قوة الدين .

ولذلك رفضها بعض اليساريين المتطرفين . لأنها دين . ولأن الدين قد عزل اليهود عن الشعوب التي عاشوا بينها . ولأن الدين اليهودى قد ضخم لهم أحلامهم . وجعل العالم كله تافهاً . وجعل الإنسانية كلها تعمل من أجل عرش يجلس عليه اليهود . وأن اليهود يجب أن يكفوا عن الهوس الديني ، حتى لا يثيروا الهوس الديني عند غيرهم من الشعوب الأخرى وهى الأغلبية الساحقة فى الدنيا ..

وقد هاجم اليساريون المتطرفون النزعة الصهيونية لأنها تدعو لإقامة وطن يهودى . هذا الوطن سوف يكون مملوءاً بالممنوعات والمحرمات والخرافات التي تفرض عليهم اللغة العبرية التي تعزلهم مرة أخرى عن العالم المتحضر .. وأن الأفضل لليهود أن يذوبوا فى الشعوب . أو على الأقل أن يتظاهروا بأنهم ذابوا وأن يتماسكوا سراً من أجل البقاء الاقتصادى . والتحكم السياسى فى العالم بعد ذلك..دون أن تحدد الصهيونية إقامتهم فى أرض معروفة..

أما فلسطين بالذات فكان يتجه إليها اليهود « العواجيز » ليموتوا فيها .. أو ليصلوا إلى معابدها ببعض ثرواتهم . والقليلون هم الذين ذهبوا إليها يشترون أرضاً . أو يفكرون فى الإقامة الدائمة فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن . ومن رواد اليهود فى فلسطين بن جوريون وشمويل ديان أبو موشى ديان .. الذى أنشأ مستعمرة دجانيا فى وادى الأردن .. « وموشى ديان ولد سنة ١٩١٥ وبعده بعشر سنوات ولد فى مستعمرة مجاورة موردخاى هود قائد الطيران فى حرب يونيو .. وأول مدرسة ابتدائية أنشئت فى تل أبيب سنة ١٩١٤ كان من تلامذتها موشى شاريت الذى أصبح رئيساً للوزراء بعد ذلك » .

وكان من أحلام المفكر الصهيونى هرتسل أن يحصل على قطعة أرض من السلطان العثمانى فرفض أن تكون هذه الأرض فى فلسطين .. والذى لم يفلح فيه هرتسل نجح فيه حاييم وايزمان سنة ١٩١٧ عندما حصل على

وعد بلفور بأن يكون لليهود وطن فى فلسطين ..

والمستعمرات أو المزارع الجماعية أو « الكيبوتز » كما يسمونها قديمة فى تاريخ اليهود .. وهى ترتبط بالدين اليهودى أيضاً . فمنذ القرن الأول للميلاد كانت لليهود مزارع صغيرة لرجال الدين . يزرعونها معا ويملكونها معاً وهم فلاحوها وتجارها . وكان رجال الدين هؤلاء معروفين باسم « الأطباء » أو المطهرين أو (الأساة) ويسمون أيضاً الأسينيين . وكان رجال الدين هؤلاء يرفضون أن يملك الإنسان شيئاً حتى ثوبه .. فلا أحد يملك شيئاً .. فالأرض للجميع ..

وفى أواخر القرن التاسع عشر تسلل اليهود إلى فلسطين .. واشتروا مزارع صغيرة وأقاموا عليها مستعمراتهم .. ولم يكن أحد يدرى بوضوح ما الذى يفعله اليهود فى المستعمرات . وكل ما يراه الناس أن هناك أرضاً مزروعة ، وأن عدداً قليلا من اليهود يعملون فيها . وأن هؤلاء اليهود مختلفو الألوان والأجناس ولكنهم يعملون معاً .

وعندما أعلنت إسرائيل سنة ١٩٤٨ نادى بن جوريون : بالزحف إلى الجنوب أى إلى صحراء النقب . وطالب اليهود بأن يعملوا هناك . حتى اليهود في أوروبا كانوا ينتقلون إلى هذه الظروف الجوية القاسية ولا يهم ما الذى يعملونه . ولكن المهم أن يشعروا بالأرض وأن يمدوا يد المساعدة ليهود إسرائيل .

كان شعار بن جوريون ضرورة جمع المنبوذين . وربط المفككين « ولم اللمامة » العالمية فى إسرائيل بكل الوسائل القاسية الممكنة ..

منذ ستين عاماً عندما أنشئت أول مستعمرة يهودية نموذجية فى فلسطين كان اليهود هم الذين يحرثون الأرض . كان سكان هذه المستعمرات هم الرواد الحقيقيين للصهيونية . لذلك كانت مستعمراتهم فى أماكن نائية ، حتى لا يلتفت إليها أحد . كانت على حدود الدول العربية الأخرى المجاورة .

ولم تكن لهذه المستعمرات فى ذلك الوقت أية قيمة اقتصادية . إنما قيمتها استراتيجية فى الدرجة الأولى .

وفى ظل الانتداب البريطانى كان اليهود يصنعون السلاح فى المستعمرات . بل يمكن أن يقال إن كل مستعمرة كانت تخفى تحت أرضها وأشجارها مصنعاً صغيراً للقنابل والرصاص والديناميت .. أما فوق هذا المصنع فيوجد مطعم أو معبد أو مكان للدراسة .. أو مجرد حديقة صغيرة ..

وكان على سكان المستعمرة أن يدرسوا جيداً كل شبر من الأرض المحيطة بهم . وأن يرسموا كل الدروب التى تؤدى إليها .. وأن تكون هذه المستعمرات نقطاً للمراقبة والوثوب أيضاً ..

وأهم من ذلك أن المستعمرات كانت تخفى اليهود المهاجرين إلى إسرائيل من أوروبا . فقد كانت السفن تلقى بهم على الشاطىء فى الأماكن الضعيفة الحراسة . ويتولى سكان المستعمرات حمايتهم وتدريبهم وتوطينهم بعد ذلك ..

وكانت المستعمرات تبعث بشبابها إلى الخارج ليدرسوا فنون القتال والجيش .

كل ذلك قبل الحرب العالمية الثانية ..

وفى سنة ١٩٤١ صدرت التعليمات لكل سكان المستعمرات أن يرفعوا درجة الاستعداد العسكرى مائة فى المائة . أى أن يكونوا رهن الإشارة بالبدء فى أية لحظة ..

وكان فى كل مستعمرة حوالى مائة رجل مدربين تدريباً عالياً قادرين على أن يدربوا غيرهم على كل أنواع الأسلحة ..

بعد سنة ١٩٤١ صدرت التعليمات إلى اليهود فى المستعمرات أن يرتبطوا بزملاء لهم فى المدن يتسترون وراء أعمال مدنية تجارية . وصدرت تعليمات أيضاً لليهود بأن يتنقلوا بين المستعمرات وبين المدن ويروا الطرق والمزارع . أى أن يكونوا على علم بالأرض والطرق والمواقع استعداداً

لشيء هام بعد ذلك ..

وقد أطلق على هذا النظام العسكرى السرى اسم « بالماخ »، وكان هذا النظام هاماً عند اليهود لدرجة أن عدداً كبيراً منهم قد انسحب من الجيش البريطانى وانضم إلى هذا التنظيم ..

وعندما تقدم الجيش البريطانى للاستيلاء على سوريا التى تحتلها فرنسا كان اليهود هم الذين تقدموا القوات البريطانية . فقد كانت معهم الخرائط ومعهم أسماء الشخصيات المعروفة فى سوريا .

وقد اشترك الجنرال الإنجليزى وينجت سنة ١٩٣١ فى تدريب يهود المستعمرات على الحرب السرية ..

وقد ألغى بن جوريون هذا التنظيم العسكرى رغم معارضة زعيمه إسرائيل جالليلى ورغم قائده إيجال ألون . وانضمت منظمة « البالماخ » إلى الجيش الإسرائيلى المنظم .. وقرر بن جوريون أن الجيش يجب ألا يكون من أبناء المستعمرات فقط . فهؤلاء لهم عالم محدود مقفل . ولذلك يجب أن يخرجوا من مستعمراتهم وأن يعرفوا البلاد والأرض معرفة كاملة وأن يختلطوا بغيرهم من سكان المدن .. وكل مواطن إسرائيلى يظل مجنداً حتى التاسعة والأربعين من عمره . ويستدعى للتدريب كل سنة .. و ٤٪ من سكان إسرائيل يعيشون الآن فى المستعمرات . ولكنهم كانوا فى سنة ١٩٤٧ يمثلون ٨٪ من السكان . فقد ذهب عدد كبير منهم إلى الحياة فى المدن .

وأجهزة الدعاية الإسرائيلية تقوم بعرض أفلام ومسرحيات وتقدم أغانى شعبية عن الحياة فى المستعمرات .. وتصوير هذه المستعمرات على أنها واحات أنيقة مودرن نموذجية لما يحلم به الإنسان .. ولكى يستدرجوا إليها الشبان فإنهم يضعون الصعوبات الكثيرة أمام كل من يريد الانضمام إليها . وبعض المستعمرات ترفض الذين ينتمون إلى مذاهب سياسية متطرفة . وترفض الذين ينتسبون إلى طوائف دينية مختلفة .

وبعض الشبان الذين تنتهى مدة خدمتهم فى المستعمرات يعودون إليها .

أما تفسير ذلك فبعض علماء النفس اليهود يعتقدون أن اليهود يحسون أن العمل والتفانى فى العمل نوع من التعذيب للنفس . واليهود بطبعهم يكرهون أنفسهم — أى يكرهون دينهم الذى عذبهم — ويكرهون ألوانهم وصفاتهم ولغتهم — ويكرهون عزلتهم — ويكرهون الحوارى المظلمة والأبواب المغلقة عليهم مئات السنين .. ولذلك فالعمل فى الأرض هو نوع من التطهير للنفس .. أو نوع من العقاب لها .

ولذلك كان بن جوريون ينادى : بالطهارة فى الجنوب — أى فى الصحراء .

وعندما حاول بن جوريون أن يتحد مع ألمانيا الغربية رفض اليهود ذلك . فألمانيا هى الدولة التى ملأت بهم معسكرات الاعتقال فكيف يتحدون معها ؟ ولكن إتفاقية التعويضات أتت لإسرائيل بملايين الجنيهات . وحاول الألمان الغربيون أن يصلحوا ما أفسده آباؤهم .. فسافروا إلى إسرائيل للعمل فى المستعمرات وفى الطرق . وفى بناء المساكن . ولكن اليهود استقبلوهم ببرود .. ورفضوا هداياهم وأطلق الألمان على أنفسهم « النادمين » ولكن اليهود استقبلوا النادمين بالكراهية والاحتقار .. وعلى الرغم من أن الحكومة حاولت كثيراً أن تقنع اليهود بنسيان الماضى .. لكنهم لم ينسوا . وإسرائيل ماضية فى استدراج الشبان فى العالم كله لتمضية الإجازات المدرسية فى إسرائيل . وأجرت لذلك مسابقات وجوائز وحملات دعائية هائلة لتوهم الشبان أن السفر إلى إسرائيل رغم سهولته ، شيء كبير .. وإن الاشتراك فى رصف الطرق وبناء المساكن ، وتعمير الصحارى عمل حضارى .

واليهود يحاولون أن يوفقوا بين الخلافات الكثيرة الموجودة بين يهود الشرق ويهود الغرب .. فاليهود الأوروبيون هم الذين أسسوا إسرائيل واليهود الأمريكان هم الذين ينفقون عليها . أما أغلبية الشعب فهم اليهود

الشرقيون وهذه الأغلبية تمثل الطبقة المتوسطة التى لا تحظى باحترام الأوروبيين .. وهناك الطوائف الدينية المتنافرة .. وهناك الأحزاب السياسية المتضاربة وهناك القلق الدائم على حدود وفى داخل إسرائيل .. ويحاول اليهود أن يريحوا أنفسهم بأن الوقت سوف يمضى وأن العرب سوف يعتادون على ذلك .. ولكن العرب يستحيل أن ينسوا ويستحيل أن ينسوا ذلك أو هذا ..

فالذى جرى بين اليهود والعرب ليس جزءاً من الماضى .. ولكنه الماضى مستمر فى الحاضر ومتجه إلى المستقبل .. فلن ينسى العرب .. وهذه الفكرة نفسها تفزع اليهود الذين عاشوا فى فزع فى كل البلاد .. ولذلك ينشدون الهدوء والأمن والأمان بأى ثمن ..

وليس هناك غير ثمن واحد هو الدم ...

نابليون ضحك على اليهود

قلب ..
من الحرير الأسود

منذ ٢٠٣ سنة ولد إمبراطور فرنسا بونابرت .. وفى نفس السنة ١٧٦٩ ولد القائد الإنجليزى ولنجتون الذى هزم نابليون فى معركة واترلو .. ومات نابليون بعدها بست سنوات — إنها حكمة الله أن يولد القاهر والمقهور ، والقاتل والقتيل فى عام واحد !

هذه الفصول عن الامبراطور نابليون وعلاقته لا باليهودية فقط ولكن بالديانات الاخرى . . بالاسلام مثلا .

ونابليون عبقرية فريدة في التاريخ . . فهو شخصية وعقلية . . وهو قادر على عدد كثير من فنون السياسة والحرب والتشريع واللهو . . وقد صدرت في كل اللغات مئات الالوف من الكتب عن هذا الرجل الذي غير تاريخ الغرب والشرق .

وقد لا يكون هناك شيئ جديد عن حياة نابليون . لأن الباحثين قد درسوا وفحصوا وقلبوا في أرضه وسمائه وتراثه وعلاقاته . . بل إنهم حللوا دمه والشعيرات الباقية من رأسه . . حتى عرفوا كيف عاش وكيف مات مسموماً . . وبأية مادة وكم استغرق سريان السم في الدم . . كل ذلك معروف الان . .

ولكن احد الضباط الفرنسيين الكبار قد اهتدى الى مخطوطات ومعلومات جديدة عن العبقري نابليون . .

وهذه المخطوطات التي اكتشفها قد اضاءت حياته ، وحياته في بلادنا ، وعلاقاته باليهود الذين هم نكبة على الشرق وعلى الغرب وعلى الانسانية كلها . وكان من الممكن أن أكتفي بهذا الفصل الذي تعرضت فيه لعلاقة نابليون باليهود الفرنسيين أوالاوربيين . . ولكني رأيت من المناسب ان اعرض الجوانب المتنوعة الجديدة في حياة هذه العبقرية الفذة .

وهذا العرض جاء توضيحاً لشخصية نابليون ، وجاء مقدمة مستفيضة لعلاقته بهذه الشرذمة الخبيثة من البشر . .

وهذا العرض لا يخرج بالكتاب عن موضوعه ولكنه يبعد عنه قليلاً لكي نراه اوضح ، ولكي نعود اليه اكثر حرصاً على متابعته .

أو هكذا أتصور . .

وهذه السنة هى سنة نابليون . ولذلك صدرت فى فرنسا مئات الكتب عن أعظم رجال الحرب فى فرنسا وفى أوروبا فى القرن التاسع عشر .. عشرات .. مئات الكتب تعرض قضايا قديمة فى صور جديدة . وتستأنف الحكم ضد نابليون ولصالحه :

قائداً وإمبراطوراً وزوجاً وأباً وعاشقاً ومخلصاً وخائناً وخائفاً ومريضاً . وآخر كتاب صدر عن نابليون عنوانه « نابليون والإسلام » .. أو على الأصح نابليون فى البلاد الإسلامية ، أو الإسلام فى تصور نابليون .

أما المؤلف فهو الجنرال جورج سبامان الذى يعرف الشرق الأوسط معرفة جيدة . فقد عاش فى هذه البلاد أكثر من خمسين عاماً . وله أصدقاء كثيرون . وحتى لا يتصور القارىء الفرنسى أو العربى أن المؤلف يقدم طعاماً قديماً فى أطباق جديدة أو أنه يعيد تفصيل ملابس قديمة ، فإنه يقول منذ السطر الأول إنه قد عثر على مخطوطات نادرة . واستمع إلى قصص لم تنشر من أحفاد نابليون ومساعديه . ومن أجل ذلك أصدر هذا الكتاب . ولسبب آخر هو أنه يوجد فى الحاضر جزء من الماضى . ولسبب ثالث هو أن الفرنسيين — الآن — يجب أن يعرفوا التاريخ الحقيقى لهذه العلاقات المعقدة المتشابكة فى التاريخ الفرنسى والعربى .. ومن الأفضل للجميع أن يعودوا إلى الأمس قبل أن يفكرو فى الغد — هذه نصيحته إلى مواطنيه الفرنسيين .

وما أكثر ما قيل عن نابليون شعراً ونثراً . وما أكثر ما قاله أعداء فرنسا . وما قاله أبناء فرنسا . قالوا عنه : « إنه ملك بين الجنود . وجندى بين الملوك ..

وإن عبقريته فى أفكاره ، وجنونه فى عواطفه ..

وإنه طبيب يعالج الشعوب بالسيف والنار ..

وإنه كان يملك نصف أوروبا ، فلما مات استعار مترين من أرض أعدائه الإنجليز ليدفنوه فى جزيرة سانت هيلانة » ..

وقيل : «إن الفرنسيين عندما يفشلون فى حكم أنفسهم يقتلون أنفسهم ، فإذا تعبوا من القتل ، اتجهوا إلى الشعوب الأخرى يحكمونها ليصبح القتل أسهل .. ولذلك اختاروا نابليون» .

ويصف نفسه بقوله : « لم أخلف لويس السادس عشر ، أنا خليفة شرلمان » .

ويقول : « لا أمم بلا أخلاق . ولا أخلاق بلا دين . ولا دولة بلا دين

يسندها . ومجتمع بلا دين ، سفينة بغير بوصلة » .

ويقول أيضاً : « كل جندى فرنسي يحمل تحت إبطه عصا الماريشالية » .

وكل هذه صفات لنابليون الذى يعرفه كل الناس . نابليون الباهر القاهر الذى كتب تاريخه بقدميه على وديان وجبال أوروبا وإفريقيا وآسيا ..

ولكن هناك نابليون آخر لا يراه إلا قواده وإلا زوجته وإلا عشيقته .. وهى الصورة التى لا يحبها نابليون . ولا يحب أن يعرفها الناس . لأنها صورته . وهو يكره أن يراه الناس عن قرب ، إنه يحب أن يراه الناس وقد احنوا رؤوسهم ، فلا يرون إلا قدميه وإلا حذاءه .. ولم ير أحد نابليون حافى القدمين .

اختلف الناس فى معرفة طول نابليون ولم يره أحد قصير القامة .. وإنما كانوا يرونه فى جو من الهيبة والخوف . فلم يعرف أحد لون عينيه ولا لون بشرته ولا طوله الحقيقى ... ولكن كان طول نابليون ١٦٢ سنتيمتراً . وكان وجهه شاحباً أصفر . وكانت وجنتاه غائرتين . أما عيناه فصغيرتان . وكان يضيقهما ويوسعهما حسب الأحوال . وكانت الأحوال تحتم هذا التغيير .

فقد كان يتفجر بالحركة والكلام والتفكير . وينظر بجرأة إلى كل من حوله . وكانت نظرته فيها رجولة واتهام وبحث عن شيء .

وهو يبدو شديد الإرهاق .. وليس من الصعب أن تستنتج أنه لم ينم كثيراً ولا جيداً فى أية ليلة .

أما صدره فكبير نسبياً . وربما كان هذا هو السبب فى أن نابليون كان يجعل ملابسه ضيقة لتضغط على صدره . وليس صحيحاً ما قيل من أن نابليون كان أول من ارتدى الكورسيه — الذى يشد الجسم ويخفى اللحم والشحم ..

وكان يشكو من نوع من الأكزيما، فى عنقه وفى أماكن متفرقة من جسمه وكانت الحساسية تلهب وجهه وعنقه .. ولم يكن نابليون يشكو من شيء .

ولكن من السهل أن يرى أى إنسان أنه يتألم . وكان نابليون يرى أنه من العيب أن يتألم الرجل . وإن كانت خطاباته الخاصة مليئة بالألم واليأس ..

وكانت شهية نابليون مفتوحة للكلام والنساء .

فإذا تكلم لم يعط فرصة لأحد أن يقول شيئاً . فهو الذى يسأل .. وهو الذى يجيب .. وكان يقفز من فكرة إلى فكرة .. وينطلق من قضية إلى قضية . ولم يكن سهلا على أى أحد من قادته أن يتابعه . ولا يرى ذلك ضرورياً . فكل حوار مع نابليون هو منولوج . هو الذى يتحدث والذين حوله يسمعون إن استطاعوا .

ونابليون الذى أسكت قواده ، أسكت فرنسا كلها ، وأوروبا أيضاً .. ولا كلمة ولا نفس . إنه احتكر الكلام واعتقل الأنفاس جميعاً . وفى كثير من الأحيان يستخدم كلمات إيطالية ، فهو إيطالى من جزيرة كورسيكا .. ويقول نابليون إنه تعلم الشجاعة من أمه . فأمه لا تخاف . لأن أمه تؤمن بالقدر . وترى أن الله معها .

أما نابليون فيرى أن السماء قد بعثت به فى مهمة خاصة إلى سكان الأرض . ولن يموت قبل أن يكمل رسالته . ولذلك لا يخاف . وكثيراً ما قال عن نفسه : « إننى مدفوع إلى غاية لا أعرفها . مدفوع بقوة . هذه القوة هى التى تحمينى . ولن يحطمنى أحد قبل أن أصل إلى الهدف . وإذا بلغت الهدف فمن الممكن أن يهلكنى أى شىء . فإذا جاءت ساعتى ، فإن مرضاً أو حصاناً أسقط من فوقه أو رصاصة تعجل بنهايتى » . ونابليون إلى جانب أنه عبقرى ، هو إنسان محظوظ جداً . بل إن عبقريته هى أنه احتكر الحظ . فقد نجا من الموت ومن الكوارث ومن الهزائم مرات عديدة .

وهو يؤمن بأن شيئاً لن يصيبه . وهو يطلب المعجزات . فهناك نجمة فى السماء تضىء له — هكذا يؤمن — وترد عنه الموت والفشل . وقد أصدر الفلكى الفرنسى شارل مسييه كتاباً عن « النجمة التى ظهرت فى السماء

يوم مولد نابليون » وأن هذه النجمة هى الطالع الباهر للقائد الفرنسى .. أما الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى فقد انزعج من هذا الكتاب . فقد أخبره الفلكيون أن هذه النجمة نحس عليه وعلى شعبه . وقد كانت كذلك .

ولأن نابليون متفائل بهذه النجمة ويؤمن بها ، فقد خلق نيشاناً جديداً اسمه نيشان النجمة ..

والقواد والضباط والجنود الذين يحاربون وراء نابليون يشهدون بشجاعته فهو يتقدم الجميع يدرس أرض المعركة . ويرتادها ويحسبها ويرسمها ويخطط للمعركة . ولم يكن نابليون يعرض نفسه للخطر . ولكن من الممكن أن يقول الجنود جميعاً أنهم رأوه .. فى المقدمة وفى المؤخرة . إنه موجود بينهم . ولم يكن نابليون يظهر إلا فى نهاية المعركة ليراه الجنود سليماً . لم يصب بسوء . وليزداد إيمانهم بأنه جندى لا يصاب ولا يناله العدو .. وأنه منيع وأن هذه هى إرادة الله .

ومن الحوادث المعروفة أن نابليون عندما كان فى الطريق بين الإسكندرية ودمنهور التفت إليه أحد قواده وعاتبه لأنه يمشى بلا حراسة مشددة . فكان رد نابليون : ليس مكتوباً فى السماء أن يقتلنى العرب .

ومن المعروف أن نابليون قد نشأ فى جو نسائى حتى الحادية عشرة من عمره ولذلك تأثر بأمه وغيرها . فهو أيضاً يؤمن بالحظ . والبخت . والحسد « والعمل » ويكره كل إنسان منحوس . يكره الأسماء التى تجعله يتشاءم . ويكره الإنسان الذى فشل فى حياته أكثر من مرة . يسأل دائماً عند اختياره لكل رجل : هل هو إنسان محظوظ ؟ وكان يعتقد أن النحس والتعاسة وسوء البخت أمراض معدية ..

وكان نابليون هو الذى يبدأ الناس بالكلام خصوصاً فى الصباح وقبل النوم . لأنه لا يريد أن يسمع كلمة تزعجه عندما ينهض من نومه أو عندما يريد أن ينام . وفى إحدى المرات سمع ضوضاء خارج الخيمة التى كان

ينام فيها . وعندما سأل عن السبب قيل له :

شيء لا يمكن أن نقوله لك الآن .

وذهب نابليون لينام دون أن يعرف السبب .

ومن الغريب أن نابليون كان يضع بين ملابسه قلباً من الحرير الأسود . مرة يضعه في جيب الصديري . ومرة يضعه تحت القميص . ثم إنه يتحسسه بين لحظة وأخرى .. وكان يرى أن هذا القلب مصدر الحظ الوحيد فى حياته ..

وفى جيبه كان يضع جعراناً عثر عليه فى إحدى المقابر الفرعونية فى مصر..

وقبل أية معركة حربية كان يمسك حجراً من الياقوت اسمه « الياقوت النارى » يلفه حول رأسه ثلاث مرات ثم يخفيه فى مكان أمين من جيبه .

وكثيراً ما نزل من فوق حصانه ليخرج حجر الياقوت ويلفه حول رأسه ثلاث مرات أيضاً .

ويكره العطور التى تضعها المرأة ويفضل أن تستحم فقط . وكان يقول : « إن رائحة الجسم الإنسانى هى أجمل رائحة » . وكان يستخدم الكولونيا فقط .. ويسرف فى تعاطيها. وربما كانت هذه الكولونيا هى التى سببت له الحساسية الشديدة .

أما سبب كراهيته للعطور التى تضعها المرأة ويضعها الرجال أيضاً فلأنها تفسد الأنف . وتجعله عاجزاً عن التمييز بين الروائح الأخرى . وله عبارة غريبة تقول : « إن الرجل القائد يجب أن يكون حاد الأنف .. لكى يشم الأحداث قبل وقوعها » .. وهذه هى الموهبة الكبرى التى ينفرد بها العباقرة .. أن يشموا الأحداث قبل وقوعها ، وأن يروها قبل أن يلمسها الناس ، وعندما أغرق القائد الإنجليزى نلسون البارجة الفرنسية التى اسمها « الشرق » فى مياه أبوقير انزعج نابليون وقال لأحد قواده .. لو لم يكن اسمها « الشرق » ما انزعجت .. ولكن غرق هذه السفينة دليل شؤم لا شك فى ذلك .

لم يرسم علامة الصليب على صدره كما تفعل أمه تماماً .. هكذا كان يقول وكأنه يعتذر مما يفعل ..

وبعد أن أصبح نابليون إمبراطوراً كتب إلى وزير البحرية يوم ٢١ مايو سنة ١٨٠٧ : أريد أن تجعل البارجة التى عدت بها من مصر سالماً قطعة تاريخية .. وأن تحرص على سلامتها مئات السنين من بعدى .. ففى سلامتها سلامتى .. كما كانت فى سلامتى سلامتها .. أما إذا أصابها سوء ، فالويل لى .. ولنا جميعاً.

◉ ◉ ◉

فهل كان نابليون عالماً بفنون الحرب ؟ هل كانت له دراسة عالية ؟ أم أنه متوسط التعليم ؟

كان نابليون متوسط التعليم ، عالى الثقافة .. فهو قد دخل المدرسة العسكرية فى مدينة بريين ١٧٧٩ . وكان فى العاشرة من عمره . وخرج منها يوم ١٤ اكتوبر سنة ١٧٨٤ . والتحق بالمدرسة العسكرية فى باريس . وكان تلميذاً مجتهداً فى المدرستين .

وفى الثالثة عشرة من عمره كان متفوقاً فى الهندسة . أما خطه فردىء جداً . أما نطقه الفرنسية فيبعث على الضحك . فهو ريفى وله لهجة إيطالية . وعندما تخرج من المدرسة العسكرية بباريس التحق بالمدفعية ، وأكمل دراسته ، وشجعه رؤساؤه على الاستمرار فى البحث والقراءة ، والذين يذكرون نابليون فى ذلك الوقت يصفونه بأنه ضعيف البنية شديد الذكاء ، عدوانى ، رث الملابس ، غير جذاب يسكن بيتاً قذراً ولكنه على درجة عالية من الغرور والكبرياء . والذى يراه فى ملابسه يحس أنه إمبراطور فى ملابس شحاذ .

وحتى لا يسخر الناس من منظره ومن أفكاره اعتزل الحياة العامة ، وعكف على القراءة . وكان يكره أن يثير شفقة أحد . فقد حدث فى إحدى المرات أن التفت إليه أحد زملائه الضباط وقال له : « إننى أرثى لحالك »... وصرخ نابليون قائلا : « هذه هى المرة الرابعة التى اسمع فيها هذه العبارة

في ست سنوات ولا أحب أن أسمعها بعد ذلك من أحد. إنني أرثى لحالك .. إنني أرثى لملابسك التي تخفى تحتها عقلية تافهة ومستقبلا مهلهلا » .

وكان يقال عن نابليون وحجمه الضئيل ونزعته العدوانية الشرسة : إنه ولد لم يكبر لأن أحداً لم يقم بتربيته .

وفكر نابليون في الانتحار . وقبل أن ينفذ هذا القرار دار هذا الحوار بينه وبين نفسه :

ـ تريد أن تنتحر لتستريح من أى شيء ؟

ـ لأستريح من نفسي .

ـ ولكن نفسك لم تحصل على شيء .. يجب أن تنتظر .

ـ أنتظر ماذا ؟

ـ أنت تعرف.. السماء اختارتك دون ملايين الناس. وهي لن تتخلى عنك. فيحسن ألا تتخلى عن السماء ..

ـ كنت قد نسيت ذلك .

ـ إذن ماذا قررت ؟

ـ أن أعيش .. وليس هذا قرارى .. وإنما هو قرار النجوم في السماء .. والسماء ..

وعدل نابليون عن الانتحار .

وقرر أن ينسى تعاسة ومرارة الحياة عن طريق القراءة . ونسى في القراءة كل أوجاع جسمه ونفسه .

وقد روى نابليون لضباطه وهو في سوريا كيف أنه عندما كان قائداً لإحدى الحاميات الفرنسية في إسبانيا ، ظل يقرأ سنوات طوال الليل والنهار على ضوء شمعة وكيف أنه أيقن أن النوم خسارة كبرى وكل لحظة يغمض فيها الإنسان عينيه ، يفقد شيئاً جديداً لا يعرفه.. فإما أن نعرف وإما أن ننام جهلاء ...

وكانت أحب الكتب إليه : كتب الرحلات والمعارك .. ولحسن حظه أمضى نابليون ثلاث سنوات بالقرب من إحدى المكتبات العامة . فقرأ كل ما فيها من كتب . وكان نابليون موهوباً فى حفظ الأرقام . وكان يراهن نفسه هكذا : أين قرأت خطبة يوليوس قيصر وفى أية صفحة ! وكان يقول : على اليسار الصفحة ٢١٧ أو ١١٧ .. ومن المؤكد أنها ٢١٧ .

ويقلب فى الكتاب ليجد أنه لم يخطىء .. ويكسب من نفسه الرهان ٥

وحاول نابليون أن يحسن خطه .. وفشل .. فخطه ردىء . وملىء بالأخطاء الإملائية . ولم يحدث أن خطاباً واحداً كتبه نابليون بلا أخطاء إملائية .. وربما كان هذا هو السبب فى أنه يكتب بسرعة . وتجىء هذه السرعة ستاراً يختفى وراءه الأخطاء ويبررها أيضاً .

ومن المؤكد أن أفكار نابليون أسرع من يديه .. ولذلك فهو يجرى على الورق حتى لا تفوته الحروف .

أما اللغة الفرنسية فقد حاول كثيراً أن يصلح نطقه الريفى الإيطالى ، ولم يفلح . وكان يضيق بذلك . وظل طول الوقت ريفى اللهجة إيطاليها .

وكان من الممكن أن يصبح نابليون أديباً إذا أراد . فقد كان موهوباً . والخطابات التى بعث بها إلى والده وهو فى الثانية عشرة من عمره أدب رفيع .. فقد كان نضجه مبكراً . جاء إلى مصر وعمره ٢٩ سنة . وقد أعاد نابليون كتابة بعض أعماله الأدبية فيما بين ١٧٨٦ — ١٧٩٣ ومن بين مؤلفاته : تأملات — ولقاء فى القصر الملكى — والنبى — وهى قصة مأخوذة من الأدب الغربى — وخطاب — وحوار — وقصة إنجليزية .

مرة واحدة فقط أحس نابليون أن السماء كادت تتخلى عنه . فعندما سقط روبسبيير حزن نابليون . فقد كان أوجستان أخو روبسبيير يحتضن نابليون . ولذلك تقرر وقف نابليون عن العمل وكان فى ذلك الوقت قائداً للمدفعية فى جبال الألب ولم يدخل نابليون السجن كما قيل أكثر من مرة . وانتهز نابليون فترة وقفه عن العمل والتحفظ عليه فى بيت أحد القواد ،

فقرأ مكتبة عسكرية كلها . ولما استدعى إلى باريس دافع عن نفسه فتقرر نقله إلى سلاح المشاة . وكانت حالته المالية والنفسية سيئة . ولكن حالته هذه لم تطل . فقد عاد إلى الإيمان بحظه وبالسماء . وقال عن نفسه : إنما أرادت السماء أن تنهى إلى أن هذه عقبات صغيرة فى طريق صاعد

وأحس نابليون أن عقله مليان ، ومعدته خالية .. وأنه لا يعرف كيف يملأ معدته بأفكاره .

ونقلوه إلى العمل فى أرشيف وزارة الحربية . وهناك وجد نابليون خرائط المعارك الحربية كلها . ووجد الدوسيهات .. ووجد التاريخ الحقيقى لفرنسا .. وكاد يموت جوعاً . وكتب إلى أخيه يوسف فى ٢٠ أغسطس سنة ١٧٩٥ : سوف يبعثون بى إلى تركيا لتدريب الجيش هناك برتبة جنرال . لقب مغر.. ولكن معنوياتى تحت قدمى.. الصبر .. سوف أجعلك قنصلا عندما أكون إمبراطوراً .

ثم ألغى قرار نقله إلى تركيا . وعين ملحقاً بمكتب القائد العام . وأتيحت لنابليون فرصة الانتصار فى إحدى المعارك الإيطالية . وكانت المعركة نموذجية وكان الانتصار فريداً فى التاريخ : خطة وتنفيذاً وقيادة ورجولة

ونابليون قائد عصامى . علم نفسه بنفسه . وكان لديه الذكاء والصبر وحسن الإدراك وقوة الذاكرة والإيمان بنفسه .. وهى صفات تجعله قادراً على أن يقوم بأى عمل عظيم .

هذا هو نابليون الشاب الذى سوف ينقل عين التاريخ إلى الشرق الأوسط مهد الديانات الكبرى .. لم يذهب نابليون قائداً مع ٢٥ ألف جندى فقط .. ولكن معه ١٦٥ عالماً وأديباً وفناناً .. وبهذه الحملة الفرنسية بدأ الاستعمار كما قال نهرو للأديب الفرنسى أندريه مالرو : « الاستعمار بدأ عندما ذهبت الأقلية البيضاء تستخدم السلاح ضد الأغلبية ذات الحضارة العريقة .. وسوف يذهب الاستعمار عندما تستخدم هذه الأغلبية نفس السلاح » .

الجبّة والقفطان

«يجب أن يكون الحاكم أسداً وثعلباً .. الأسد هو ما يراه الناس . ولكن الثعلب هو الذى يحكمهم» — عبارة لنابليون .

« يجب أن يمسك الحاكم بالسكر في يد والسيف في يده الأخرى » — عبارة لنابليون أيضاً .

وقد طبق نابليون هذه السياسة في مصر ، وقبل أن يجىء إلى مصر ..

فقد صدرت إليه الأوامر أن يستعد للحملة على مصر . وحشد نابليون جنوده فى موانىء فرنسا وإيطاليا . وجمع أكثر من ٤٠٠ سفينة حربية وتجارية . وخطب فى الجنود يقول لهم إنهم حاربوا فى الجبال والوديان والغابات .. وسوف يحاربون فى البحر ، أى سوف يحاربون الإنجليز .. ثم قام بجولة تفتيشية فى شمال فرنسا ليوهم الإنجليز بأنه سوف يغزو بريطانيا أو أيرلندا ..

واتجه بقواته إلى مصر ، وتوقف فى مالطة .. وترك بها حامية من أربعة آلاف جندى ، ووجد فى السجون أكثر من ثلاثة آلاف عربى من شمال إفريقيا . فأطلق سراحهم . وطلب إليهم أن يتحدثوا بنعمة نابليون . وكان بين الأسرى فتاة من الأسرة المالكة فى مراكش ، أطلق سراحها وبعث معها إلى ملك مراكش واحداً من ضباطه ..

.. وكان نابليون حريصاً على أن يؤكد للمسلمين أنه صديق لهم . وأنه ليس متعصباً ضد الإسلام .. فنابليون ككثير من أبناء الثورة الفرنسية من الملحدين .

.. وقيل إن جيش نابليون كان مكوناً من ٢٨ ألفاً . ولكن جاء فى مذكرات مارمون قائد حامية الإسكندرية أن عدد جنود نابليون هو ٢٤٣٤٠ جندياً . من بينهم ٢٩١٥ من الفرسان .. ١٠٥٥ مدفعية و ٤٤ كتيبة مشاة و ١٠٨٨ حصاناً .. وكان من بين جيش نابليون عدد من الفرسان جاءوا ليشتروا خيولا عربية ويدربوها فى مصر .

وقبل أن تتحرك قوات نابليون من فرنسا جمع نابليون كل قواده : ١٢ قائد فرقة و ٢٠ قائد كتيبة . وقال لهم بالحرف الواحد : « أنا عارف أن أكثرنا غير مؤمن . ولكن هذه البلاد التى ستغزونها مؤمنة مسلمة . ويجب أن نحترم دينهم وألا نتعرض لتقاليدهم وأعيادهم » .

ولم تكن للفرنسيين أية مشكلة فى الحياة فى مصر ..

ولكن جاءتهم مشكلة ملابسهم الأنيقة الثقيلة الشتوية . وكان عليهم أن يمشوا على أقدامهم من الإسكندرية إلى القاهرة بالطريق الصحراوى الرملى وفى عز الصيف وأصيب الكثيرون بضربة الشمس والحمى والتهبت عيونهم من الرمال . ورفض نابليون أن ينزع الجنود ملابسهم أو يتخففوا منها . وأصر على أن يلتقى المصريون بالفرنسيين وهم فى ملابسهم الأنيقة .

وعندما كان نابليون يملى مذكراته فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة

تذكر الأيام الأولى من دخوله مصر فقال : « الذى أضحكني ولا بد أن أضحك المصريين أيضاً أننا جئنا لنواجه أمطار الشتاء وعواصفه ، فلم نجد إلا حرارة الصيف ورمال الصحراء .. وعلى الرغم من أننى غيرت كثيراً فى شكل الملابس العسكرية ، فإننى حاولت أن أجعل الجيش كله يرتدى عمامة المسلمين .. دون أن يبدو الجندى الفرنسى مضحكاً كما فعل الجنرال عبدالله مينو الذى أسلم وتزوج مسلمة من الإسكندرية » ..

وعلى الرغم من دقة نابليون الشديدة وحرصه على أن يدرس كل شيء بنفسه ، فإن وقته لم يتسع لدراسة أسطوله الذى كان مسلحاً تسليحاً سيئاً ، والذى يحمل عدداً كبيراً من الناس فأصبح لذلك ثقيل الحركة بليد المناورة . كما كانت المدافع التى تحملها كل هذه السفن لا تزيد على ١١٢٤ مدفعاً فإذا أضفت إلى ذلك أنه لم تكن هناك خطة واضحة مدروسة ، عرفت أن هذا الأسطول حتى لو اشتبك مع الأسطول البريطانى ، فالفشل مؤكد لفرنسا .. ولكن لحسن حظ نابليون جاء الأسطول البريطانى إلى الإسكندرية قبل وصول نابليون . ولحسن حظ نابليون لم يشأ الإنجليز أن يجمعوا أية معلومات عن أى شيء .. ولم يتوقفوا يوماً أو يومين .. وإنما اتجهوا إلى قبرص والإسكندرية لحماية تركيا ومضيق الدردنيل من أى غزو يفكر فيه نابليون .

وقد حرص نابليون على أن يفعل شيئاً تاريخياً ، ليس هو مجرد غزو مصر . ودخولها . وإنما قرر أن يكون الغزو لائقاً بفرنسا بلد الثورة والحضارة . ولذلك جمع عدداً كبيراً من العلماء والفنانين . وطلب إليهم أن يجمعوا كل ما يمكن جمعه من معلومات عن مصر ، وعن الإسلام ، قبل دخول مصر . فحمل معه أعظم علماء عصره فى الرياضيات والفلك والجغرافيا والتاريخ ، والكيمياء والاستشراق واللغات والديانات .. وطلب إليهم أن يمسحوا مصر من جميع نواحيها وأن يؤلفوا كتاباً أو دائرة معارف عن مصر .

وأثناء الرحلة البحرية إلى مصر كانت لدى نابليون معلومات كافية عن مصر شعباً وأرضاً وتاريخاً وديناً .

وأثناء وجود نابليون فى مصر أصبحت فساتين السيدات فى باريس مستوحاة من الفستان التركى والإيشارب أو الكوفية المصرية .. وأصبحت مصر وتاريخها موضة المفكرين والمؤرخين فى فرنسا وفى أوروبا كلها ..

وقام علماء الحملة الفرنسية بسرعة بعمل إحصاء لمصر . وثبت لديهم أن مصر عددها ٣ ملايين . والقاهرة ٢٠٠ ألف والإسكندرية عشرة آلاف . وفي مصر ١٠٠ ألف يوناني و ١٠٠ ألف من البدو الرحل . أما الأتراك والمماليك فعددهم عشرون ألفاً – هؤلاء المماليك هم سلالة المغول والأباظة الذين اشتراهم أحد السلاطين الأيوبيين سنة ١٢٣٠

وفي الطريق بين مالطة والإسكندرية اعد نابليون منشورين . وطبعهما على المطابع الموجودة فى إحدى السفن . هذه المطابع العربية قد سرقها نابليون من الفاتيكان .

جاء في المنشور الفرنسى الذى وجهه لجنوده : إن الشعب الذى سنواجهه مسلم . يعنى مؤمن بالله ورسوله محمد . وكتابه القرآن . لا تعارضوهم. لا تناقشوهم ، يجب أن نحترم دينهم كما احترمنا دين اليهود والإيطاليين . يجب أن نحترم رجال دينهم كما احترمنا الحاخامات والأساقفة . يجب أن نحترم تلاوة القرآن . وأن نسكت عند سماع القرآن . هذه عادات مقدسة عندهم . وأن نحترم المساجد كما احترمنا الكنائس والمعابد . ثم إن السرقة لن تغنى إلا عدداً قليلا منا ، ولكنها تكلف فرنسا الكثير من سمعتها وكرامتها ومواردها وتجعلنا أعداء للشعب . ومن مصلحتنا أن نجعله صديقاً لنا . وسوف أعاقب اللصوص بشدة » .

أما المنشور العربى الذى وجهه للشعب المصرى بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣ ، وكان ذلك بعد يوم واحد من نزوله

إلى الشواطىء المصرية فقد جاء فيه : « منذ وقت طويل وهؤلاء المماليك العبيد الذين اشتراهم السلاطين من القوقاز وجورجيا يستبدون بمصر أجمل مكان في الدنيا . ولقد شاءت إرادة الله ، الذى توكلت عليه ، أن تدول دولتهم .. يا أبناء مصر . سيقال لكم إننى جئت أهدم دينكم . لا تصدقوا . وإنما جئت أعيد لكم حقوقكم . وأعاقب غاصبيها . وأنا أحترم دينكم . وأؤمن بالله ورسوله وكتابه القرآن الكريم . ونحن نؤمن مثلكم بأنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . ولكن ما هى تقوى المماليك .. ما هى العدالة فى أن يكون للمماليك كل شيء. وليس للشعب العربى شيء ؟! ما هى العدالة فى أن تكون لهم الحياة الكريمة ولكم وحدكم الذل والهوان ؟! فإن كانت هناك أرض ، فللمماليك وحدهم . وإن كانت هناك جاريات جميلات ، فللمماليك فقط . وإن كانت بيوت وحدائق : لهم ، ولا شيء لكم . ثم أين هذه الأراضى الخصبة ، وأين هى الحدائق ؟ أن بخلهم وجهلهم وظلمهم قد جعلها خراباً . فيا أيها القضاة والشيوخ والأئمة قولوا للناس إننا أيضاً مسلمون ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ألم نقض على البابا الذى كان يريد أن يهدم الإسلام ؟ ألم نقض على فرسان مالطة الأشرار الذين يقولون إنه لا سلام إلا بالقضاء على الإسلام ؟

طوبى لمن يكون معنا ، طوبى للمحايدين الذين يريدون أن يفهمونا بالعدل والإنصاف . والويل لمن يقف مع المماليك ضد هذا الشعب .. الويل لهم ولا أمل لهم فى النجاة من عقابنا » .

ولما علم القنصل النمساوى كارل مروستى أن الأسطول الفرنسى قد رسى فى الإسكندرية . أخبر مراد بك كبير المماليك . فقال مراد بك : من هم هؤلاء الفرنسيون أليسوا مثل الأروام الموجودين فى مصر .. خواجات

– نعم مثلهم .

– إذن سأقطع رؤوسهم . هل عندهم خيول ؟

ـ لا أظن ذلك .

ـ إذن سيفى وحده قادر على قطع رقابهم واحداً واحداً . وسوف ترى .

ويوم ٢١ يوليو كانت معركة أمبابة ..

ويوم ٢٣ يوليو دخل الفرنسيون القاهرة . واحتفلوا بالنصر يوم ٢٤ يوليو . ومات من الفرنسيين أربعون قتيلا وجرح منهم أكثر من مائة ، وفقد المماليك ألوفاً من رجالهم . ولكنهم قاوموا بشدة وحدة . ولم يكن يعيب المماليك إلا أنهم بلا خطة ولا نظام ولا طاعة .

وكان نابليون حريصاً جداً على أن يعرف تفاصيل ما جرى فى كل مكان . وعلى أن ينظر في شكاوى المصريين . وأن يرد على شكاواهم وعلى أن يعلن ذلك . وكان يهتم بالإعلان عن الشكوى وحلها ، أكثر من حلها .. إنه يريد أن يعرف الناس أنه مهتم بقضاياهم . فمشكلة المصريين فى ذلك الوقت أنهم بلا وزن عند الأتراك والمماليك ..

ومن أشهر الشكاوى التى عثروا عليها أخيراً فى مذكرات قواد نابليون شكوى بعث بها الحاج أبو النصر الحلو الذى زوج ابنته إلى أحد المماليك . ووكله فى أن يشترى لابنته ٢١ قيراطاً ثم سافر إلى الحجاز ليجد هذا المملوك قد سجل عشرة قراريط لنفسه .. فذهب الرجل يشكو إلى نابليون زوج ابنته وإهمال موظفى الحكومة . وحقق نابليون فى شكواه . وأعاد الأرض إلى ابنة الحاج أبو النصر وساعده على أن يطلق ابنته من المملوك .

ولما علم نابليون أن زوجات المماليك والبكوات قد شردن فى البلاد وأنهن تعرضن للسلب والنهب والهوان . بعث إليهن منشوراً يطلب إليهن العودة إلى بيوتهن . وأمر بأن تكون بيوتهن ملكاً لهن . وأن يعاد إليهن كل ما كان يملكه الأزواج .. ووعدهن بالأمان على حياتهن وأولادهن ..

وكان يوم أول أغسطس يوم حداد عاماً فى الجيش الفرنسى . فقد جاء نلسون إلى الإسكندرية وأغرق الأسطول الفرنسى كله .. وجرح نلسون ..

أما القائد الفرنسي فقد ذبحه الإنجليز ..

وكان من الضرورى أن يتظاهر نابليون ورجاله بأن الذى حدث لهم فى موقعة أبو قير البحرية ليس إلا شيئاً تافهاً . وأن الإنجليز سيجىء يومهم قريباً جداً . فلا يزال نابليون قوياً .. والجيش أيضاً ..

وفى يوم ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ ارتدى نابليون الجبة والقفطان والعمامة وكانت الجبة تتدلى على الأرض . فنابليون قصير القامة سريع الحركة . قصير الخطوة يتلفت يميناً وشمالا . ولا تتناسب هذه الخفة مع الوقار المطلوب لقائد عظيم فى ملابس رجال الدين . نابليون كان عمره فى ذلك الوقت ٢٩ سنة فقط أما المناسبة الدينية فهو مولد النبى . وعندما دخل نابليون الجامع الأزهر لمحه بعض الجنود . ولما تلفت نابليون وراءه وجد الجنود يضحكون ضحكات مكتومة . تضايق نابليون ولم يرتد ملابس رجال الدين ولكن هذا لم يمنع نابليون وهو فى داخل المسجد أن يجلس جوار أحد المستشرقين الفرنسيين يترجم له الآيات التى يتلوها مقرىء المسجد وكان نابليون يتمايل يميناً وشمالا كما يفعل المسلمون عند سماع تلاوة القرآن .

وعندما دعاه الشيخ البكرى نقيب الأشراف إلى تناول العشاء ، ذهب نابليون وجلس القرفصاء ، وأكل بيديه . ومسح فمه بالجبة . وعندما قدموا له بعض النشوق اعتذر .

وذكر فيما بعد فى مذكراته : أنه كان يود أن يضع النشوق فى أنفه لولا أنه لم يعرف فى ذلك الوقت ما الذى يجب أن يصنعه إذا عطس . ولكنه تعاطى النشوق بعد ذلك سراً . وهو أول من وضع المنديل فى كم الجاكتة ليكون قريباً منه إذا عطس .

وفى ٢١ أغسطس أنشأ نابليون « المعهد المصرى » وهو عمل حضارى من الدرجة الأولى وانعقدت أولى جلسات المعهد يوم ٢٤ أغسطس .. وقد قسم العمل فى المعهد إلى أربع شعب : الرياضيات والطبيعيات — والتاريخ —

والاقتصاد السياسى – والأدب والفنون .

وعلى الرغم من أنه لم يمض وقت طويل على وجود الفرنسيين فى مصر . فإن الجنود بدأوا يتمردون بسبب التعب والمرض والجوع . ويجاهرون بالغضب . وعلم نابليون بذلك .. فأنشأ لهم المقاهى . وسمح بشرب النبيذ . ونظم لهم رحلات سياحية فى داخل مصر للفرجة على آثارها التاريخية . ووعدهم بدعوة الممثلات والممثلين من باريس .

وأقام نابليون أول سباق للخيل فى مصر .. ورصد جائزة للفائز الأول وكانت الجائزة الأولى خاتماً ذهبياً به فص من الزمرد أحيط بالماس .. هدية من حرم مراد بك .

وفوجىء الفرنسيون بأن أحد القواد واسمه مينو قد أسلم . وأطلق على نفسه اسم عبد الله مينو .. واستحق بذلك احتقار الفرنسيين وحزنهم الشديد .

وفى ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ثار المصريون – أى بعد ثلاثة أشهر من دخول الفرنسيين – وقتل المصريون الجنرال ديبوى وغيره من الجنود والضباط . وكان رد نابليون سريعاً جداً . دخل الأزهر بالخيول . وضربه بالمدافع وقتل ٢٥٠٠ من المصريين .

وقال نابليون فى مذكراته : هنا فقط يجب أن يكون الحاكم أسداً .. يجب أن يتوارى الثعلب الموجود فى رأس كل حاكم . فالإنسان عندما يخاف يجب ان يكون قاسياً . فالأتراك أيضاً لا يمكن حكمهم إلا بالقسوة والعنف . وقال نابليون فى مذكراته : بعد ذلك اليوم كنت أقطع رؤوس المصريين خمسة وستة كل يوم . ليعرف الناس أننى هنا . وأننى على استعداد دائماً للانتقام . فلا طاعة بغير خوف .

وعاد الثعلب إلى الظهور وتوارى الأسد ..

وراح يزور رجال الدين والأعيان . ويعتذر لهم عما حدث . ثم طلب إلى رجال الدين أن يقولوا للمصريين فى المساجد إن ما حدث فى مصر

قد ورد ذكره فى القرآن الكريم . ويؤكد نابليون أن هناك أكثر من عشرين آية فى القرآن تتحدث عن القضاء على أعداء الإسلام . وبعد أن يتم القضاء عليهم ستسود الحياة فى مصر وفى العالم الإسلامى .

واعتاد نابليون أن يبتعد عن القاهرة كثيراً لعله يفكر فى هدوء . أو لعله يريد أن يعتاد قواده على بعده .. تمهيداً لهربه إلى فرنسا . وسافر إلى السويس ومعه العلماء ليروا الطريق الذى سار فيه موسى من مصر إلى صحراء سيناء .. ولعله يرى القناة القديمة التى شقها الملك الفرعونى نخاو . وفى ٣٠ ديسمبر سنة ١٧٩٨ عثر علماء الحملة الفرنسية على المكان الأصلى للقناة التى تصل بين البحر الأحمر والبحيرات المرة .. وجاء فى مذكرات نابليون : « إن وصل البحرين الأبيض والأحمر ممكن جداً . وفى ذلك كسب تجارى وعسكرى وسياسى هائل لفرنسا ولكن لست أنا الذى أستطيع ذلك » .

وبعد ذلك ذهب بجيشه إلى سوريا . وتقدم ولكنه اصطدم بعكا . وعاد إلى مصر مهزوماً . ولم ينسَ أبداً أنه وقف أمام عكا . وأن جيشه كان مثل موج هائل لم يفلح فى زحزحة شاطىء من الصخر ..

وكان يقول فى مذكراته : اصطدم طالعى بعكا .. إن ذرة من الرمل اسمها عكا غيرت مسارى .. لو كنت استوليت على عكا ، لجعلت من نفسى إمبراطورا للشرق .. لو ذابت عكا أمام ضرباتى لكنت استوليت على إمبراطورية الإسكندر ..

وعندما عاد إلى مصر سبقته قوات عسكرية تتحدث عن انتصار نابليون وسحقه للقوات السورية والتركية .. ولكن المصريين كانوا يعرفون الحقيقة ، وقد ضايقه ذلك كثيراً . وانتشرت فى ذلك الوقت أغنية شعبية تقول: أهلاً .. أهلاً .. يا نابليون .. يا بو شعر حلو .. وقصه جميله .. وحشتنا يا نابليون .. الدنيا نورت يا نابليون .. نورت الدنيا بمصباح من الزجاج الأبيض ...

أهلاً .. .. أهلاً بالرجل الذى يشرب القهوة سكر زيادة .. أهلاً بالرجل الذى يترنح جنوده السكارى فى الشوارع يطاردون النساء . أهلاً .. أهلاً .. مرحباً .. مرحباً بك يا رجل يا جدع » .

ولم يكد نابليون يصل إلى مصر بعد حملته الفاشلة على سوريا حتى عاود التنقل بين المدن وبين الحاميات الفرنسية . والالتقاء بالضباط وإصدار التعليمات الكثيرة الدقيقة لتدعيم الجيش الفرنسي وإعادة تنظيمه .. إذن نابليون قد قرر العودة إلى فرنسا . لقد جاءته معلومات تؤكد أن مؤامرة تدبر ضده هناك..

وبمعجزة أخرى هرب نابليون على إحدى السفن يوم ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٩ . وبعد ثلاثين يوماً من وصوله إلى فرنسا أصبح سيد فرنسا وأوروبا أيضاً وهو فى الثلاثين من عمره .

وحملة نابليون على مصر وسوريا فشلت بجميع المقاييس والموازين . فلا نصر عسكري ولا دبلوماسي ولا سياسي . ولا أضافت لفرنسا شيئاً . ولا أفادت مصر أو الشرق فى شيء . ولكن الشيء الوحيد الذى يحسب لنابليون هو إنشاء « المعهد المصرى » .. الذى أسفرت دراساته وأبحاثه الدقيقة الفريدة عن تأليف كتاب اسمه « وصف مصر » فى أكثر من ثلاثين مجلداً . من تأليف ١٦٥ عالماً متخصصاً . هذا الكتاب بمعلوماته ولوحاته وخرائطه يعتبر دائرة معارف من الدرجة الأولى . ويعتبر الأساس الأول لعلم المصريات والدراسات التاريخية لمصر ولأول مرة فى التاريخ . وقد كانت هذه الدراسة هى النواة للمتاحف المصرية فى العالم كله .. وخطوة فى الطريق الذى شقه العلماء بعد ذلك مثل شامبليون ومرييت وماسبيرو ودريتون ..

وحتى عندما كان نابليون فى منفاه لم ينس مصر . ومذكراته التى أملاها تؤكد ذلك . فهو يقول: لم أشعر بحريتى فى حياتى كلها إلا عندما كنت فى مصر . فقد استطعت أن أضع القانون بنفسى .. وأن أطبقه . وأن أعدل بين الناس وأن أرى نتيجة ذلك .

ويقول : لم أشعر باحترامي لنفسي إلا عندما كنت في مصر .

ويقول : لو كنت استوليت على عكا لأحدثت ثورة في الشرق ولاستوليت على تركيا وعلى الهند وغيرت وجه العالم والتاريخ .

ويقول في مذكراته : لم تكن معلوماتي كافية عن مصر . ولو عرفت عنها أكثر لغزوتها منذ وقت طويل ، ولقررت البقاء فيها . ولكن نجمي تخلت عني .. إنني أمشي دائماً .. ولم يتسع وقتي لكي أسألها أين يكون البريق القادم .. أين يكون الوميض والنصر بعد ذلك .

ومن أندر المخطوطات التي عثر عليها المؤرخون حديثاً تلك المسرحية التي كتبها نابليون في فصل واحد .. وتقع أحداثها داخل هرم خوفو وكانت على شكل حوار بين نابليون وبين علماء المسلمين .. عن الإسلام والإيمان بالله واليوم الآخر .

مسرحية ..
فى داخل الهرم الأكبر

الحب هو أن يفتح الإنسان عينيه فجأة على أقرب فتاة ويتعلق بها .. والثورة هى أن يفتح الإنسان عينه على أقرب شجرة ويقتلعها .. والسياسة أن يفتح الإنسان عينه على أقرب شجرة ثم يزرع حولها أشجاراً أخرى ثم يقتلع هذه الشجرة ويراه الناس وهو يزرع الأشجار ، ولا يرونه وهو يخلعها .. وكان نابليون يصف نفسه بأنه العاصفة التى تغرس البذور لتنبت أشجاراً مضيئة بالنار أو بالنور .

● ● ●

ونابليون هو الذى قال فى مذكراته بمنفاه فى سانت هيلانة : من السياسة أن تكون هناك أكثر من سياسة . فالسياسة هى كالسرير الذى يتمدد عليه المريض .. ويتقلب على جانبيه .. ثم ينهض ثم ينام لعله يستريح .

ومن كل غراميات نابليون ومعاركه لم ينسَ حادثين فى حياته كلها : الحادث الأول عندما كان يحشد قواته فى شمال فرنسا . وجاءت رسالة

خطها نسائي وفتحها وطلب إلى أحد سكرتيريه أن يرد عليها فوراً ، وكان نابليون محاطاً بأكثر من ١٥٠ ألف جندى استعداداً لعبور بحر المانش والنزول في بريطانيا ، وكانت جيوش نابليون في نفس المكان الذى وقفت فيه جيوش هتلر بعد ذلك بمائة وستة وثلاثين عاماً. كان ذلك يوم ٤ أغسطس سنة ١٨٠٤. صاحبة الرسالة اسمها كارولين، تطلب مساعدة لأخيها. وكان نابليون يملي رسائل متعددة فى وقت واحد. فتوقف عن الرسائل الأخرى وكتب إلى كارولين يقول: «أسعدتنى رسالتك. تذكرت والدتك وتذكرت أيامنا الحلوة. سوف أبذل ما أستطيع من أجل أخيك فى أقرب وقت. وقد فهمت من رسالتك أنك تسكنين فى مكان قريب. فكيف لا تجيئين لزيارتى ؟ ومع محبتى أؤكد لك أننى سوف أحقق رغبتك».

وجاءت مع أخيها وأمها إلى نابليون. أما زوجها فقد عينه نابليون مدير مدرسة، وأما أخوها فقد عينه نابليون ضابطاً. أما كارولين نفسها فقد عينها نابليون إحدى وصيفات والدته.. ثم نقل أسماء الأسرة كلها من كشوف الفرنسيين المهاجرين من إسبانيا، إلى فرنسيين مقيمين.. وظلت كارولين تتابع بعينيها وقلبها نابليون.. الرجل الذى قهر الملوك والقواد.. الرجل الذى تحدث عنه العالم.. سيد أوروبا.. قاهر الجيش الروسى والنمساوى معاً فى معركة أوسترليتس.. ثم الرجل الذى كان من الممكن أن يكون زوجاً لها.

وقصة كارولين هذه هى قصة الحب الأول فى حياة نابليون. قبل ذلك بعشرين عاماً عندما كان نابليون برتبة صف ضابط وفى السادسة عشرة من عمره، ضمن الحامية الموجودة فى مدينة فالنس على مسافة ٥٥٠ كيلومتراً من مدينة باريس. كان نابليون شاباً صغيراً شاحباً هزيلاً لا يلفت العين، ولكن لا بد أن تكون كارولين على درجة من الذكاء والخيال لتتصور أن هذا الشاب سوف يكون شيئاً. ولا بد أن تكون أمها أشد ذكاء من ابنتها. فهى التى سمحت لهذا الصف ضابط أن يكون صديقاً لابنتها، وأن يتردد على البيت بانتظام. ولم ينس نابليون طول حياته كيف أن هذه الأسرة عطفت

عليه .. وكيف احترمته ، رغم أنه لم يكن شيئاً . ثم أنه لن يكون شيئاً فى الجيش إلا بعد فترة طويلة . فبعد ست سنوات سوف يكون ضابطاً .. وبعد ست سنوات أخرى يكون برتبة ملازم أول .. وبعد سنوات أخرى سيرقى درجة .. ولكن نابليون أصبح بعد هذه السنوات المعدودة إمبراطوراً لفرنسا .. أو لأوروبا كلها ..

وكان نابليون وكارولين يتمشيان في الشوارع والحدائق .. وقد عاش نابليون فى هذه المدينة ست سنوات مقطوعاً . لم يأخذ إجازة يوماً واحداً . وكان مشغولاً بقراءة كل الكتب الموجودة فى مكتبة المدينة .. حتى أن آخر كتاب قرأه كان هو « فهرس » المكتبة .. ولاحظ أن به أخطاء .. وأن أمين المكتبة قد نسى عشرات الكتب لم يذكرها فتطوع نابليون وسجل هذه الكتب بخطه . وسجل المؤرخون أن نابليون قد تزحلق إلى عدة أخطاء إملائية . لم ينس كارولين حتى فى منفاه فى سانت هيلانة وكتب فى مذكراته: كانت أيام جميلة، كنا نمشي في الشوارع ولم يكن لنا سوى الأيدى والعيون واللسان .. وكنت أنا الذى أتكلم، ولو تركتها هى تتكلم لكنت استمتعت أكثر .. فصوتها جميل . وقلبها طيب . وسذاجتها تخجلك . وكنت أقطع لها الورود .. وافرشها أمامها . وكانت تداعبنى قائلة : مولاى صاحب الجلالة . لقد أكرمتنى أكثر مما استحق .. إنك تجلس على عرش قلبى .. ولو استطعت لأجلستك على عرش الكون .. ويومها كنت صف ضابط .. ولكن همومى كانت تطوحنى فى كل اتجاه .. ولا أعرف شيئاً عن مصيرها أو عن مصيرى .

ويبدو أن نابليون قد فاتحها فى الزواج، ولكن عندما أضرب عمال الحرير ذهبت حامية نابليون، وترك إليه وحده بعد أن أصبح ضابطاً أن يسكت هؤلاء الساخطين . وأعدم منهم ثلاثة ، وسجن خمسة .. وعادت الحياة كما كانت . وهذه أول تجربة ، أول مهمة .. وأول هم أيضاً .

أما الحادث الثاني الذي لم ينسه نابليون فهو ذهابه إلى مصر والاستعداد لهذه الحملة عسكرياً وعلمياً . فكلما حاول نابليون أن يفكر في ماضيه عاد إلى مصر . وماذا فعل بها . وماذا كان في استطاعته أن يفعل .

وقد ذكر المؤرخون أن نابليون كان يحترم الإسلام ، وكان يقول : إن الدين الذي يؤمن بأن الله واحد . وقوة مجردة . هو ولا شك أفضل الأديان .

وكان جورجو الذي رافق نابليون في منفاه يقول في مذكراته : كان الإمبراطور يقرأ القرآن بصوت منخفض . وكان الإمبراطور يقول : إن دين محمد هو الأفضل ..

وكان يقول في مذكراته أيضاً : إن الأديان كلها قائمة على المعجزات .. وعلى أمور أخرى لا نراها . ولكني أفضل ديانة محمد لأنها ليست وثنية . والأتراك يصفوننا بأننا وثنيون . واعتقد أنهم على حق ..

وفي مذكراته يقول نابليون : أعجبني رجال الدين في مصر ، لقد أخذمتهم هذا صحيح . واحترموني . ولكني احترمتهم أيضاً . فقد صارحوني منذ أول لحظة أنني رجل وثني لأنني أؤمن بأن الله ثلاثة .. وهم يؤمنون بأن الله واحد . إن هذا أفضل وأقرب إلى العقل .. فالمسيح ليس إلا نبياً مثل محمد وموسى ..

ونابليون كان يرى أيضاً : أن الدين هو نوع من الاتفاق بين الناس على فعل الخير والطاعة ، والمحبة والفضيلة .

وكان نابليون لا يريد الدين الذي يجعله تابعاً لشعب آخر .. أو لشخص آخر ولذلك كان نابليون يريد أن يقتلع البابا الذي يتجه إليه الشعب الفرنسي . واقترح على البابا أن ينقل مركزه إلى فرنسا . لأن نابليون لا يستطيع أن يحتمل أن يصبح البابا في يوم من الأيام نمساوياً مثلاً .. ويصبح الشعب الفرنسي تابعاً له ..

ونابليون متسامح لأنه ابن الثورة الفرنسية .. فالناس جميعاً أحرار في

معتقداتهم . كل واحد يؤمن بالدين الذى يراه ، ما دام وطنياً مخلصاً .

وكان نابليون يقول فى مذكراته أيضاً بوضوح وسياسة : الدين يجب ألا يعوق الحاكم عن إدارة شؤون الشعب .

أما الأديب شاتوبريان فقد وصف فى مذكراته كيف قابل نابليون بونابرت لأول مرة فى بيت أخيه لوسيان بونابرت سنة ١٨٠٢ . قال شاتوبريان: لقد تحدث نابليون وكأنه يستأنف حديثاً قديماً بيننا مع أننى لم أره فى حياتى. فقال لى : إننى لا أنسى منظر المصريين وهم يركعون ويسجدون فى الصحراء.. فى اتجاه القبلة .. بسهولة وببساطة وخشوع .. إن ربهم قوة سامية جارفة .. ليست لها صورة أو تمثال ..

ثم يقول شاتوبريان : إن نابليون كان يريد من الشعوب أن تؤمن بدينها لكي تهدأ روحها، ويستقر ضميرها ثم تتجه إلى أعمالها وحياتها اليومية .

ولكن نابليون عندما مات يوم ٣ مايو سنة ١٨٢١ قال قبل أن يجىء القسيس « إننى أموت الآن مسيحياً كاثوليكياً رسولياً .. فقد ولدت مسيحياً منذ ٥٢ عاماً » .

ونابليون قبل كل شىء هو ابن القرن ١٨ .. ابن العقل والوضوح .. ابن الشك طريق اليقين .. قرأ للفيلسوف روسو .. وقرأ للفيلسوف فولتير .. وهو يؤمن بأن الله : هو العقل الباهر ، وهو المهندس المنظم للكون ، وهذه صورة الله فى ذلك الوقت .

فنابليون رجل سياسة ومرونة، وفى مذكراته يقول : إن السياسى يجب أن يدعى النبوة وأن يكون نصاباً فى نفس الوقت .

ومن أغرب ما ترك نابليون للتاريخ : مذكراته .. ومحاولاته الأدبية والفنية .. حاول ولم يتسع وقته . وكان نابليون يعلم أنه سيموت شاباً، فالذى تحبه الآلهة تسترده شاباً . وكان يعلم أنه شهاب تطلقه الأرض لينفجر فى السماء ويخبو فى السماء أيضاً . ولذلك ـ ـ حريصاً على أن يفكر فى كل

شيء ويدبره وينفذه بسرعة . وكان قادراً على أن يكون فى غاية الحكمة والسرعة فى نفس الوقت .

وأغرب هذه المحاولات الأدبية كلها مشروع مسرحية من فصل واحد ونابليون أول من كتب مسرحية من فصل واحد فى التاريخ .

هذه المسرحية نشرت قبل سفره إلى مصر بثلاث سنوات، وقد نشرت فى مجلة « البيان » الفرنسية سنة ١٧٩٥ . وكان نابليون فى السادسة والعشرين من عمره ومعنى ذلك أن نابليون بدأ يهتم بمصر وبالإسلام قبل أن يفكر أحد من أبناء الشعب الفرنسى فى الاتجاه إلى مصر واحتلالها والتحكم فى البحرين الأبيض والأحمر والطريق التجارى إلى الهند .. ولا بد أن نابليون قد استمد معلوماته عن الإسلام والمسلمين من الكتب التى قرأها أيام حبه لكارولين، وقد حدثها عن ذلك كثيراً .

المسرحية اسمها « النبى المقنع » .. والمسرحية حوار بين نابليون وثلاثة من علماء الدين .. المصريين . وأحداث المسرحية تقع داخل هرم خوفو ــ فقد اختار نابليون الهرم مسرحاً لأحداث هذه المسرحية . اختار أعلى المسارح . اختار الحضارة الفرعونية قاعدة للحضارة الإسلامية والثقافة الفرنسية ــ منتهى الطموح .

« الهرم الأكبر . هرم خوفو. هدوء تام . الظلام تلمع به نجوم صافية فى السماء . الرمال باردة . ثلاثة أشباح تقترب . ينفتح باب الهرم . يصعدون السلالم بصعوبة .. يتجهون إلى قلب الهرم.. يجلسون جميعاً حول نابليون » .

نابليون : الله أكبر .. لا إله إلا الله . محمد رسول الله . وأشهد أننى من المؤمنين .

سليمان : السلام على رسول الله . والسلام عليكم أيها القائد المنتصر دائماً ، وحبيب رسول الله.

نابليون : أشكرك أيها الفتى على تحيتك، وأصارحك بأن القرآن قد شرح صدري . وبهر عيني . إن حبي لرسول الله لا حد له . وسوف أحج إلى بيته قريباً إن شاء الله . وكنت أتمنى أن أفعل ذلك لولا أن شاءت إرادة الله أن أتجه إلى مصر أولاً لكي أقضي على هؤلاء المماليك أعداء الشعب الطيب المؤمن بالله الواحد الأحد . لا شريك له .

إبراهيم: الله سبحانه وتعالى يلهم ملائكته أن يكنسوا التراب من طريقك ويزيلوا العقبات لتظل منتصراً على الدوام . إن المماليك ، أيها القائد المنتصر دائماً يستحقون الموت جميعاً .

محمد : أيها القائد العظيم . يا خليفة الإسكندر ، بارك الله سلاحك ورجالك . وبارك الله فى النيران التى تنطلق من مدافعك حتى تكون جحيماً لأعدائك وأعداء الإسلام .

نابليون : هل تعرف يا مولانا أن هذه النيران تصبح لعب أطفال إذا ما كانت هذه المدافع فى يدى . إننى أوجهها كيفما أريد ، حيث أريد وأنا لا أريد الا أعداء الشعب أعداء الإسلام . هؤلاء المماليك ..

« ينهض إبراهيم متأثراً . ويقف محمد . ومن بعده سليمان .. ويشير إليهم نابليون أن يجلسوا »

إبراهيم: عناية الله ترعاك يا من آمن بعيسى عليه السلام .. والله سبحانه وتعالى يجعلك سنداً لرسول الله ولأمة رسول الله وسنة رسول الله ..

نابليون : قل لى يا فضيلة الشيخ : ألم يقل الله فى كتابه العزيز إن من يعمل خيراً يره ومن يعمل شراً يره .. أياً كان دينه .. فرحمة الله تدركه ولو كان فى أعماق الأرض .. كما أن الموت يدركه ولو كان فى بروج مشيدة .

جميعاً : « سليمان ومحمد وإبراهيم معاً » .
نعم . صدق الله العظيم . وصدق رسوله الكريم . وبالحق نطقت

أيها القائد المنتصر دائماً .

نابليون : ألا ترون معى أن أمراً من السماء قد صدر لى بأن أستولى على ممتلكات الباب العالى التركى .. ألا ترون معى أن السماء .. أن الله وحده هو الذى ألهمنى أن أنقص ممتلكات الباب العالى فى الأرض ، لأضاعف كنوزه فى السماء .. أليس هذا ابتغاء وجه الله الذى وسع كرسيه السموات والأرض .

جميعاً : الله وحده يهديك إلى الصراط المستقيم .

« وينهض سليمان ومحمد وإبراهيم .. ولكن نابليون يمسكهم عن الخروج من الهرم الأكبر .. ويطلب إليهم ألا يحرموه من وقتهم وعلمهم .. فيجلسون » .

سليمان : ولكنك يا أيها القائد المنتصر دائماً قد عاملت بابا المسيحيين برفق .. وتسامحت معه ولذلك أريد أن أعرف حكمتك فى ذلك ..

نابليون : لقد سامحته فعلاً . فهو رجل كبير في السن . ثم إنه رجل طيب . وأنا لا اتفق مع هذا الرجل ، حتى لو كان من رأيك العفو عنه ، فهو يريد أن يضع المسلمين جميعاً فى النار .

إبراهيم : الله جل جلاله ، ورسوله الكريم ، قد أرسلاك لشد أزر الضعفاء ، وفتح أبواب السماء السابعة للمؤمنين على يديك بإذن الله ..

نابليون : صدقت يا أيها الإمام الفاضل . لقد قلتها أنت بلسانك . فالله سبحانه وتعالى وسع كرسيه السموات والأرض . وهو الذى جعل رسوله يعرج من الأرض إلى السماء فى ليلة واحدة .. والله قادر على أن يجعلكم فى ليلة واحدة أصدقاء للفرنسيين . والفرنسيون سوف يعوضونكم عن كل شىء ..

إبراهيم : الله وحده القادر على أن يجلسك إلى يسار رسول الله يوم القيامة .. يوم ينفخ فى الصور ثلاث مرات ..

نابليون : من له أذن فليسمع . من له عينان فلير . من له عقل فليفكر . إن يوم القيامة للمماليك قد جاء . وإن نهايتهم أكيدة . وإن اليوم هو يوم البعث .. البعث السياسي لكم ولشعبكم . ومن أجل الذين يتعذبون بظلم المماليك واستبدادهم،فيا أئمة المسلمين والدراويش قولوا للشعب المصري ما دار بيننا . حدثوه عن الذى سمعتم منا . هنا .. وفى هذا المكان التاريخى الرفيع، قولوا بصراحة قولوا للمصريين إن الذى يمشي وراء الجيش الفرنسى سوف يكسب الحياة الكريمة في الدنيا ، والسعادة فى الآخرة . قولوا للشعب أن يمشي وراءنا حتى نطهر البلاد من المماليك والبكوات . يجب أن تكون التجارة مزدهرة بيننا وبينكم بين فرنسا ومصر . يجب أن نفتح الدكاكين وننظف الموانئ ونبنى السفن . إن كنوز الصناعة والثقافة الفرنسية سوف تكون نصيبكم بإذن الله وبإذن رسوله الكريم. إن الفرنسيين ، إذا سمحتم سوف يشاركونكم السماء السابعة . وسوف يكون الفرنسيون سعداء عندما ينظرون إليكم وأنتم فى الجنة .. تشيرون بأيديكم الى الفاكهة فتسقط من الشجر .. إن الجنة مفتوحة لكم .. وتتسع لنا معكم . لندخلها معاً ..

الجميع : « محمد وسليمان وإبراهيم ونابليون : « معاً » »
والآن نخرج ..

« يخرجون من قلب الهرم الأكبر .. ويطلع القمر فى تلك الساعة من وراء السحب الكثيفة فى شهر يوليو (..) وينظر نابليون إلى الرجال ويصافحهم ويفاجأ بأنهم يحتضنونه ويقبلونه فى وجنتيه وفى كتفيه . ولم يكن نابليون قد عرف هذه العادة فيعاود مصافحتهم وتقبيلهم من جديد ..

ويتركهم وحدهم .. »

وفى هذه المسرحية يصف نابليون نفسه بأنه المنتصر دائماً .. ويطلب إليهم أن يقولوا للناس ما دار بينه وبينهم . فالذى يعنيه أن يعرف الناس . وأن يطمئنوا إليه ..

ولم تكن هذه المحاولة سوى أفكار نابليون التي لم يتسع وقته لتأملها أو تنظيمها . فقد كان نابليون يتفجر بطموح هائل .. فى فرنسا وفى أوروبا . وإفريقيا وآسيا .. كان الإسكندر في الشرق وشارلمان في الغرب .. ونابليون أيضاً .

● ● ●

وعندما قام المصريون بثورتهم ضده فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨ كانت صدمة لنابليون . وبسرعة — كما هى عادته — غير سياسته وخطوطه ، فاتجه إلى الأقليات فى مصر وجعلها تتجسس على الأغلبية ، وأطلق حرياتها ، وأعطاها امتيازات كبيرة عقاباً للأغلبية المسلمة التى تمردت عليه ، حتى اليهود أطلعهم على بعض أسراره ، واستعان بهم فى مصر وفى فرنسا .

وكان من عادة نابليون أن يختار عدداً قليلاً جداً من الناس يعرض عليهم أفكاره وإن كان يحتفظ بحق التغيير لنفسه فى أية لحظة ، وكان على صواب معظم الوقت ، ولذلك كان أعوانه يعرفون ذلك ، ولهذا يوافقون على كل ما يعرضه عليهم ..

ويبدو أن اليهود حاولوا أن يتسللوا إلى نابليون فى مصر .. ويبدو أنهم أوهموه أنهم قادرون على جمع معلومات من سوريا قبل أن يذهب لفتح عكا . وقد استراح نابليون إلى ذلك . وانهزم نابليون أمام حصن عكا . ولم ينس نابليون هذه الهزيمة . أما تفسيره للهزيمة فهو أن الأتراك قد استعانوا بالأسلحة الفرنسية والتدريب الفرنسى والمدفعية الفرنسية . ولذلك لم يستطع نابليون أن يحطم عكا . كما أن أحد زملاء نابليون فى المدرسة العسكرية كان يعمل مستشاراً للجزار باشا حامى عكا .

وكانت هذه أول تجربة لنابليون : فقد واجه أثر الثقافة الفرنسية بصورة عسكرية .

وكان نابليون يؤمن بأن جامعات فرنسا ومعاهدها أبعد وأعمق أثراً من الجيوش الفرنسية، ولذلك لم يعوض الحملة الفرنسية عن فشلها بكل معنى غير إنشاء المعهد المصرى الذى أثر فى الثقافة المصرية، وغرس عميقاً جداً ثقافة فرنسا ..

وعندما أعلن نابليون عبارته المشهورة عن التسامح الدينى، التقطتها جماعة من اليهود وأحسوا أن الثورة الفرنسية إذا كانت قد حررتهم فإن نابليون قد توجهم .

وإنه هو الرجل الذى اختارته الأقدار ايرفعهم من الطين إلى مستوى الأقدام ثم إلى مستوى الرؤوس . أما عبارة نابليون فهى : إن الدين لى . لصالح الدولة . والشعب يجب أن نحكمه بدينه .. أحكم الإيطاليين بالكاثوليكية، وأحكم العرب بالإسلام ولو حكمت اليهود لأقمت لهم هيكل سليمان .. ولذلك وبسرعة عقد اليهود أول مجتمع لهم فى باريس بعد أن أرسل إليهم نابليون ورقة بها عدة أسئلة وجلس حكماء اليهود وأغنياؤهم ، وعقدوا لجنة امتحان، وباسم الدين وخوفاً من نابليون وطمعاً فيه غشوا فى الامتحان وبمنتهى الأمانة .

الرجل الذى ضحك على اليهود

سأل النبى موسى : لماذا يبكى هؤلاء الناس ؟

قيل له · إنهم لا يجدون السمك .

ــ وكيف أجد السمك فى الصحراء ؟

ــ ولا يجدون البطيخ والخيار .

ــ بل يوجد.

ــ ولكنهم كانوا يأكلونه فى مصر مجاناً .

ــ والمطلوب ؟

ــ أن تجد لهم السمك .

ــ فى الصحراء ؟

ــ أطلب من ربك .

ــ فإذا لم يبعث لنا الرب ؟

- يجب أن تعود بهم إلى مصر .

وهنا صرخ موسى هو أيضاً وبكى وقال : يا رب أنا لم أكن حاملا فى هؤلاء الناس ولا أنا ولدتهم ونسيتهم .. ماذا أصنع ؟

ولحل أزمة السمك والبطيخ والخيار طلب إليه الرب أن يعقد اجتماعاً فى الخيمة يضم ٧١ من أعيان اليهود . وليبحثوا معاً حل هذه الأزمة التموينية ، وحلا لأزمة العصيان المدنى والدينى . وكان هذا أول اجتماع فى تاريخ اليهود وأول مجلس تشريعى يتخذ قرارات نافذة مسبقة بالقوة . فقد ضم مجلس موسى ٣٦ من رجال الدين و ٢٥ من التجار وأصبح هذا المجلس يجتمع من حين إلى حين . وبدلا من أن يجتمع فى خيمة كان ينعقد فى بيت عرف فيما بعد باسم « بيت الدين » ..

ولكن المجلس الذى انعقد فى باريس يوم أول آذار سنة ٥٥٦٧ عبرية (٩ فبراير سنة ١٨٠٧) كان بسبب بكاء الفرنسيين وليس اليهود . وقد كانت باريس أول مدينة فى العالم كله أحرقت التلمود فى الشوارع سنة ١٢٤٢. فقد شكا الفرنسيون من استغلال اليهود للفرنسيين، وشكوا من الربا الفاحش .. وشكوا أيضاً من أن هناك مدناً كاملة يمتلكها اليهود ، وأن البوليس لا يستطيع أن يتسلل إليها ، وكذلك المحاكم لا تستطيع أن تتخذ قراراً وتنفذ حكماً . فاليهود قوة مالية مسيطرة على البوليس وعلى القضاء . وقد تركز نشاط اليهود التجارى فى منطقة الألزاس على الحدود بين فرنسا وبروسيا ..

ولما علم نابليون بهذا الوضع الغريب رفضه لأول لحظة ، وقرر أن يجىء اليهود خاضعين له وللقانون فوراً ، وأن يعلنوا على كل المستويات أنهم ليسوا دولة فى داخل الدولة ، وأن الديون التى أغرقوا بها الشعب يجب أن تزول، أو تذوب فى مدة لا تزيد على سنة ، وألا يكون لهم محاكم خاصة.. أو قانون خاص . وأن يكونوا مواطنين مثل كل المواطنين .

وطلب إليهم نابليون أن يجمعوا أعيانهم فى مؤتمر عام – اسمه بالعبرية « سانهدرين » وهى كلمة مأخوذة من اليونانية « ساندريون » ومعناها مجمع عام ديني أو تشريعي ..

واشترط نابليون أن يضم هذا المجلس مندوبين لليهود من كل أوروبا .. وقال لهم مندوب نابليون : سوف يكون من المضحك طبعاً أن يلتقي يهود العالم في باريس ليصدروا قراراً أنهم شعب آخر غير الفرنسيين وأنهم من دم أصفى . وأنهم طبقة فوق كل الطبقات . وأنهم فئة مختارة ذات وظيفة اقتصادية . وأنهم طبقة . أو أنهم شعب من طبقة واحدة منتشرة فى كل أوروبا لا تحدها حدود ، ولا توقفها قيود أو سدود ، وأن دينها وشعارها وفلسفتها فى الدنيا : هى استغلال كل من ليس يهودياً ولصالح اليهود .

ووجه اليهود الدعوة إلى أعيانهم باللغة العبرية والفرنسية والألمانية . ورأس المجمع مليونير برتغالى اسمه فورتنادو . وكانت الجلسة الأولى فى فندق دى فيل . وكانت على شكل نصف دائرة . وارتدوا ملابسهم السوداء ودارت المناقشات بلغات كثيرة .

وأحس اليهود بوضوح أن نابليون يريد أن يتحكم فى السبعين ألف يهودى الموجودين فى فرنسا . فنابليون كما وصفه الأديب .. شاتوبريان : عبقرى الجنود والنقود .

والإمبراطور نابليون يريد فلوس اليهود .. ويريدهم أيضاً جواسيس له فى كل القارة الأوروبية .. وهو لا يريد أن تكون هناك دولة من اليهود على الحدود بينه وبين بروسيا يقومون فيها بالتجسس لحساب من يدفع أكثر .

أما رجال الدين اليهود فقد أحسوا أن نابليون قد خدعهم ، وجمع شملهم فى هذا المجمع المقدس وأنه أتاح لأعيانهم أن يتقاربوا ويتناقشوا . وكثير من اليهود أطلق اسم بونابرت على أولاده . وبونابرت تحولت فى

اللغة الألمانية إلى شينتايل — أى جزء جميل أو «الحته الحلوه » . ونسج اليهود قصصاً وأساطير عن نابليون الذى كان يتفقد بيوت اليهود وحواريهم . وكيف أنه كان يعطف عليهم ، وكيف أنه أحب فتاة يهودية وكيف أنها حملت منه سراً ، وكيف أنه تحول إلى اليهودية (...) وكيف أنه اقترض ملايين الفرنكات ، وكيف أنه وعد فتاة يهودية بأن يجلسها على عرش فرنسا يوماً ما . وأن هذه الفتاة ماتت . ولكن وعد نابليون لم يمت .. ولولا أن نابليون انشغل بحروبه فى أوروبا لكانت فتاة يهودية إمبراطورة على فرنسا .. وخرافات أخرى كثيرة .

وبعث نابليون بمندوب له إلى اليهود قبيل انعقاد المجمع المشهور يقول لهم : إن الوسيلة الوحيدة للقضاء على أسطورة الدم اليهودى المقدس هى أن يتزوج اليهود من الفرنسيين والفرنسيون من اليهود .

وذهب مندوب نابليون يقول لليهود : يجب أن تعملوا بأيديكم . يجب أن تفلحوا الأرض بدلا من هذا التعالى على الفرنسيين .. يجب أن تهتموا بالفن والأدب والموسيقى بدلا من صناعة الساعات والطب وصياغة الذهب ..

وفى كل مرة يبعث نابليون بمندوبه يجلس اليهود ويبحثون . وتصدر عنهم وعود غير واضحة .

ولكن نابليون كان أسرع منهم وأكثر دقة ، وأكثر حرصاً على أمن فرنسا وسيادة القانون على كل المواطنين ، وسيادته هو أيضاً .

فالثورة الفرنسية قد ساوت بين الجميع . وأعطت اليهود كل الحقوق الممنوحة للفرنسيين . لا فرق بين غنى وفقير ، ولا فلاح ولا إقطاعى . الكل أمام القانون سواء . وكل إنسان يختار الدين الذى يريحه . وأحس اليهود أن الثورة الفرنسية قد حررتهم . ولم تكد تحررهم الثورة حتى استعبدوا الفرنسيين واستبعدوهم أيضاً في القرى والمدن وهذا لم يقلق نابليون . فهو ابن الثورة الفرنسية وحاميها وإمبراطورها الوحيد .

وأحس اليهود أن نابليون قد أهانهم وأذلهم .. وأنه لا يريد إلا شيئاً واحداً : أن يعود اليهود مواطنين عاديين يعملون مع بقية الشعب الفرنسى تحت سلطانه وفى خدمته ، وبوضوح أكثر : جواسيس له على النحو الذى يريد .

فأرسل لهم نابليون ١٢ سؤالا يريد عنها أجوبة واضحة ، وطريق الإجابة يعرفها نابليون: من هم هؤلاء اليهود وإلى أى درجة هم مخلصون ؟ أو فى استطاعتهم أن يخلصوا لفرنسا وله . وإلى أى درجة هم مختلفون أو يحبون أن يختلفوا عن الشعب الفرنسى أو الشعوب الأخرى ؟

١ ـ هل من حق اليهودى أن تكون له أكثر من زوجة ؟

٢ ـ هل الطلاق مباح ؟ هل يعتبر مشروعاً إذا لم يتم فى محكمة ؟ وهل القوانين التى لم تخضع لها اليهود تتنافى مع القوانين الفرنسية ؟

٣ ـ هل من حق اليهودية أن تتزوج مسيحياً ، ومن حق اليهودى أن يتزوج مسيحية ؟ هل القانون اليهودى يقصر الزواج على اليهود فقط ؟

٤ ـ هل تعتبرون الفرنسيين المسيحيين إخوة لكم ، أو غرباء عنكم ؟

٥ ـ ثم ما هو موقف القانون اليهودى من الفرنسيين غير اليهود ؟

٦ ـ هل اليهودى الذى يولد فى فرنسا ويعتبره القانون الفرنسى مواطناً فرنسياً، هل تعتبر فرنسا وطناً له؟ هل تطيعون القانون الفرنسى وتحترمونه ؟

٧ ـ من الذى يختار لكم الحاخام ؟

٨ ـ ما هى سلطات الحاخام عليكم ؟ وهل له سلطات تشريعية أيضاً أم دينية فقط ؟

٩ ـ هل سلطاته هذه وفقاً لقانون معروف موضوع أو لتقاليد وعادات عندكم؟

١٠ ـ هل القانون اليهودى يمنع اليهود من استغلال اليهود وإقراضهم بفوائد باهظة ؟

١١ ـ هل القانون اليهودى يسمح ، أو لا يسمح ، بإقراض غير اليهود بفوائد باهظة؟

١٢ ـ هل هناك أعمال أو مهن يحرمها الدين عليكم ؟

وانعقد « السانهدرين » يجيب عن اسئلة نابليون . وكانت كلمة رئيس المجمع أن اليهود لم يهانوا في يوم من الأيام كما أهانهم نابليون ، فقد اعتبرهم شعباً متخلفاً همجياً مصاصاً للدماء ولا وفاء له . وأن نابليون قد وصفهم بالتعصب والتعالى والأنانية المطلقة . إذن لقد عرفهم نابليون بعبقريته معرفة واضحة سليمة .

وتعالت أصوات تقول : نابليون عدو اليهود رقم واحد ..

وقال أحد الحاخامات : إنه يعلم علم اليقين أن نابليون لا يريد من وراء هذا المجمع إلا صفقة واحدة . هذه الصفقة هى أن يجىء حاخامات أوروبا كلهم إلى باريس .. وأن يفرشوا له الطريق إلى بلادهم ليدخلها غازياً منتصراً .

ولم يعارض أحد من الحاضرين فى أن تكون هذه رغبات نابليون ، وأن يلجأ إليهم . إن إمبراطوراً عظيماً مثله قد اختارهم ليكونوا عيوناً وأصابع يتلمس بها الشعوب الأخرى .

وعندما دخل نابليون بولندا تقدم إليه اليهود يعرضون خدماتهم وضحك نابليون قائلا : إن المجمع المقدس فى باريس قد ظهرت نتائجه .

ولم يتردد ذلك العبقرى نابليون فى أن يستخدم اليهود فى أى مكان لصالحه ولحسابه . وكان من المألوف عندما يدخل نابليون أية دولة أن يسأل عن اليهود . وبسرعة يظهرون ومعهم فلوس وخرائط ووثائق ومنشورات . واستراح نابليون إلى ذلك ...

وانعقدت السانهدرين وأجاب الأعضاء عن أسئلة نابليون فى تسع فقرات من الكذب المركز . فقالوا :

١ ـ تعدد الزوجات حرام شرعاً .

٢ ـ الطلاق مسموح به بشرط أن توافق المحاكم المدنية على ذلك أولا .

٣ ـ الزواج يجب أن تسبقه موافقة مدنية .

٤ ـ لا مانع من الزواج بين اليهود والمسيحيين ولكن الزواج لا يلقى أى احتفال دينى ..

٥ ـ اليهودى يعتبر كل أبناء الديانات الأخرى إخوته. وعليه أن يساعدهم ويشجعهم ويحميهم (..)

٦ ـ وكل بلد يولد فيه يهودى هو وطنه . ومن الضرورى أن يحبه ويخلص له .

٧ ـ اليهودى ما حرم أى عمل وأية مهنة .

٨ ـ اليهود ينصحون أولادهم بأن يفلحوا الأرض ويحرثوها كما كان أجدادهم يفعلون .

٩ ـ اليهود ممنوعون شرعاً (..) من الاشتغال بالسمسرة والربا الفاحش وابتزاز أموال الآخرين سواء كانوا من اليهود أو المسيحيين (..) .

وذهب وفد اليهود يقدم الإجابة إلى نابليون . وقرأها نابليون ، ثم بعث بمندوب له يقول لأعيان اليهود : إن الإمبراطور قد استراح إلى هذه الإجابة . ويريدها أن تكون ملزمة لكل اليهود تماماً كما لو كانت تعاليم دينية . وعلى ذلك فكل يهودى هو مواطن فرنسى ما دام يعمل ما يستحق هذا الشرف . فإذا خان الأمانة والشرف سقطت عنه الجنسية الفرنسية .

وبسرعة أصدر نابليون قرارات مصادرة لأموال اليهود وتصفية للديون المستحقة على الفرنسيين فى المدن الواقعة على الحدود بين بروسيا وفرنسا وأعطى لليهود مهلة سنة يصفون فيها ديونهم ، ويعملون في زراعة الأرض وحرثها تأكيداً للمساواة بينهم وبين الفرنسيين .. وبداية للذوبان بين اليهود والفرنسيين .

ولم يكن نابليون يهتم كثيراً بالدين ، أى دين ، إنما كان يهتم بالأمن

والولاء لفرنسا والإخلاص لإمبراطورية نابليون . ولم يبق لنا من كل مذكرات نابليون سوى فقرات يؤكد فيها إعجابه بالإسلام والقرآن الكريم وشخصية الرسول .. وإن كان فى نهاية حياته المريضة قد عاد إلى الاعتراف بأنه مسيحى . لقد مات نابليون مسموماً ، وإلى جواره كانت نسخة من القرآن الكريم.

أما رأيه فى الديانة اليهودية فهى أنها مؤامرة من فئة من الناس على كل الناس .

وعندما ذهب إليه اليهود يطلبون حقوقاً ، وأماكن أومدناً لهم. قال نابليون عبارته المشهورة : لليهود كأفراد : لا شيْ . . « للشعب » اليهودي : كل شيْ . .

وبنفس السرعة التى تحرك بها نابليون « لاحتواء » اليهود ووضعهم فى جيبه تخلص اليهود منه وعادوا إلى كل نشاطهم السابق ، وبصورة مركزة حادة .. تعالت الشكوى من اليهود .

فأصدر نابليون قراره « الشائن » — كما يسميه اليهود — وكان ذلك يوم ١٧ مارس سنة ١٨٠٨. فقد حدد نابليون نشاطات اليهود فى أى مكان . فكان على التاجر اليهودى أن يحصل على ترخيص يتجدد سنوياً ، يجب أن يثبت حسن نيته وسلوكه وسيره وذلك بالحصول على شهادة من أجهزة الأمن تؤكد ذلك . ثم أصدر قراراً بطرد جميع اليهود من القرى إلا إذا قرروا أن يعملوا فلاحين . فليس من المعقول أن يزرع الفرنسى الأرض ويحرثها ، ويظل اليهودى جالساً نظيفاً فى دكانه ينتظر فلوس الفلاحين ولا يشارك فى شق الأرض أو شقائها .

وأصدر نابليون قراراً آخر : كل مبلغ من المال استدانته سيدة من رجل يهودى يصبح ساقطاً إذا أعلنت السيدة أنها فعلت ذلك دون إذن من زوجها ..

وقراراً آخر يقول : كل مبلغ من المال استدانه جندى أو ضابط من رجل يهودى وقد فعل ذلك دون إذن من رئيسه المباشر .. يصبح ساقطاً أيضاً .

وضاعت على اليهود أموال كثيرة .. وظل اليهود يترقبون الحالة

المالية والسياسية فى فرنسا . وأول من علم بهزيمة نابليون فى معركة واترلو اليهودى الإنجليزى روتشيلد . فقد أرسل أحد أعوانه ومعه قفص من « حمام الزاجل » واتفق معه على أنه إذا انهزم نابليون فليطلق حمامة .

وأطلق حمامة. وذهب روتشيلد يشترى الأسهم الرخيصة من البورصة. ولما علم الإنجليز بانتصار ولنجتون على نابليون ارتفعت الأسهم فى البورصة.. وباع روتشيلد أسهمه وكسب عشرات الملايين من الجنيهات ..

وبعد هزيمة نابليون طرد البابا كل اليهود من روما ومن المدن الكبرى ، وأعادهم إلى حواريهم المظلمة الضيقة ..

كذلك قيصر روسيا إسكندر الأول طرد اليهود من أعمالهم ، وألقى بهم فى أعماق الريف .

أما السفير النمساوى مترنيخ والذى كان عشيقاً لإحدى أخوات نابليون فقد بعث إلى حكومته يقول لها : كنا نراقب اليهود لأنهم جواسيس نابليون .. يمكن الإفراج عنهم الآن .. فقد عرضوا أن يكونوا جواسيس لنا أيضاً ..

وكذلك كان من بين حاشية نابليون يهود يتجسسون على اليهود .. ولليهود طبعاً ..

وعندما جاء نابليون إلى مصر اعتمد على عدد من المستشرقين اليهود . جاءوا إلى مصر . وكتبوا المنشورات باللغة العربية . وخرجوا من مصر ومعهم مخطوطات عبرية . نشرت فى أواخر القرن التاسع عشر ..

ولما رجع نابليون إلى فرنسا واتجه إلى التنظيم الداخلي .. وبعد أن أصبح إمبراطوراً قرر أن يربط اليهود فى خيط واحد يسحبهم وراء موكبه الإمبراطورى فانطلقت من باريس بعض النكت جمعها نابليون ، وكان أول إمبراطور يجمع النكت التى ضده .

وكان من بين هذه النكت واحدة أضحكته جداً .. وواحدة أحزنته جداً .. ولم يبحث عن صاحبها . وإنما اعتذر له اليهود عنها . واحدة تقول : كان

من عادة اليهود أن يبعثوا للبابا كل عام بظرف مقفل . وكانت التقاليد تقضى بأن يعيد البابا هذا الظرف دون أن يفتحه .. وذهب الحاخام وأعطى الظرف للبابا . ورده البابا .

ولكن البابا فكر بعد ذلك أن يسأل الحاخام: من أين جاءت هذه العادة؟
ورد الحاخام : بأنه ورثها عن حاخامات آخرين . . وسأله البابا : و لم لا تفكر في أن تفتح هذا المظروف ؟ أرى المناسب أن تعرف ما الذي به . .

وفتح الحاخام المظروف ، فوجد به فاتورة العشاء الأخير . .

العشاء الأخير هو آخر عشاء للمسيح مع حوارييه وفي هذا العشاء خانه أحد تلامذته وأسلمه للرومان مقابل مبلغ تافه وحاكمه الرومان بناء على طلب اليهود .

أما النكتة الأخرى التي أغضبت نابليون فتقول : إن الله عندما أعطى لليهود « الوصايا العشر » سأل الشعوب واحداً واحداً إن كانت تقبل هذه الوصايا . قال للفرنسيين : هل تقبلونها ؟ قالوا : وماذا فيها ؟ قال لهم : إنها تنصحكم بعدم خيانة الزوج لزوجته . فقالوا : شكراً .. لا نريدها . وقال للإيطاليين : وأنتم ؟ قالوا : وماذا فيها ؟ قال لهم : إنها تطلب أليكم ألا تصنعوا تمثالا ؟ قالوا : شكراً ... لا نريدها ..

وعاد الرب وعرضها على نابليون نفسه . وسأل نابليون : هل هى شيء مفيد ؟ قال الرب: نعم .. إنها تطلب إليك ألا تسرق الفرنسيين .. وألا تقتلهم .. وألا تصنع تمثالا لأحد غيره .. وألا تخون زوجات أصدقائك ..

وغضب نابليون لما في كلام الرب من سخرية . . ثم عرضها الرب على اليهود . وقال لهم : ما رأيكم ؟

قالوا : وكم تريد ثمناً لها ؟

قال الرب : مجاناً .

قالوا : إذن أعطها لنا .

واليهود أحق الناس بالوصايا العشر .. فهم لا يسرقون ولا يقتلون ولا يخونون بعضهم البعض .. وإنما يقومون بذلك مع كل الشعوب الأخرى التى يعيشون بينها ...

أطفال العسل والسم!

برقية عاجلة من إحدى المستعمرات اليهودية طارت إلى أمريكا تقول: الحقونا إن عدداً من الشبان يتبولون أثناء النوم ..

وهي ظاهرة نفسية تربوية . ولا بد لها من علاج . وذهب عدد من علماء النفس والطفل إلى إسرائيل ، واتجهوا إلى إحدى المستعمرات اليهودية ليروا هذا السلوك المنحرف ، وليعرفوا السبب ، وصدرت لهم كتب عديدة تشرح ذلك .

وهي ظاهرة عادية تحدث في كل أسرة . ولكن هذه البرقية وقد صدرت من إحدى « المستعمرات » اليهودية في إسرائيل كان لها معنى خاص . فقد كان منتشراً بين العلماء الأمريكان أن الانحراف نادر في هذه المستعمرات ولا عدد للدراسات التي صدرت عن تجربة الحياة في المستعمرات اليهودية منذ أواخر القرن الماضي .

ولكن أحدث الدراسات وأعمقها وأهمها أيضاً كتاب للعالم الأمريكي

اليهودى « برونو بتلهايم » وعنوانه « أطفال الحلم » — والحلم طبعاً هو قيام دولة إسرائيل ، أو إسرائيل الكبرى .. الأرض التى فيها اللبن والعسل ، والتى يهربون إليها من الأرض التى فيها السم .. سم التعذيب والاضطهاد فى أوروبا وآسيا .. والمؤلف الأمريكى أستاذ فى جامعة شيكاغو ، وهو من أشد الناس اهتماماً بتربية الطفل . وقد أضاف كثيراً من النظريات الجديدة وخصوصاً فى النمو والاضطرابات العاطفية عند الطفل . ومن رأى بتلهايم : أن المجتمع الذى يهتم بالطفل ، هو المجتمع الذى يستحق الاهتمام . ولكى نفهم أى مجتمع يجب أن نفهم أسسه التربوية . ولكى نفهم هذه الأسس يجب أن نفهم المجتمع الذى نخدمه .

وقد ذهب إلى إسرائيل وعاش فى إحدى المستعمرات ، ورأى وتأمل . وقرأ ونشر ، لعل أحداً يستفيد من خبرته العميقة . وهو يدعو كل من يهتم بتربية الطفل أن ينظر إلى هذه التجربة بكل ما فيها من عيوب ومزايا ولأن هذا الرجل جاد ولأن الاهتمام بالطفل هو اهتمام بالأجيال الجديدة فى إسرائيل وعندنا أيضاً فإن هذا الكتاب له أهمية خاصة . ولأنه من الضرورى أن نعرف عدونا على كل مستوى .. وفى كل صورة ، فكل دراسة جادة عن العدو هى فرصة لأن نراه ونتأمل . وأن نقارن وأن نعرف وأن نستفيد . والمعرفة فى حد ذاتها فائدة كبرى .

هناك عدد كبير من المستعمرات فى إسرائيل يصل إلى ٢٥٠ مستعمرة. هذه المستعمرات تديرها الأحزاب اليسارية والدينية . ولذلك فهناك مستعمرات يسارية ويمينية ومعتدلة ودينية . وسكان المستعمرات عددهم يوازى ٤٪ من سكان إسرائيل كلها . وحسب إحصائية سنة ١٩٦٤ يبلغ عدد سكان المستعمرات ٨٠ ألفاً — ٧٤ مستعمرة يسارية (تضم ٢٧٤٥٠ عضواً) — و ٥٨ مستعمرة معتدلة (٢٣٥٢ عضواً) و ٧٦ مستعمرة يمينية (٢٤٤٦٧ عضواً) و ١٢ مستعمرة دينية و ٢٠ مستعمرة مستقلة .

وهذه المستعمرات الزراعية التجارية الصناعية العسكرية متنوعة حسب

حجمها .. وحسب مساحة الأرض التى تشغلها ، وحسب الأحزاب التى تديرها ولكن المعنى العام واحد : إنها مستعمرات ملحدة. لا توجد هناك ملكيات خاصة وإنما الجميع يملكون كل شيء . أو لا يملكون أى شيء . ولا شيء يعاقبه قانون المستعمرات مثل النزعات الفردية . أو حرص إنسان على أن يكون بمفرده أو له رأى خاص أو اجتهاد فى أى رأى .

وأهم من ذلك أن الطفل لا تربيه أمه . وإنما تتولى تربيته فتاة متفرغة أو سيدة تتناوب تربية الأطفال من سيدات المستعمرة . وليس من حق أى أم أن تحتضن طفلها ليلا . فالأطفال ينامون فى مكان آخر . وتتفاوت عقوبة الأمهات اللاتى يملن — أحياناً — إلى حضانة الطفل . فبعض المستعمرات تطرد الأم وتحتفظ بالابن . لأنه ابن المستعمرة وإن كانت الصدفة فقط هى التى جعلت هذه السيدة بالذات تلده . أو تطرد الأم والطفل . وإمعاناً فى العقوبة فإنها تحتفظ بالأب ...

أما الجنس فهو حق طبيعى .

وإن كانوا فى داخل المستعمرات يستنكرون العلاقات غير الزوجية .

والذين عاشوا فى أولى المستعمرات اليهودية واسمها دجانيا يروون قصصاً عجيبة . من بينها أن أهل هذه المستعمرات قرروا ألا يكون هناك زواج ، حتى لا تكون هناك أسرة .. أو مجموعة أسر .. هذه الأسر تترابط وتتماسك وتنعزل وبذلك تتفكك الجماعية .. أى تتفكك المستعمرة كجماعة . وبعد ذلك قرروا أن يكون هناك زواج . ولا يكون حمل أو ولادة .. وكانوا يذكرون فى تفسير ذلك أن الحمل والولادة نوع من الاعتراض على سير العمل . فالمرأة يجب أن تعمل مثل الرجل . وأن المرأة قد عاشت طول عمرها مقيدة بالطفل . ومن حقها أن تحرر من الولادة ومن الطفل .

ثم الديانة اليهودية تحتقر المرأة . والرجل فى صلوات كل يوم يشكر الله أن خلقه إنساناً وليس حيواناً ، رجلا وليس امرأة . وعلى الرغم من أن

المرأة لعنة ومحنة وكارثة فى الدين اليهودى ، فإن الطفل لا يعتبر يهودياً إلا إذا كانت أمه يهودية وعلى اليهود أن يواصلوا مشوارهم الطويل فى أن يتزايدوا حتى لا ينقرضوا أمام الاضطهادات الكثيرة . فالمرأة اليهودية تريد أن تتحرر من أنوثتها وأمومتها ولا تستطيع أن تتحرر من رسالتها التاريخية . ولذلك فسكان هذه المستعمرة قد قرروا ضرورة الزواج وأن يكون لهم أطفال . وعندما ولد طفل احتاروا فى تربيته هل يخدمه الرجال أم النساء . تعب الرجال . وتحيرت النساء . وهل ينام الطفل مع أمه أو وحده ؟ كان لا بد أن ينام بعيداً عن أمه .. وكل الأطفال بعيداً عن أمهاتهم ..

ولكن لماذا اختار اليهود الحياة فى المستعمرات ؟ لماذا هربوا من المدن وعاشوا فى الصحارى ؟ ما هو المرض الذى يعالجونه ؟ ما هو العبء الذى يتخوفون منه ؟ ما الفائدة لهم .. ولغيرهم ؟ ..

لقد عاش اليهود معذبين فى المدن فكرهوها . ولم يعش اليهود فى كل المدن . وإنما فى حوارى المدن . حارات اليهود .. الجيتو .. هذه الحارات ظاهرة قذرة حقيرة . ولكن داخلها تجرى كل طقوس الديانة اليهودية المتعصبة. الأسرة تأكل فى مكان واحد . الأب يتصدر المائدة ويستهل الطعام بالصلاة . والأم تعد الطعام . فقاعة الطعام مكان للاجتماع الدينى والتعهد والعهد بأن يتحد اليهود من كل لون وفى كل مكان ومن أجل أن يكون لهم وطن .

ولا بد أن اليهود قد ضاقوا بهذه الحوارى ..

ومعظم هذه الحوارى كانت فى أوروبا الوسطى .. وفى ألمانيا بصفة خاصة ولغة اليهودية — اليديشية — أصلها ألمانى أيضاً . والتعلم الألمانى جاف قاس ، يضاف إلى هذا الضيق : تعاليم الديانة اليهودية المتشددة . وعندما ظهرت جماعة « الطائر المهاجر » انضم إليها اليهود فى أوروبا . ولم يكن هذا الطائر المهاجر إلا رمزاً لليهودى الذى يريد أن يهرب من ضيق الحارة والمدرسة

والدين ومن أن يشعر بأنه يهودى وسط جماعة من المسيحيين .

ولذلك أقام اليهود مستعمراتهم في الصحراء .. وجردوا هذه المستعمرات من قيود الحارة واللغة والدين . ولكن هذه المستعمرات تحولت مرة أخرى إلى حارات ضيقة . فاليهود حريصون الآن على أن يتماسكوا وأن يكون مجالهم أضيق فهم في جزيرة محاطة بالأعداء . فقد اختار اليهود أن يغتصبوا أرضاً وأن يحاربوا أصحاب هذه الأرض . فالأمن الذى كانوا ينشدونه قد أضاعوه . واللبن والعسل والزيتون قد اختفت وراءها القنابل والمدافع .

وهذه المستعمرات لها أهمية خاصة لمن يدرس حال الطفل بلا أم ولا أب .. أو حال الأطفال الذين لا يلقون عناية من آبائهم ، مثل أولاد الفقراء .. أو أولاد الملاجىء .. أو الأطفال الذين تربيهم زوجات الأب .. أو زوج الأم .. أو الأطفال الذين تتركهم الأمهات العاملات للمربيات والمدرسة . أو بعبارة أخرى : ماذا يجرى هناك لتربية الطفل (صلة بالأب والأم لأن الأبوين لهما عمل آخر غير تربية الطفل) .

شيء غريب يحدث في المستعمرات اليهودية وخصوصاً بالنسبة للمرأة فالمرأة هى التى تحتاج إلى المساواة بالرجل . وهى التى ترى المساواة فى أن تحرر من لعنة جسمها الذى يمرض كل شهر . والذى يعطلها عن أن تكون إنسانة تقرأ أو تفكر وإنما تظل مربوطة بسلاسل من الحنان والحب إلى طفلها الرضيع الذى يحتاج إليها — أو هكذا تعلمت من أمها . إن المرأة لا تكون أنثى إلا إذا ولدت . فالأمومة هى نضج الأنوثة ونعمتها الكبرى ورسالتها التاريخية أيضاً .

إن المرأة فى المستعمرات كثيراً ما رفضت الحمل وكثيراً ما رفضت العلاقة الزوجية . واختارت الزمالة للجميع . أو الأخوة . وهناك يصبح الجنس ثانوياً بل ان الجنس يصبح لعنة لأنه يهدد المرأة دائماً بأنها سوف تفقد حريتها عندما تنتفخ كرشها ..

ولكن المرأة لا تقاوم أن تكون أماً . من هنا كانت نسبة المواليد عند يهود المستعمرات قليلة نسبياً . بل ونسبة العقم عند النساء أيضاً مرتفعة وربما كان ذلك لأسباب نفسية . فكثيراً ما يصاب الرجال والنساء بعقم لمجرد الخوف الشديد أن يكون لهم أولاد . وحتى عندما يحدث العقم فإن هذا الخوف لا يزول .

ولا بد أن تكون هذه المستعمرات صورة بارزة تهم المشتغلين بتربية الشبان وملاحظة الانحرافات الشديدة عليهم : الجنس وإدمان المخدرات والشعور بالضياع والشعور بالغربة والميل إلى التخريب والانسحاب من حفلات العمل الجماعي الاجتماعي والسياسي والعسكري .

فهذه مشاكل موجودة في كل دول العالم . وقد كان العلماء يتصورون أن الحياة من غير أم تؤدى إلى الانحراف . وأن الحياة بعيداً عن الأبوين كارثة وأن الطفل اللقيط هو لعنة السماء على الأرض . وأن أولاد الفقراء هم الذين يعيشون في ظروف غير إنسانية وأن تربيتهم حيوانية بدائية . فالطفل الفقير يبحث عن الضروري من أي شيء . الرغيف واللبن والدواء .. أما حنان الأم ورعاية الأب والمدرسة والمستشفى فتلك أنواع من الترف لا يقدر عليها ولا بد أن يكون من واجب الدولة « تأهيل » هؤلاء المواطنين الفقراء وتحويلهم إلى أناس صالحين يشاركون في الحياة ولا يرفضونها أو يتفرجون عليها ..

ولكن يبدو أن الدراسات التي أجريت على هذه المستعمرات لها دلالات أخرى . لأن نسبة الانحراف بين الشبان أقل . فالشبان لا يتعاطون المخدرات لأنها لا تصلهم ، وإن كانت إسرائيل تهرب المخدرات إلى كل دول العالم ولكنها تحرمها بتاتاً . بل إن سكان المستعمرات لا يستطيعون شراءها فليس لديهم فلوس . لأن أحداً لا يملك شيئاً . ولا أحد يملك أكثر من غيره بل إن الطفل الصغير يجد أمامه نفس كمية الطعام التي يجدها أمام طفل آخر

مهما كانت صحته ومهما كانت قدرته الجسمية .. بل إنهم في داخل المستعمرات يوزعون الأمشاط حتى على الصلع . لأن الشرط الأساسي هو المساواة المطلقة .

ولا بد أن نثير قضية أبناء الملاجيء .. هؤلاء الأطفال الذين عزلهم المجتمع كأنهم مرضى . وأن مرضهم سريع الانتشار مع أنهم ضحايا أناس يعرفونهم . وقد دلت الدراسات على أن هذه التربية الجماعية والحياة الجماعية تؤدى إلى كثير من الانحراف النفسي والاجتماعي . ولكن يبدو أن الدراسات في المستعمرات اليهودية ، قد كشفت لنا عن دلالات مختلفة تستحق أن نلتفت إليها — وسننقل ذلك فيما بعد لأنه من الضروري أن نعرف ما يجرى في أرض ونفس مستعمرات أعدائنا .

وليس من الضروري أن يكون اللقيط مجرماً ولا أن يكون اليتيم ذليلا ، ولا أن يكون الفقير حيواناً . ولا أن يفسر بأنه دون الناس جميعاً ..

وإذا كانت الأم هي مصدر الحياة والحنان ، فما الذى فعله الطفل الذى فقد الأم أو الأب .. أو كانت له أم انشغلت عنه بالعمل .. فإذا حاولت أن تحنو عليه كانت جاهلة .. أو كان عندها أطفال آخرون .. أو كانت مريضة .. أو انتزع منها طفلها ليعيش مع أبيه وزوجة أبيه .. لا بد أن يفكر العلماء في ظروف الأطفال الذين ولدوا.. ولكن المجتمع لم يحتفل بهم .. فهناك ألوف الملايين من هؤلاء الأطفال والرجال .

الذين يتسلطون
على زوجات الغير

كل أم تقول : من يمسح خد طفلي ، فقد قبلني في شفتي .

جوهرة نفقدها عندما نكبر : أطفالنا .

خلق الله آدم ، ثم عاد فخلق حواء أحسن منه.. ولكنه خلق الأطفال أروع من الجميع ..

أطفالنا الصغار همومنا الصغيرة .. أطفالنا الكبار .. همومنا الكبيرة .

تستطيع أن تفعل من الطفل أي شيء إذا كنت تلعب معه .. ومن الأم أي شيء إذا كنت تلعب مع طفلها ..

أطفالنا يولدون في سن متأخرة ، يتامى في سن مبكرة ..

ما الذي يجعل الزوجة تتحمل سخافة الزوجية ، مرة وألف مرة : أطفالنا

وغير ذلك تقوله كل أم ..

ولكن ما رأي الأم إذا قرر المجتمع ، أي مجتمع ، أن يعفيها من هذه

المهمة ؟ أن يسحب منها وظيفة الأمومة ، وأن يترك هذه الوظيفة لسيدة أخرى .. أو لسيدات أخريات . ما رأى الأم إذا استغنى المجتمع عن ثدييها بزجاجة ، وعن صدرها بمخدة ، وعن حنانها بعادات أخرى ؟

إن الأم ترفض عادة ، ومعنى ذلك أن تقبل هذا العذاب وتشكو منه وتجد المتعة فى هذا العذاب وفى الشكوى منه ، ولو حرمتها الابن لأصابها الجنون . ولكن الحقيقة أنه لا توجد أمهات كثيرات فى الدنيا قد تفرغن للطفل ، أو إذا تفرغن للطفل يعرفن كيف يكن أمهات .

ولكن هل حنان الأم ضرورى ؟

فى المستعمرات اليهودية قد جربوا هذا النوع من الحنان ، ورأوا أنه ضرورى لبعض الوقت ولكن ليس ضرورياً دائماً ، فالحنان ضرورى لكل الحيوانات وللإنسان أيضاً ، حتى القرود إذا سحبناها عن صدر الأم وهى صغيرة مرضت ، إذن لا بد من حنان الأم وثدى الأم ، ولكن من الضرورى أن تكون الأم هى المصدر الوحيد للحنان . ويكون معنى ذلك أن الأم هى الحنان الواحد المستمر أى الحنان من إنسان واحد وبصورة مستمرة ..

ولكن فى المستعمرات اليهودية يربون الطفل بصورة أخرى مختلفة عن الصور المعروفة لدينا جميعاً .

فمن المؤكد أن الطفل يحتاج إلى الحنان وإلى الرعاية ، هذا الحنان يغرس فى الطفل نوعاً من الأمان ومن الثقة بالنفس ، فهو يثق فى نفسه وفى غيره ، ولذلك لا يفزع ولا يخاف ، يستطيع أن يقلب رأسه يميناً وشمالا وهو فى المهد ، ويمد يديه ورجليه بلا خوف . ومعنى ذلك أن الطفل لا يخاف من شىء وفى نفس الوقت يثق فى غيره ، فهذه الحركات لن يكون رد فعلها أن أحداً يضربه أو يخيفه ، ويثق الطفل فى قدرته على تحقيق احتياجاته ، والطفل الرضيع يثق فى قدرته على الاعتماد على نفسه ، وعلى عدم الاعتماد على الآخرين .

والأم ليست مهمة فى حياة الطفل ، وإنما المهم فى هذه الحالة الأمان ، ولا يهم من يكون مصدر الأمان والاطمئنان . وهناك نوعان من الأمان :

الأمان الجسمى : أى ثقة الطفل بجسمه .

الأمان الاجتماعى : أى ثقة الطفل بزملائه الصغار فى العنبر الذى ينام فيه ..

وأهم أنواع الأمان عند طفل المستعمرة اليهودية أنهم يعلمونه أن الأمان الحقيقى هو أنه سوف يعيش ، ولا خوف على حياته ..

وكان فرويد يؤكد دائماً أهمية الأم فى حياة الطفل ، ولكن هذه التجارب تقطع بأن دور الأم ليس مهماً ، بل ويمكن الاستغناء عنه ، ولكن هذا الاستغناء لا يتم مرة واحدة ، ولكنه يتم ، فالطفل يفطمونه بعد ستة أشهر أى بعد ستة أشهر من الرضاعة من الزجاجة ..

وهناك خلافات بين المستعمرات اليسارية واليمينية فمستعمرات اليسار تمنع الأم من إرضاع طفلها ليلا ، والمستعمرات اليمينية لا تمانع فى ذلك ، أما الرضاعة فى الليل فممنوعة حتى لا يعتاد الطفل أن ينتظر أمه إذا جاء الليل ، وحتى لا يخاف ويبكى فتجىء الأم وترضعه وتطمئنه فى نفس الوقت ، ومن الثابت علمياً أن مخاوف اطفال المستعمرات من الظلام فقط .

ففى الظلام يشعر الطفل أنه وحده ولا يدرى ما الذى سوف يحدث له ، ثم أنه لا يرى زملاءه الأطفال فى الغرفة التى ينام فيها ..

وطفل المستعمرة لا يعرف التدليل ..

وهو أيضاً لا يعرف قسوة الوالدين فلا أب ولا أم تضرب طفلها لأى سبب بل لا توجد أسباب لأن يفعل أحدهما ذلك .

والأم تعلم أنها ضعيفة أمام طفلها وأن لطفلها سلطاناً عليها ، وعلى الرغم من أن الطفل يحتاج إلى أمه جسمياً ونفسياً واجتماعياً ، فإنه يستطيع أن

يتحكم فيها جسمياً ونفسياً واجتماعياً ، والأم تعلم قوة الطفل وتخشى من سوء استغلاله لهذه السلطات .

وسيطرة الأب على الطفل هي التي خلقت « عقدة أوديب » ، أي تعلق الطفل بأبيه ثم اغتياله بعد ذلك .

ولكن ماذا يحدث لو أن المستعمرة جردت الأبن من سلاحه، والأب أيضاً .

إن الآباء قد نزلوا عن سلطانهم للمستعمرة ، أو لمجتمع المستعمرة ، فالأطفال أبناء المستعمرة ، ولا يقول الطفل ابن فلان .. وإن كان الأب أحياناً يقول : هذا ولدى ، ويكون الرد عليه : فعلا ذلك ، وفى نفس الوقت ابن المستعمرة .

وقد دارت مناقشات حادة بين أحد الآباء وزملائه رجال المستعمرة ، الأب يقول : إنه ابنى .. ويثور الرجال قائلين : بل هو ابننا جميعاً ، وأنت ما الذي فعلته له بالمرضعة والمربية ؟ قدمنا له الطعام والشراب والعلم والعلاج ، فماذا فعلت أنت ؟ وماذا فعلت أمه أيضاً ؟ إن الدور الذى تقوم به المربية هو امتداد لدور الأم ، ولكن المعنى المقصود غير ذلك : المطلوب هو إلغاء دور الأم .

وبذلك يكون دور المربية هو دور المستعمرة نفسها ، فهى مندوبة عن المستعمرة ، والطفل مرتبط بزملائه الأطفال وعندما يكبر ويبكى فى الليل فإن زملاءه يتولون إسكاته ، إنهم مرتبطون به ، إنهم مجموعة من التوائم بحكم العشرة والنشأة والأمان المشترك فهم يرتدون ملابس متشابهة ، ويأكلون طعاماً واحداً ، ومن الممكن أن تتغير المربيات مع بداية الفطام ، فكأن المستعمرة تفطمهم عن اللبن وعن المربية التى تقدم لهم اللبن ، وتظهر مربية عندما ينقلون من الحضانة إلى رياض الأطفال .. ومعهم مختلف اللعب المختلفة ، فإذا رأوا هذه المربية يوماً ما حدث شيء غريب ، إن أحداً لا يحبها ولا يسلم عليها ولا يقول لها : شالوم — أى سلام عليكم ،

وإنما هي التي تقول . فهم لا يشعرون نحوها بأى امتنان خاص ، وكذلك بالنسبة للأب والأم ..

ولفت نظر علماء النفس الأوروبيين والأمريكان الذين زاروا المستعمرات اليهودية أن الأطفال يمصون أصابعهم وظاهرة « مص الأصابع » معناها أن الطفل يحتاج إلى شيء ، ويظل يضع إصبعه في فمه إلى أن تتحقق رغباته ، فما الذى تفعله المستعمرة فى هذا الموقف ؟

كان الجواب : أن الطفل إذا كان يريد شيئاً فقد وافقنا على أن يمص إصبعه ، وبذلك يكون مص الأصابع غرضاً فى ذاته ، وليس عندنا ما نعطيه له أكثر من ذلك ..

فالطفل لا يأخذ أكثر مما يأخذه غيره ..

فالسرير والغطاء ملك للمستعمرة ، واللعب أيضاً ، فهى جميعاً « عهدة » يستخدمها ويتركها لغيره ، وهو أيضاً « عهدة » لا يستردها أحد وإنما عهدة تتنقل من يد إلى يد ومن مرحلة إلى مرحلة . خطوة خطوة .. بلا خوف ولا دين ..

ومن المعروف أن الانطباعات الأولى هامة وعميقة جداً عند الطفل ، ولا بد أن ملازمة الأم للطفل هى التى جعلته يتعلق بها ولا يرى غيرها ، فاذا انفصل عنها بكى ، ولكن يمكن أن تقوم المربية بهذا الدور ، ولكن لأن المربية لا تستطيع أن تعنى بطفل واحد ، أو بكل الأطفال بنفس الدرجة ، فإن المربية لا تستطيع أن تعطى نفس انطباعات الأم ، وليس ضرورياً ، ولكن الذى يترك الأثر العميق فى نفس الطفل هو طفل آخر ينام إلى جواره فى سريره ، أو فى السرير المجاور له فإذا حدث أن ابتعد هذا الطفل عن جاره ، لأى سبب ، لوحظ أن الطفل يمتنع عن الطعام حتى يعود إليه الطفل ، وبذلك يرتبط الطفل بزميله .. وفى ذلك يعتمد الطفل على غيره من الأطفال ويرنبط ، وبذلك يكون فى المستعمرة عشرات التوائم : نفسياً واجتماعياً .

وقد لوحظ أن الأطفال فى هولندا مثلا يعيشون فى بيوت نظيفة وصحية جداً ، ولكن يحب الأطفال فى هولندا أن أمهاتهم يتركنهم فى البيت وبذلك لا يوجد عند الطفل وقت للعب ، والطفل الذى لا يلعب لا يستطيع أن يكتشف العالم الخارجى ، ولا أن ينشط خياله ولا أن يثق فى أصابعه وفى نفسه أيضاً ، ولذلك فاللعب ضرورى لأنه عن طريق اللعب يكون الطفل اجتماعياً ، ويصطدم الطفل بغيره ويعرف حدود قدرته ، ومن الضرورى أن يعرف ذلك فى كل وقت .

والطفل اليهودى فى المستعمرة كلما كبر عرف العالم الصغير الذى حوله واستغنى عن أمه تماماً ، وعن المربية .. ولا يحب أحداً : لا أمه ولا مربيته ولا مدرسته ، وإنما يحب زملاءه . ويحب المستعمرة ، وفى ذلك استغناء عن الأب والأم والدين ، فالمستعمرة هى أبوه وأمه ووطنه ودينه ومستقبله .

حدث أن دارت مناقشة بين أعضاء إحدى المستعمرات ، وكان موضوع المناقشة : ولماذا لا ينام الطفل — فقط ينام — فى غرفة والديه ، على أن يعود فى النهار إلى مكانه من المدرسة ؟

وقرر طفل فى التاسعة من عمره أن يشترك فى هذه المناقشة ، لأن الموضوع يهمه هو وزملاءه أيضاً ، وكان رأى الطفل أنه يفضل أن ينام مع والديه ولما سئل عن السبب قال : إننى أسمع صوت الذئاب والكلاب .

وقيل له : لماذا ؟

قال : لأننى أحس بوحدة شديدة ، أما هناك فلا أحس بشىء من ذلك ! ..

قيل له : ولكنك عندما تكون مع والديك فإنك لست وحدك . أنت تنام فى غرفتهما .

وكان جوابه : ولكن والديَّ ليسا معى طول الوقت .. ولكن زملائى ورفاقى معى طول الوقت .. ومنذ ولدت ..

وفى إحدى المستعمرات ترك أب ولده ، ثم عاد إليه بعد عشر سنوات وتقدم بطلب لكى يتمكن من رؤية طفله ويسلمه بعض الهدايا ، واعترضت المستعمرة على الهدايا، وسألت الأب إن كان يمانع فى أن يمنحها للمستعمرة كلها .

ووافق الأب بشرط أن يستبقى واحدة لابنه ، واعترضت المستعمرة أن يكون لطفل واحد أية ميزة لا تتوافر عند بقية الأطفال ، ووافق الأب ، وحددوا موعداً للقاء الاثنين وجاءت المربية وقدمت الطفل ، وتركت الابن وأباه ، ولم تمض سوى دقائق حتى انفصل الاثنان ، والدموع فى عينى الأب ، واستنكرت إدارة المستعمرة أن يكون الأب بهذا الضعف أو بهذه الإنسانية ، ففى ذلك خوف على الطفل قد يهز قلبه أو يترك فى نفسه أثراً سيئاً أو ضعفاً ، أما بكاء الأب فسببه أن ابنه يتكلم العبرية أما الأب فلا يعرفها ، كما أن الابن لا يعرف اللغة البولندية — لغة والديه .

فما الذى يريدونه فى هذه المستعمرات ؟ ما الذى يريدون أن يغرسوه وأن يقتلعوه أيضاً ؟

إنهم يريدون أطفالا بلا أمهات ولا آباء ، ويريدون أمهات ليست كل صفاتهن أنهن أمهات..وآباء ليست كل مؤهلاتهم أنهم آباء، ولا بد أن يعملوا شيئاً آخر . وأن يتركوا للمستعمرة أن تتولى الباقى ، وأن يكون الحب والولاء للشعب وللمستعمرة وللأرض وللتاريخ .. ولتاريخهم هم ..

قالت سيدة لها ثلاثة من الأولاد يعيشون فى مستعمرات متفرقة .. لا أعرف بالضبط إن كنت قد ولدتهم ، ولا أعرف إن كنت الآن أحس بأى شىء نحوهم .. أما الثلاثة فأنا أعرف شعورهم .. لا شىء ..

وسنمضى فى عرض هذه التجربة الغريبة العجيبة لأطفال بلا أمهات ولا آباء ..

الكلاب ..
تأكل كل قلوب الأمهات

نعود إلى قصة الملك سليمان .

فقد جاء إلى سليمان امرأتان ومعهما طفل . وكل واحدة تقول : هذا ابنى ..

ولم يعرف الملك سليمان حقيقة الأمر . وفكر قليلا . ثم اقترح عليهما حلا : أن يقطع الطفل نصفين . فوافقت واحدة وصرخت الأخرى . وأدرك الملك سليمان أن هذه الصرخة لا تصدر إلا عن قلب أم . فأعطاها الطفل .

ولو ذهبنا الآن إلى المستعمرات اليهودية ، وجاءت امرأتان وتشاجرتا على طفل وصرخت الاثنتان فى نفس واحد ، فإن النتيجة معروفة : هى أن المستعمرة تطرد السيدتين ، أما التهمة فهى : أن كل واحدة منهما تريد أن تهدم نظام المستعمرة الذى يقوم على ضرورة إبعاد الأم عن الطفل ، والطفل عن الأم . فلا أم لأحد ، ولا أب لأحد.. ولا ابن لأحد .. فالكل للمستعمرة . هى أم الجميع وأبو الجميع ..

والأطفال بعد الثالثة والخامسة لا يشعرون بضرورة الأم أو الأب . فليس للأب دور . وكذلك الأم — فلا هى تطعمه أو تعلمه أو تكسوه . وإحساس طفل المستعمرة بوالديه ، كإحساس أبناء الفقراء فى أى مكان فى العالم : ضعيف وليس ضرورياً من وجهة نظر الأطفال على الأقل .

وفى هذه السن يواجه الأطفال مشكلة هامة جداً : كيف يذهبون إلى دورة المياه ليلا ؟

كثيرون من أطفال المستعمرة يتبولون فى فراشهم فماذا يحدث لهم ؟ من المعروف أن المربية ليس عندها متسع من الوقت لتدريب كل هؤلاء الأطفال ولذلك ليس لدى الأطفال آداب دورة المياه. ومن هنا كانوا يتبولون فى الفراش . فإذا فعلوا ذلك فماذا يحدث ؟ لن يضربهم أحد لن يؤذيهم أحد ولا يشعر الطفل بأنه أخطأ كثيراً .

تقول سيدة ذهبت إلى أمريكا ومعها طفلها بعد أن أمضيا فى إحدى المستعمرات عشر سنوات : فوجئت بأن طفلى لا يذهب إلى دورة المياه إذا كنت فى البيت .. فلا أكاد أخرج من البيت حتى يذهب إليها . وحاولت أن أعرف السبب . ولما سألته قال : إنني أريد أن أترك باب دورة المياه مفتوحاً كما اعتدت فى المستعمرة ولكنك لا تحبين ذلك .

وقد سئل كثير من أطفال المستعمرات : ما الذى تذكره عن طفولتك ؟

وكانت الإجابة واحدة : كنا نخاف من الظلام إذا ذهبنا إلى دورة المياه ليلا .

ولكن يمكن أن نفكر فى الأسباب التى تجعل أطفال اليهود فى المستعمرات يتبولون على أنفسهم . لا بد أن هناك أسباباً منطقية . فالطفل يولد وينمو ويكبر على عدد من التعليمات تقول له : أنت لا تملك شيئاً . ولا أحد كذلك . ويجب ألا تملك شيئاً . فأنت ملك للمستعمرة . طعامك وشرابك وملابسك ولعبك وسريرك وغرفتك.. كل هذه الأشياء «عهدة» . لا مال .. ولا بنون ..

ولا آباء . الجميع للجميع . كل شىء .. من أجل المستعمرة . ولا بد أن يكون الشعور العام بأن الإنسان يجب ألا يمسك شيئاً أو يحتفظ بشىء هو الذى يدفع الطفل ألا يمسك نفسه عن التبول . ألا يحتفظ بشىء فى نفسه .. والعالم الكبير فرويد له رأى فى ذلك هو أن الطفل الذى يمسك نفسه من التبول والتبرز ، هو الطفل الذى يستطيع أن يملك شيئاً ويحب أن يملك شيئاً .

ولذلك فالمستعمرة لا تشجع الطفل على أن يتمسك بأبيه . ولا أن يتمسك به أبوه . وتمنع حتى الأب أو الأم أن تعطى طفلها هدية ، أو ملابس جديدة ، فيمتاز عن غيره من الأطفال .. ممنوع . الاختلاف عن غيره ممنوع وكثيراً ما شكت طفلة بأنها تريد فستاناً آخر مثل زميلة لها فى غرفة النوم . ولكن المربية تمنع أمها من ذلك .. ثم تذهب إلى الطفلة التى حصلت على فستان آخر جديد وتسحب منها الفستان وتتشاجر مع أمها .

ويحدث كثيراً أن تذهب المربية إلى أم أحد الأطفال وتدفع باب غرفتها بقوة وتخطف الطفل من صدرها . والطفل يبكى . والأم أيضاً . ثم تضع الطفل بين زملائه فى غرفة النوم ، فليس من حق أى أم أن تحتضن طفلها ، ولا أن تعلمه على الارتباط بها .. وتذهب الأم وتنظر إلى طفلها من وراء السور أو النافذة . ويكون الطفل قد سكت . وتبلع الأم دموعها .

وفى الصباح تجد على باب غرفتها هذه العبارة : ليس من أجل حنانك أقيمت هذه المستعمرات . إن كان عندك قلب ، فاخلعيه وأعطيه للكلاب . فكلنا أمهات . ولكن المستعمرة أم الجميع .

وإذا نظرت إلى الأطفال وهم يلعبون ، وجدت كل طفل مشغولا بشىء . فاللعبة واحدة متشابهة . ولا يوجد طفل يمسك شيئاً فى يده.. وأحياناً تلمح طفلة قد أمسكت مخدتها ووضعتها على صدرها . إن هذه الطفلة تشعر بشىء من الأمان إذا فعلت ذلك . ولكن إذا حاول أب أن يبعث

بلعبة إلى ابنه ، استولت عليها المربية وأخفتها عن الأطفال جميعاً .

وعند تقديم الطعام ، لأطفال في الخامسة من العمر ، يلاحظ أن الأطفال لا يغسلون أيديهم .. أو يغسلونها .. إنهم أحرار . فلا يوجد أحد يضرب على يديه ويقول له : اغسل يديك .. وفمك .. إياك أن يقع شيء على ملابسك .

لا أحد يقول للطفل ذلك . لا تهديد . لا تخويف . ولا توجد هذه الغيرة أيضاً بين الأطفال . فلا أحد يملك أكثر من الآخر . ولا أحد يرتدى ملابس أحسن من الآخر .. ولا يتناول طعاماً أفضل من طعام الآخر .. والجدران عارية من الصور واللوحات . والأرض كذلك . والأطباق واحدة والشوك والسكاكين .. وجميع الأطفال يعملون على تربية الدواجن والأغنام .

ولا خوف عليهم إذا خرجوا من المستعمرة .. فلا سيارات ولا قنوات ولا تلال ولا جبال .

ولا توجد علاقات بين الآباء فيقول واحد : إن ابني متفوق على ابنك.

ليست لهذه العبارة المعنى الذى يعرفه آباء الطبقة المتوسطة . يروى أحد الآباء أنه عرف بمحض الصدفة أن ابنه قد تفوق على زملائه فجلس على مائدة الطعام فى الغرفة الجماعية وقال : إننى أتوقع لابنى مستقبلا عظيماً.

فقررت المستعمرة نقل الابن إلى مستعمرة أخرى حتى لا يثير الأب نزاعاً بين الآباء وبين الأبناء أيضاً .

واللغة أيضاً ليست مشكلة . فالطفل يجد دائماً من يتحدث إليه . إنه لا يشكو العزلة . ولذلك نجد الأطفال يتحدثون فى سن مبكرة ولا يخافون من الخطأ . والشعور بالوحدة الذى يلازم المراهقين لا وجود له أيضاً . لأنه من المستحيل أن يكون الإنسان وحده . أو يتركه أحد وحده . بل من المستحيل أن لا يكون له صديق.وبذلك ينفرد اثنان فى مكان دون بقية

الأطفال أو الشبان .

فإذا تزوج اثنان من الشبان . فليس من الضرورى أن يتناول الاثنان الطعام على مائدة واحدة . بل يذهب الرجل إلى مكان والزوجة إلى مكان آخر . وعند النوم فقط يلتقى الاثنان . ولا تنظر المستعمرة بارتياح إلى زوجين متلازمين ، إن المستعمرة تسخر من هذه الرومانسية البلهاء .

وفى أحد الأفلام اليهودية التى تعرض فى المستعمرات قصة اسمها « لكي نكون وحدنا » . الفيلم يصور طفلين تقاربا وتحابا واتفقا على الزواج . وتزوجا . واتفقا ألا يكون لهما أطفال حتى لا يتباعدا . ولكن جاء طفل رغم ذلك . وكان الأب يتمنى أن يكون الطفل ولداً ، وكانت الأم تتمناه بنتاً . وكبر الطفل الذكر . وحاول الأب والأم أن يخطفا الطفل ويتركا المستعمرة وأن يعيشا فى المدينة ، ولكن الطفل رفض الذهاب معهما — وحاول الأبوان إغراءه بالملابس والهدايا واللعب . ولكن الطفل رفض . واتهم الأبوان مربية الطفل بأنها هى التى حرضته . وأمام القاضى أعلن الطفل أنه لا يحب المربية ولا يحب أمه أيضاً . وأنه لا يشعر نحو أحد بأى شىء .. ونزل القاضى من المنصة ليقبل الطفل وهو يقول : ابن المستعمرة البار .

وقبل أن يعلن القاضى حكمه بإبعاد الطفل عن أبويه .. وإبعاد الأبوين عن المستعمرة تقدم الطفل وعمره عشر سنوات ليقول للقاضى : وأرفض هذه القبلة . إنها رشوة احتقرها .

وكانت سعادة القاضى أكبر . لأن الطفل بلا عواطف . ولا يشعر بالامتنان لأحد من الناس .

وفى ١٦ أبريل الماضى نشرت صحيفة « هيرالد تربيون » الأمريكية مقالا بعنوان « آباء وأبناء : خيال وحقيقة » .. إنها قصة الأب إسحاق ياشيف سنجر يقول فيها إنه التقى بابنه بعد عشرين عاماً . الابن اسمه :

إسرائيل زامر — وزامر هي الترجمة العبرية لكلمة سنجر الإنجليزية التي معناها المغني أو المطرب أو الزامر . أما الابن فقد نشر قصته في إحدى المجلات الإسرائيلية . يقول الابن إن والديه انفصلا وهو في الخامسة من عمره . الأم ذهبت إلى روسيا والأب ذهب إلى أمريكا . وبقي هو في بولندا . ثم نقلوه إلى تركيا . ومن تركيا إلى فلسطين إلى إحدى المستعمرات . وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ذهب إلى نيويورك لزيارة والده . نزل إلى الشاطىء .. عرف والده .. اقترب منه . احتضنه الأب وقبله .. وركب الاثنان السيارة . ولم يدر بينهما كلام. حاول الأب أن يحطم الجمود بينهما .. ولكنه ظل كما هو .. أما الأب فيروى قصته مع ابنه .. فيقول إنه تلقى خطابات ابنه .. الخطابات تحاول أن تقرب بينه وبين ابنه . ولغة الابن خليط من العبرية القديمة والعبرية الحديثة . وقد مزق الأب هذه الخطابات .. وقبل ذلك ذهب الأب لزيارة ابنه في المستعمرة . لقد تصور الابن أن والده سوف يجيء في سيارة كبيرة . وأن المستعمرة سوف تحمله حملا لكي يرى والده ، وسوف يجده أبيض الوجه أشقر الشعر غليظ العنق .. ولكن الأب كانت صورته مختلفة ولم يشعر الابن بشيء غير عادى عندما رأى والده ..

ويقول الابن : جاء والدى .. وابتسم ابتسامة عريضة بلهاء للجميع .. وهز رأسه معجباً بكل شيء . أما ملابسى فكانت بسيطة باهتة مثل لون بشرتي ولم أجد ما أقوله .. ولم أطلب إلى والدى أى شيء .. ولما سألني إن كنت أريد شيئاً .. قلت : لا شيء .. وفعلا كنت أقصد ذلك .

يقول الأب : وعندما التقينا فى نيويورك وجدت المسافة بيني وبينه كبيرة لا يمكن عبورها . وعقدة لا يمكن حلها . وكنت أنا الذى أحاول أن أجعل الماء دماً .. أى أجعل مجرد التعارف : أبوة وبنوة — ولم أفلح ..

انتهت القصة التي نشرتها الصحيفة الأمريكية . وهي قصة يمكن

تكرارها ووقوعها فى أى وقت لأى أحد فى أية مستعمرة يهودية .

والذين كتبوا تعليقاً على هذه القصة يقولون : إنه ليس من حق الأب أن يتوقع شيئاً من ابنه .. لأن الأبوة ليست اسماً يضاف إلى اسم الابن. وإنما هى علاقة متواصلة منتظمة . وهذه العلاقة لم يكن لها وجود .. وكذلك الابن لا يعرف الأب ولكن يعرف عنه .. يعرف أنه انفصل عن الأم .. وأن الأم قررت أن تترك طفلها لأحد من أقاربها لأنها لا تستطيع أن تعوله وحدها ..

فالمستعمرة وفرت هذا العناء على الأبوين . ولذلك ليس من حق الأبوين أن يطلبا شيئاً من الامتنان لما قاما به نحو الطفل.. فهما لم يقوما بشىء فلا معنى للأبوة ولا للأمومة ولا للبنوة أيضاً .

وبذلك تكون علاقة الابن بوالده ، والبنت بوالدتها ليست من العقد النفسية التى يعانيها ابن المستعمرة اليهودية .. ولذلك دلت الأبحاث المدنية على أن طفل المستعمرة أقل اضطراباً عاطفياً . وأقل انحرافاً . فهو فى نعومة الرخام وبرودته أيضاً .. ولا بد أن تكون للمراهقة فى المستعمرة اليهودية دلالة أخرى ومشاكل أخرى أيضاً .

ما الذى يفعله القنفذ فى الشتاء ؟

الذين أسسوا المستعمرات اليهودية كانت حياتهم مختلفة تماماً : منتهى الانطلاق . لا قيود . لا حواجز .. لا فوارق .. لا أحد يملك شيئاً .. ثم لا شيء ممنوع .

لقد جاءوا من الحوارى فى أوروبا ، قرروا ألا تكون هناك حارات فى المستعمرات . الأبواب مفتوحة بعضها على بعض .. الأيدى والأرجل والأفواه متقاربة .. الجنس بلا زواج .. والزواج بلا أولاد .. والأولاد بلا رعاية . فقد تعبوا من كل ما هو قانون . ومن كل ما هو دستور وشريعة . ولذلك كانوا إباحيين . وكانوا ملحدين أيضاً — معظم المستعمرات اليهودية الآن ملحدة فيما عدا المستعمرات التى تديرها الأحزاب الدينية .

وكان لمؤسسى المستعمرات اليهودية حكمة : إنهم جاءوا يعملون كل ما كان ممنوعاً . وما كان محرماً عليهم . كانوا لا يزرعون الأرض ولا يملكونها فأصبحوا يزرعونها ولا يملكونها أيضاً فالأرض ملك للجميع ..

ولكن لم يستفد المؤسسون شيئاً كثيراً من الحريات الجنسية . ولذلك عادوا فقيدوا الجنس . بل يمكن أن يقال إنهم منعوه . أو ضغطوا عليه حتى اختفى . ويكفى أن ننظر إلى الشبان المراهقين . ماذا جرى لهم .. إن الشبان والشابات ينامون فى غرف واحدة حتى الثامنة عشرة ، أى قبل الالتحاق بالجيش . الشبان ينامون متقاربين من الشابات .. ومنذ الطفولة . لا أحد يخجل من شيء . فهم يتجاورون مرهقين . ويذهبون إلى الحمام معاً . وإلى دورات المياه المكشوفة . لا أحد يخفى شيئاً . ولا أحد يخجل من أى شيء : فكل شيء ظاهر .. الأنوثة عارية والرجولة بارزة.

وإذا نظرنا إلى برنامج الدراسة والعمل اليومى عند شبان المستعمرات اليهودية وجدنا حياتهم مليئة بساعات من الإرهاق المستمر . فبعد الدراسات لا بد من ساعات العمل فى تربية الحيوانات أو الدواجن أو المزرعة أو صيد السمك أو العناية بالقنوات أو الفاكهة أو البحيرات الصناعية . وكل شيء بنظام . وفى ساعات محدودة . ولا يتبقى بعد ذلك للشاب أن يفعل شيئاً .. ينام فقط .

وفى حياة الشبان لا شيء جديد . فحياتهم مشتركة . وافكارهم متشابهة وليس عند أحد شيء يخفيه . ولذلك فليست لهم أعماق خاصة . ولا حتى أحلام يقظة . حياتهم كلها فى الخارج . أما حياتهم الداخلية النفسية فليس عندهم متسع من الوقت لكى يكون هناك خيال وأحلام يقظة وليس عندهم وقت لكى يتساءل أحد : ماذا سأفعل غداً ؟ فلا داعى لهذا السؤال . فالمستعمرة قد ضمنت له الغد . فمن المؤكد أنه سيجد ما يأكله . وما يعمله. وليس عليه أن يقلق على شيء . وإنما عليه أن يتعلم وأن يعمل . وأن يتفوق فى عمله . والذى لا يعمل لا يجد ما يأكله . ومن الممكن معاقبة المهمل بأن يأكل وحده . وأن يتعذب بمقاطعة زملائه له .

ومن المألوف فى الخطابات التى يبعث بها أبناء المستعمرات إلى أقاربهم

أن تجد هذه العبارة : لقد تأخرت عليك فاعذرني : ليس عندى وقت .

ومن الأشياء التي يشكو منها الشبان التعب . الدراسة مرهقة وشاقة . والعمل أيضاً . ولذلك يسخر الشبان في المستعمرات ويقولون : آباؤنا هربوا من السجون ليبنوا لنا هذه السجون : المدارس ..

ولا أحد يشعر بالإشفاق على هؤلاء الشبان . فهم يتعبون ويتساقطون نياماً على العشب . أو تحت الأشجار فإذا سألت أحد المدرسين : لماذا كل هذا التعب ؟ ويكون رد المدرس ، ما دام التعب عاماً ، فلا معنى للشكوى. وإذا قلت له : لماذا لا تكون راحة عامة أيضاً ؟ ويكون جوابه الحاضر السريع : إنهم أحسن منا ، فقد كنا نتعذب في السجون وحوارى اليهود . أما الآن فعلى الشبان أن يحموا مكاسبهم . وعليهم أن يتوارثوا أن الحياة صعبة . وأن الذى وصلوا إليه الآن لم يكن أمراً سهلاً . يجب أن يرضعوا العذاب ، وأن يذوبوا تعباً .

حدث أن رأى أحد السياح الأمريكان شاباً يتعثر من التعب . فلما حاول أن يمد يده إليه ، منعه أحد رجال المستعمرة قائلاً : اتركه .. لا خوف عليه .. إنه سوف يقع على أرضه .. ولن تدوسه سيارة .. ولن يأكله الذئب.. إنه أحسن حالاً من أجداده .. كانوا طعاماً للكلاب في سجون أوروبا .

ولم يلاحظ هذا السائح الأمريكى أن أحداً قد وقف ليأخذ بيده . ولما اندهش قيل له إن شيئاً من هذا يحدث في العواصم الأمريكية . فلو سقط إنسان في الطريق ، فإن أحداً لن يتعطل من أجله .. وإنما يشير برجله إلى أحد رجال الشرطة .. أى أنه ينبهه إلى أداء واجبه .

وإذا أردت أن تفهم معالم الشاب اليهودى في هذه المستعمرات فإنها ببساطة هكذا : لا سلطان للأب أو الأم أو الدين عليه .. وهو في نفس الوقت ثائر على التقاليد الموجودة في المدن ، في كل المدن .. ثم أنه يعتقد

أن الجنس طبيعي وضروري وصحي ، ولكن ليس الآن .. وهو حر في اختيار الدين الذي يؤمن به والعقيدة التي تعجبه .. والغريب أنه ليس لديه وقت لكي يكون له رأي في أي شيء . فهو لا يأكل ما يعجبه . وإنما يأكل ما يقدمونه له . وهو لا يلبس ما يريده ، وإنما الذي يريدونه له . ولا يرى الأفلام التي تعجبه ، وإنما التي يعرضونها عليه .. ولا يعرف إن كانت في الدنيا أشياء أخرى غير التي اعتاد عليها . ولا يعرف إذا كانت هناك أساليب أخرى للحياة . ولذلك فهو إذا خرج من المستعمرة لا بد أن يعود إليها . لأنه اعتاد عليها . واعتاد أن يجلس ويأتوا له بالطعام والشراب .. وأن كل ذلك بلا فلوس .. فلا فلوس في المستعمرات .

ولكن أحياناً تشتد المناقشات في داخل المستعمرات . ويكون موضوع المناقشات بين الشبان غريباً . من ضمن الموضوعات : هل الذي يرتديه الجميع مناسب ؟ هل نبحث عن زي آخر . فإذا أثيرت قضايا الأزياء ، كانت الفتاة هي صاحبة هذه القضية . فالفتاة في المستعمرة تريد فساتين أنيقة . ولكنها لا تستطيع . تريد أن تسوي شعرها وأن تصبغ أظافرها وشفتيها ولكن المستعمرة كلها تعترض على ذلك . لعدة أسباب : تعترض على الخروج على البساطة . وتعترض على أن يمتاز أحد على أحد — الشابات عن الشبان . وتعترض على استخدام أي أسلوب في الإثارة الجنسية . لان الجنس يشغل الجميع عن العلم . ولا بد من القضاء نهائياً على إثارة مثل هذه القضايا ، حتى لا تكون هناك مناقشات . وحتى لا يكون هناك طرفان متنازعان . فلا ضرورة للنزاع . ولا ضرورة لتعدد الأطراف ووجهات النظر . وإنما الواجب أن يكون هناك شيء واحد موحد : زي واحد . طعام واحد. رأي واحد . هدف واحد . أمل واحد . وطن واحد .

فإذا ذهب الشبان إلى الجيش احسوا بالسعادة . ففي الجيش ساعات عمل محدودة . وإجازات أسبوعية وسنوية . وأطعمة مختلفة وفرصة للراحة والتنويع . وحريات أكثر . ومن الممكن أن يكون له أصدقاء من الجنسين.

أما الصداقة في المستعمرة فممنوعة منعاً باتاً . ممنوع أن ينفرد شاب بشاب ويتحدثا . ممنوع . لأن الزمالة فوق الصداقة . وأبناء المستعمرة زملاء . لا أصدقاء .

والكاتب الإسرائيلي أجنوب الذى فاز بجائزة نوبل فى الأدب يقول : المصافحة باليد أحسن من الأحضان . والأحضان احسن من القبلات . والقبلات على الجبين احسن من القبلات على الشفتين .. الأفضل أن يسلم الإنسان من بعيد .. بعيداً .. اللمس يكفى . الزمالة أفضل من الأخوة والأخوة أفضل من الصداقة .. والصداقة أوسع من الحب . والحب مثل الكراهية غليان كريه ..

ولذلك من المناظر المألوفة بين الشبان فى المستعمرة أن يقول الواحد للآخر : سلا ، شالوم .. وكيف حالك ؟ ثم لا يتوقع رداً على ذلك . إنها عادة أن يقول بعض الشبان شيئاً . وعادة أخرى ألا يرد عليه أحد بشيء . وليس عند الشبان شيء يقولونه . فهم جميعاً يعرفون كل شيء . وليس عند أحد ما يضيفه إلى معلومات أحد . ولذلك من المشاهد المعروفة فى المستعمرات أن تجد الشبان جالسين فى صمت . جالسين فى حالة انتظار : بعد الدراسة يجيء العمل . وبعد العمل تجيء الراحة . وبعد الراحة تجيء الدراسة . وهكذا بانتظام .

ومن الأشياء الغريبة التى لاحظها السياح الذين يزورون المستعمرات أن الشبان يهجمون عليهم في غرفهم فى أى وقت . ويتحدثون إليهم . ومن الممكن أن يكون السائح فى نصف ملابسه . ولكن أحداً من الشبان لا يشعر بحرج . فقد اعتادوا على أن يكونوا عراة جميعاً .. رجالاً ونساء وشباباً وشابات .. ومن المألوف أن نجد شاباً يقوم بربط السوتيان لفتاة .. دون أن تجد الفتاة ما تخفيه أمامه ..

ويتضايق السياح عادة وينتظرون تفسيراً لذلك . والتفسير واضح : أنه

فى داخل المستعمرات لا توجد خصوصيات .. لا أحد يملك شيئاً خاصاً . ولا زياً خاصاً . لا غرفة خاصة . ولا ملابس خاصة . وليس عند أحد ما يخفيه عن أحد : من نفسه أو من جسمه .

وقد وصفت الأديبة يائل ديان ابنة موشى ديان حالة المستعمرات . وجربت الحياة فيها . وقد ولد أبوها فى إحدى المستعمرات ثم انتقل بعدها الى مستعمرة تعاونية ، أقل قيوداً . وقالت يائل فى روايتها المشهورة « طوبى للخائفين » : إن الشبان يخجلون من خجلهم . ويخافون من خوفهم . يخافون من الحب . ويخافون من إحساسهم بالضعف . بل إن الأمهات يندمن على أنهن يهوديات . فكل طفل وكل شاب وكل امرأة يجب أن يحمى نفسه من مشاعره .. أن يقاومها أن يقضى عليها . ألا يشعر باحتياجه إلى شيء . أو إلى أحد من الناس . يجب أن يشعر الإنسان بأنه أصم . بلا مسام . وأن لديه مناعة ضد كل ما يهز أعصابه .

وتقول يائل ديان أيضاً : هل تعرف ما الذى يخافون منه ؟ إنهم يخافون من هذه المشاعر التى تهزهم.. ويخافون أن تهزهم.. ولذلك يحاولون إخمادها أولاً لكى يقضوا عليها نهائياً . وبذلك يتحرر كل شاب من غرائزه .. إلا ما كانت ضرورية لبقائه ، أو لتخفيف توتراته العصبية .. إنها معركة عنيفة . ولكن إخماد أطرافها يجيء بالتجربة المستمرة .

ولكن شعوراً واحداً قوياً يجب أن يبقى وأن يقوى : شعور الشبان نحو المستعمرة . ونحو الوطن . فالمستعمرة فوق كل فرد ، والوطن فوق كل المستعمرات وكل دين وكل عقيدة .

وبعد حرب يونيو سنة ١٩٦٧ أدخلت بعد التغييرات على أسلوب الحياة فى المستعمرات . فقد كانت التعليمات عند أبناء المستعمرات : الدفاع حتى الموت . ومن الضرورى أن يموت كل شاب على أبواب مستعمرته . هذا واجب . وهناك عقيدة أخرى تقول : إن كل أجنبى – أى من ليس يهودياً –

في داخله شيطان . هذا الشيطان يجب أن نقتله قبل أن يقتلنا .

وعقيدة ثالثة تقول : إن الماضى أسوأ ما فى تاريخ اليهود كله . والحاضر مهما كان الخوف والفزع الذى تفيض به حدود الدول العربية فإنه أرحم من المستقبل إذا انتصر العرب .

وعقيدة رابعة تقول : الحرب قاتل وقتيل .. لا حلول وسطى .

والتعديلات التى أدخلت على نظم المستعمرات أنه من الممكن ألا يموت أبناء المستعمرات . من الممكن أن يحاربوا بشكل آخر .. أو أن يهربوا ليعاودوا القتال من جديد . فاليهودى كائن قيم . نادر . ولذلك تجب حمايته . ويجب تسخير غير اليهود للدفاع عن اليهود . وإذا كان لا بد أن يموت أحد ، فليمت أي إنسان آخر غير يهودى .. العدو .. أو المرتزقة الذين يشتريهم اليهود بفلوس .

ربما كان الفيلسوف الألمانى شوبنهاور يتحدث عن اليهود وعن سكان المستعمرات عندما وصف العلاقات الإنسانية أنها كالعلاقات بين حيوانات القنفذ . تلك الحيوانات التى تغطى جسمها بالشوك ، فهذه الحيوانات تتقارب فى الشتاء حتى تشعر بالدفء . ولكنها إذا تقاربت جداً ، فإن أشواكها تؤلمها . ولذلك فهى تتقارب إلى حد ما .. هذا التقارب لا يدفئها وفى نفس الوقت لا يوجعها . وإذا أرادت أن تتقارب أكثر وأكثر فعليها أن تحتمل أوجاع الدفء .. ولذلك فهذه الحيوانات تفضل التعارف البارد الذى يبقيها، على التقارب الدافئ الذى يقضى عليها .

وكذلك أبناء المستعمرات اليهودية يتقاربون ويتباعدون فى نفس الوقت.. زملاء أصدقاء .. فالزمالة هى التقارب إلى حد ما . والصداقة هى التقارب لدرجة أن تتداخل الأشواك ليتوجع الجميع .. ولذلك فلا أحد يشتاق إلى أحد . ولا أحد يحن إلى أحد . ولو مات أى إنسان فى أى مستعمرة ، كان مثل ورقة سقطت من شجرة فى الخريف .. إنها ليست إلا ورقة من شجرة .. من ألف شجرة .

حتى لا ينظروا وراءهم في ندم ..

أمام عدد من الأصنام دار هذا الحوار بين إبراهيم والملك النمرود .

قال الملك النمرود : لماذا لا تعبد واحداً من آلهتنا ؟

قال إبراهيم : لا أعبد صنماً رأيت رجلاً يصنعه بيديه .

قال الملك : بل اعبد النار .

– كيف أعبد النار والماء يخمدها ؟

– إذن اعبد الماء .

– كيف أعبد الماء والسحب هي التي أسقطته ؟

– إذن اعبد السحب .

– كيف أعبد السحب التي يحركها الهواء ؟

– إذن اعبد الهواء .

– كيف أعبد الهواء الذى يستطيع الإنسان أن يقفل فى وجهه الباب

والشباك ؟ ..

– إذن اعبد الإنسان .

– كيف أعبد الإنسان الذى يقهره الموت ؟

– إذن اعبد الموت .

– كيف أعبد الموت وهو من صنع الشر ؟

– إذن اعبد الشر .

– كيف أعبد الشر والله هو الذى خلق الخير والشر ؟.

– .. .. ..

ويقال إن الملك النمرود لم ينطق بكلمة ، فقد كان إبراهيم مقنعاً . ولكن أحفاد إبراهيم فى المستعمرات اليهودية يحذفون كل هذا الحوار ، ويرون أنه لا داعى لأن يملأوا رؤوس الصغار والكبار بعبادة النار والهواء والسحب .. والله .. فالطفل يجب أن ينشأ لا يخاف من أب أو من حاكم أو من السماء . فقد خاف اليهود كثيراً وطويلاً ، ويجب أن ينتهى هذا الخوف بالقوة .

ولكن ما الذى جعل اليهود يبتدعون نظام المستعمرات الزراعية والصناعية؟

إن المستعمرات فى إسرائيل من إنشاء يهود أوروبا الشرقية ، فقد أقاموا هذه المستعمرات أول الأمر على شكل مخيمات أو أكشاك خشبية أو من الطوب أو الحجارة ، وكانت حياتهم فيها بدائية ، ثم تطورت هذه المستعمرات حتى تحولت إلى مؤسسات من الحجارة والإسمنت المسلح ومخابىء وشوارع ومصانع صغيرة . وكل مستعمرة تضم ما بين مائة وألفى شخص . وهى وحدة اقتصادية سياسية اجتماعية مستقلة وتدار بشكل جماعى ويلتقى أهلها على شكل جمعية عمومية مرة كل أسبوع ويديرها سكرتير عام ، وصراف ، وناظر زراعة ومدير مصنع ،

ومفتش تعليم .. ولها مطبخ واحد ، ومطعم واحد ، وإن كان من حق كل سكان غرفة أن يعدوا لأنفسهم القهوة أو الشاى فى غرفتهم . والملكية عامة ، لا أحد يملك أى شيء ، حتى الملابس ملك المستعمرة ، وقد سمح أخيراً جداً لكل فرد بعشرة جنيهات فى السنة يتصرف بها كما يريد. وإذا قرر يهودى أن يكون عضواً فى إحدى المستعمرات فعليه أن يسلمها كل ممتلكاته ، وأن ينتظر سنة كاملة يكون فيها تحت التمرين قبل أن يقبلوه عضواً ، وإذا ترك المستعمرة فممتلكاته هذه لا ترد إليه ، ومن الممكن أن تعير المستعمرة بعض رجالها إلى مستعمرة أخرى يعملون فيها ، ولكن مرتباتهم لا يقبضونها ، وإنما تؤول إلى المستعمرة نفسها .

ولكن ما هى الفكرة الأساسية من وراء قيام هذه المستعمرات ؟

ثم ما هى النتائج التربوية الاجتماعية فى شباب المستعمرات ومستقبل الشباب الإسرائيلى ؟

يهود أوروبا الشرقية هم الذين أقاموا إسرائيل وهم الذين ضاقوا بحياة الحوارى ، أى بأن يعيشوا فى أحياء مظلمة قذرة منعزلة تماماً عن المجتمع الأوروبى كله . أى أنهم عاشوا منبوذين من مجتمع لا يريدهم ، وفى داخل هذه الحوارى تماسكوا عائلياً وأخلاقياً ودينياً ، وكانت حياتهم متلاصقة ملتصقة . وكانوا يعيشون فى خفاء ، وكانوا يحملون ثرواتهم معهم من الذهب ومن المنقولات ، وإذا كانت لهم سفن ، فعند الخوف يتحركون بثرواتهم إلى أى مكان ، وكان الأب هو صاحب الكلمة ، أو رجل الدين نفسه .

فعندما هاجر يهود أوروبا الشرقية إلى إسرائيل ، كانوا يريدون حياة بلا حوارى مغلقة ، حياة يملكون فيها شيئاً جديداً على حياتهم : يملكون الأرض وينامون عليها ، ويعملون فيها بأيديهم ، ويحرسونها ، وكانوا منبوذين من كل الناس لأنهم كانوا يملكون الثروات لذلك كرهوا

الملكية ، كرهوا أن يملكوا ، فالمستعمرات على المشاع : لا أحد يملك شيئاً فالأرض للجميع ، وثرواتها للجميع .

ولأن سنوات التشريد قد باعدت بين الأم والأب والأولاد ، ولأن الأمهات يتعذبن والأولاد والآباء ، فقد قرر اليهود الذين أنشأوا المستعمرات ألا يكون هناك عذاب للأولاد بعد ذلك . فالحياة بلا أم ولا أب ، لا حاجة للأم ولا حاجة للأب ، ولا حياة مع الأبوين ، وبذلك لا ينحرف سلوك الطفل إذا اختلف الأبوان ، أو تشاجرا أو انفصلا ، أو كان الأب مقامراً أو سكيراً .. وتكون الجناية بعد ذلك على الأطفال ، ومستقبل الأجيال .

كلما كانت الفرصة متاحة للجميع فى الطعام والشراب والعلاج والتعليم والعمل ، نقصت التناقضات الاجتماعية وذابت الفوارق نهائياً بين بيض وسمر وسود ، يتامى ولقطاء وأغنياء وفقراء .

وإذا كانت الفرص متكافئة ، وكان الحقد منعدماً ، والتنافس لا وجود له لا يضطرب الأطفال أثناء المذاكرة ، بل إن الامتحانات لا وجود لها ، حتى لا يكون هناك تنافس ، وحتى لا يكون هناك تقاتل ، وحتى لا تتجه غرائز الأطفال إلى القتال والصراع الداخلى .

فإذا لم ينشغل الطفل بأبويه ، ولم ينشغل بالبحث عن الطعام والشراب والمذاكرة كان من السهل تركيز اهتمام الطفل نحو حب إسرائيل وكراهية أعدائها .. أو كراهية كل من ليس يهودياً ، فإسرائيل هى أم الأطفال ومستقبلهم ، وعليهم بعد ذلك أن يشعلوا نار الحقد فى نفوسهم ضد أعدائها من العرب .

ويمكن أن يقال إن يهود المستعمرات مختلفون عن يهود إسرائيل ، فيهود المستعمرات عالمهم محدود وحياتهم بسيطة مرسومة ، متقشفة . أما اليهود خارج المستعمرات فما تزال فيهم صفات يهود أوروبا الشرقية فيهم خوف وفيهم رغبة فى الامتلاك وفيهم اهتمام بالأسرة وباللون وبالطبقة .

أما يهود المستعمرات فعندهم نوع من الواقعية غريب ، إنهم يعتقدون أن حياتهم هى أحسن حياة ، وأنه إذا كان الحب ممنوعاً ، فحب المستعمرة واجب ، وإذا كانت الأحلام ممنوعة فالحلم الوحيد الذى ينفذونه ويستسلمون له ، هو أن تكون إسرائيل كلها مستعمرة واحدة . لا يعرفون الشكليات : المجاملات والذوق ، ولذلك فيهم جفاف وقسوة وبرودة ، يمكن أن يقال وقاحة أيضاً . إن المستعمرات قد جعلت منهم طرازاً مختلفاً من اليهود ، ولكنه الطراز الذى يناسب الحياة فى هذه المستعمرات أيضاً .

وإذا كانت إسرائيل لا تستطيع أن تعيش من غير مساعدات خارجية هائلة ، فكذلك المستعمرات لا تستطيع أن تعيش من غير مساعدة الدولة ، فتزودها بالآلات والقروض والتخطيط . ولكن شيئاً واحداً لا تحتاج إليه هذه المستعمرات : لديها خطة من حديد تمشى عليها وترفض أن يتدخل أحد فى تطبيقها ، فعندها سياسة فى التربية والتعليم صارمة وقاسية أيضاً .

ولذلك كثيراً ما هرب الشبان من الحياة فى المستعمرات : أى رفضوا المجتمع المغلق وعادوا إلى المجتمع المفتوح ، ويبلغ عدد الذين يهربون من هذه المستعمرات ١٠٪ من سكانها .

ولكن إسرائيل تلجأ إلى أسلوب آخر فى ترغيب الشبان فى الحياة فى المستعمرات ، وذلك بأن تدربهم فى بلادهم الأوروبية والأمريكية على حياة تشبه حياة المستعمرات (شباب الهيبيز يقيمون مستعمرات منعزلة عن المدينة يعيشون فيها على البساطة وعلى العمل البسيط ، وعلى الصناعات اليدوية ، بعض هؤلاء الشبان يسافر فى الإجازات المدرسية إلى المستعمرات اليهودية ليستأنف هذه الحياة) .

ويقول أديب يهودى معاصر : هذه المستعمرات فيها عيب واحد وهى أن تشبه الحدائق ذات الأسوار العالية جداً ، هذه الأسوار أقيمت لحماية الأشجار الصغيرة ، ولكن إذا سقطت الأسوار أهلكت الأشجار التى تحميها ..

أما شعار هذه المستعمرات اليهودية فهو . تسوية اليهود ، أو أقلمة اليهود من كل الألوان والأجناس ، وإزالة الفوارق بينهم ، وعدم التمسك بتقاليدهم القديمة ، وعدم الارتباط بالأب والأم ، وإنما كل يهودى يشبه شجرة الصبار .. تنمو فى الصحراء شائكة من الخارج ولكن من الداخل تقطر عسلا ، الشوك لأعدائه من كل الشعوب ، والعسل لوطنه وقومه ، والمستعمرات اليهودية تشبه المصحة أو الحجر الصحى لعلاج أمراض التاريخ ..

أو بعبارة أخرى : إنهم يحاولون فى هذه المستعمرات أن « يصنعوا » طرازاً من المواطنين . هذا الطراز « عمولة » كما تقول فى التعبير الشعبى ، أى كما يريدون ، ويغرسون فيه الحب الكراهية . وكذلك التخفف من أعباء الدين والتاريخ . وأهم من ذلك : ألا ينظر اليهودى إلى ماضيه فى ندم ، وألا يبكى على الماضى ، وأن يطرد من رأسه الأوهام والمخاوف .

وربما كان من عيوب التربية فى مدارس المستعمرات : أنها تحاول أن ترفع القاعدة وفى نفس الوقت أن توقف نمو القمة . أو بعبارة أخرى : أن حرص البرامج التعليمية على تقليل الفوارق والمزايا بين الطلبة يفسح الطريق أمام الطفل المتوسط الذكاء ، ولكنه فى نفس الوقت يسد الطريق أمام المتفوقين ، ولكن نجاح أى برنامج تعليمى لا يقاس بما يحققه للأقلية ، ولكن بما يحققه للأغلبية ، هذا صحيح ، ولكن واحداً عبقرياً يساوى ملايين الطلبة العاديين .

وعيب آخر : هو أن المستعمرات تحاول أن تخلق شباباً جامداً جافاً ، ولكن هذا الشباب لا بد أن ينقل من الحياة فى المستعمرة إلى الحياة خارجها ، وهذه مشكلة ، فإذا كانت المستعمرات قد أزالت مخاوفه ، وقربت بينه وبين بقية الأطفال اليهود فإن الحياة خارج المستعمرة ستجعله يشعر بنوع آخر من الغربة ، بل بتوسيع معانى الغربة : فابن المستعمرة غريب عن أبويه ، ولا يهتز لرؤيتهما ولا يحن ولا يشتاق ، فإذا انتقل إلى المجتمع المفتوح كان غريباً ، وأكثر أبناء المستعمرات يعودون إليها ، لأنهم قد اعتادوا

على الحياة فيها ، أما الحياة بعيداً عنها فضياع ..

عيب ثالث : إن الحياة فى المستعمرة تجعل الشاب فى حالة اعتماد تام على الآخرين ، هم الذين يقدمون له الطعام والشراب ، وهو ليس فى حاجة إلى أن يشترى شيئاً ، أو يذهب إلى السوق .. أما خارج المستعمرة فعليه أن يعتمد على نفسه من جديد ، وبذلك يبدأ فى سن متأخرة جداً أن يعتمد على نفسه .

وهناك خلافات بين رجال التربية فى المستعمرات ، وبين الخبراء الأمريكان أيضاً : هل من الضرورى تشديد القيود على الأطفال والشبان ؟ أم أن الأفضل هو التشديد فى الطفولة والتخفيف فى مرحلة الشباب ؟

معظم الآراء ترى ضرورة التشدد فى جميع مراحل التربية ، فالطفل الذى يرفض الدواء ، لأنه لا يعرف ما ينفعه ، يجب أن يكرهه الكبارعلى الدواء وعلى التعلم وعلى حب الوطن وكراهية الأعداء .. وعلى أن كل شىء يقوم على العلم ، وعلى أن العلم طويل والعمر قصير ، ولذلك يجب ألا نضيع الوقت فى اللهو والعبث والتراخى .

● ● ●

إنما أردت فقط أن نعرف أطفال أعدائنا وشبابهم ورجالهم .. ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم لعلنا نستفيد ...

الفهرس

مطابع الشروق

بيروت . ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة . ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

الحائط والدموع

- **قصة** طويلة معقدة ... قصة اليهود في العالم .

- **والصهيونية** ... أو القومية اليهودية نهاية واضحة الآن ... نراها ونسمعها ، ونواجهها ونبكي على ما كان منها .. وعلى ما كان منا أيضا ..

- **وتفاصيل** القصة نعرفها .. ولا فائدة من سردها إلا إذا كان في النية الصادقة أن نستفيد مما حدث ...

- **وما حدث** كثير جدا ... والذي بكينا عليه كثير جدا ... وشعورنا بالندم والذنب والهوان ... هو أوضح مشاعرنا وأصدقها أيضا ... الوضع أصبح غريبا عجيبا ..

- **فقد كان** لليهود حائط واحد يبكون عليه ... وأصبح الحائط معهم ، ولم يعودوا يبكون عليه ...
ونحن الذين أصبح لنا في كل أرض حائط .. ونبكي عليه ..
كانوا يبكون ، ولم يعد لديهم مبرر للبكاء ...
ولم نكن نبكي ، وأصبح لدينا مبرر للبكاء ...

- **فهل نستفيد** من تجارب اليهود : نبكي بعين ، ونقرأ بالعين الأخرى .. نقرأ تاريخ هؤلاء الأعداء العاقلين العا

- **إن العداوة** وحدها لا تكفي ... كما أن الحب وحده لا
العداوة عمياء ، كالحب تماما ، إلا إذا وضعنا لها ه
ورسمنا لها طريقا .

أنيس منصور